

الحيوان في شعر الهنليين

دراسة وصفية تحليلية



دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

*

darjundi46@gmail.com

الحيوان في سفر الهنليين دراسة وصفية تحليلية

د. أحمد عبد الرحمن محمود سويلم

*

الطبعة الأولى (2023).

*

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

الحَيَوَانُ فِي شِعْرِ الرَّهْزَلِيِّينَ

دراسة وصفية تحليلية

أحمد عبد الرحمن محمود سويلم

الطبعة الأولى

2023 م

الإهداء

- إلى روح أمي
 - إلى روح أبي
 - إلى روح أستاذي وشيخي الأستاذ إبراهيم الخواجه
..... تغمدهم الله بواسع رحماته، وأسكنهم فسيح جناته
 - إلى زوجتي التي سهرت وساندت وأزرت وشجعت
 - إلى أبنائي: مُصعب، وآلاء، ومحمد، ومؤمن، ومروان، وعبد الرحمن؛
..... الذين أراهم غدي ومستقبلي
 - إلى أخوي هُشام وشاهر، وأخواتي الذين شجعوني وقَدَّموا ما أمكنهم من عون
 - إلى من أحبهم
- أهديهم هذا الجهد

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين على ما أجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ مجاز الحقيقة وحقيقة المجاز، أما بعد :

فيجد دارس التراث العربي كنوزاً كثيرة فيه، إذ إن تراثنا غني بالظواهر والقضايا التي تحتاج إلى اهتمام وبحث مستفيذين لاستجلائها، وكشف ما اعتراها من غموض، وبخاصة تلك المتعلقة بديوان شعر الهذليين، الذي حفظ بين دفتيه شعر هذيل، فالحيوان في ديوان الهذليين لم ينل ما يستحق من الدراسة والبحث في كثير من الجوانب الأدبية والاجتماعية والأسطورية.

فالحيوان في حياة الإنسان الهذلي له مكانة مميزة، في عقيدته وفكره، وغزواته ومعاركه، وتجارته وتنقله، وصيده ورعيه، ورغم ذلك لم يحظ بدراسة مستقلة عند الباحثين فيما تم تناوله، من خلال الدراسات التي تناولت البحث في قبيلة هذيل بشكل عام، أو من زاوية بيانية أو بلاغية أو تاريخية، أو دراسة ديوان شاعر من هذيل، لكن بقيت هذه الدراسات تدور في الإطار العام دون التوجه مباشرة إلى الحديث عن الحيوان في شعر الهذليين.

قد دفعني لاختيار هذا الموضوع أسباب عديدة، أهمها : لم يتناول أحد من الدارسين – فيما أعلم – هذا الموضوع بشكل مستقل من قبل، ورغبت في دراسة الشعر الجاهلي بعامه، وشعر الهذليين بخاصة، وإبراز صورة الحيوان الفنية الواردة في شعر الهذليين، وأبعادها الأسطورية والنفسية والرمزية والاجتماعية والنفسية .

ويهدف البحث إلى تقديم توصيف للحيوان الوارد في شعر الهذليين عبر دراسة موقع الحيوان وقيمه لدى الإنسان العربي في المعتقد الديني والأسطوري والفكري في الجاهلية، لإثبات أن الحيوان في الشعر الهذلي كان امتداداً وجزءاً مهماً من معتقدات العرب في الجاهلية، كما يبين مواضع ورود الحيوان في ديوان الهذليين؛ في الرثاء والنسيب والفخر والحماسة والمدح والهجاء والحنين والحكمة والمثل الشعري، ويستعرض الصورة الفنية التي قدمها الهذليون للحيوانات الأليفة والمتوحشة والضارية والزواحف والحشرات، ويجلّي الأبعاد الدينية والأسطورية والرمزية والنفسية والاجتماعية والإنسانية التي تضمنها ورود الحيوان في شعر الهذليين، ويظهر بعض الجوانب الأدبية والتراثية الواردة في ديوان الهذليين، ويبرز ما غمض منها.

واعتمدت المنهج التكاملي في دراستي هذه، فأفدت من المناهج: الأسطوري، والوصفي والنفسي، والرمزي، حيث يلزم .

ومن أهم الدراسات التي تناولت شعر الهذليين : دراسة أحمد كمال زكي وعنوانها : " شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي"، وفيها عرّف بأصول قبيلة هذيل، ودرس شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي من حيث: أغراضه وسماته وخصائصه، وعرّف ببعض شعراء هذيل المشهورين، ودراسات عبد الجواد الطيب : " لغة هذيل "، و" هذيل في جاهليتها وإسلامها "، وفيهما عرّف بقبيلة هذيل من حيث : لغتها وموقعها بين العرب، وأثر ذلك على سلامة اللغة وقوتها، ثم عقد مقارنة بين أحوالها وظروفها قبل إسلامها وبعده، ودورها بين القبائل في العصرين الجاهلي والإسلامي، ودراسة نورة الشملان : " أبو ذؤيب الهذلي: حياته وشعره"، التي تناولت الشاعر أبي ذؤيب الهذلي : حياته، وسماته، وأشعاره، والأغراض التي كتب فيها، ودراسة إسماعيل المنتشة: " أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي "، وفيها قدّم بحثاً مستفيضاً عن هذيل وظروفها الاجتماعية والاقتصادية وخصائصها الشعرية واللغوية ، وأثر ذلك في محيطها من القبائل العربية المجاورة، ودراسة نصرت عبد الرحمن : " الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الجاهلي"، وفيها عقد موازنة بين الواقع والأسطورة في ديوان شعر أبي ذؤيب الجاهلي، ودراسة أحمد الجدد : " تاريخ هذيل وأنسابها " ، التي تناول فيها الجانب التاريخي لقبيلة هذيل، وأنسابها .

ومن الرسائل الجامعية – غير المنشورة - التي ناقشت ميراث الهذليين الشعري والأدبي، " شعراء هذيل أخبارهم وأشعارهم " للمكي العلمي، و" لغة هذيل " لعبد الجواد الطيب، و" الحوار في شعر الهذليين " لصالح السهيمي، و" شعر ساعدة بن جؤية " لميساء قتلان، و" الصورة البيانية في شعر الهذليين " لمحمد الحسن الأمين ، و" الصورة الفنية في شعر الهذليين" لعاطف محمد كنعان، و" النزعة القصصية في شعر الهذليين " لأسماء عبد المطلوب السيد .

وكتبت أبحاث علمية قصيرة عديدة في شعر الهذليين ، ومن أهمها : بحث إبراهيم العطية " لغة هذيل " المنشور في مجلة الأقلام العراقية، وبحث جريدي سليم المنصوري " مشهد النحل في شعر الهذليين " المنشور في مجلة كلية اللغة العربية في جامعة أم القرى، وبحث عالي بن سرحان القرشي " اشتيार العسل عند الشعراء الهذليين " المنشور في مجلة جامعة أم القرى .

وبناءً على ما سبق، تأتي دراستي هذه لتغطي جانباً مهماً في شعر الهذليين، هو الحيوان الوارد في ديوان شعرهم، الذي اشتمل على مجموعة كبيرة من الشعراء الجاهليين والمخضرين والإسلاميين منهم.

وجاء بحثي في أربعة فصول، في الفصل الأول: تحدثت بإيجاز عن قبيلة هُذَيْل من حيث: نسبها وأصولها وبطونها، وبيئتها الجغرافية وحياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ثم بينت دور الأسطورة في تشكيل المعتقدات لدى العرب، وموقع الحيوان في معتقدات العرب التي قدّست بعض الحيوانات، ثم أشرت إلى موقع الحيوان الأسطوري في المعتقدات العربية بعامة والهذليّة بخاصة. وفي الفصل الثاني، درست مواضع ورود الحيوان في شعر الهذليين، واستعرضت وروده في: الرثاء، والنسيب، والفخر، والحماسة، والمدح، والهجاء، والحنين، والحكمة، والمثل الشعبي محلاً لأسباب ذلك، والصّور المقدمة في سياقها.

وفي الفصل الثالث، تناولت صورة الحيوان الفنيّة في شعر الهذليين، فقسمت الحيوانات التي عاشت في بيئة هذيل الجغرافيّة إلى: حيوانات أليفة تستأنس النّاس، وتعتمد عليهم كالنّاقة والحصان الأهلي، وحيوانات متوحشة لا تستأنس النّاس، ولا تعيش بينهم ولا تعتمد في غذائها على افتراس غيرها كالثور والحصان الوحشيين والوعل، وحيوانات ضارية لا تستأنس النّاس وتعتمد على افتراس غيرها للحصول على غذائها كالأسد والنمر، وكذلك الطيور. وفرّقت في حديثي بين الحشرات والنحل لما بينها من اختلاف في الصّورة الفنيّة ونظرة الهذليين المختلفة بينهما .

وفي الفصل الرابع، تناولت الأبعاد الدّينيّة والأسطوريّة الكامنة وراء تناول الحيوان، من خلال استعراض بعض الصّور التي أبرزت نظرة الشّاعر الهذلي إلى الحيوان وكيفية تقديمه، وفي البعد الرّمزي بينت كيف استخدم الشّاعر الهذلي الحيوان في إشارات الرّامزة إلى طبيعة الحياة وعلاقاته مع محيطه، ونظرته إلى الموت وتقلبات الدهر. وفي البعد النّفسي بينت الدّوافع التي دفعت الشّاعر إلى تقديم صورة الحيوان، ومضامين كل صورة، وما ترشح عنه من مشاعر وهواجس ومخاوف. في البعد الاجتماعي أبرزت المظاهر الاجتماعيّة التي تجلت في صورة الحيوان في الجانب الإنساني عبر اتصاف الإنسان بالقيم الاجتماعيّة التي دلت عليها صورة الحيوان، وفي الجانب الحيواني أشرت إلى خصائص اتصفت بها الحيوانات من حيث تجمعها في قطيعها، وأماكن إقامتها أو علاقتها الأسريّة، أو في علاقتها الجنسيّة ما بين الذّكر والأنثى. وفي البعد الإنساني تناولت بعض الصّور التي أبرزت الصّفات الإنسانيّة التي سعى الهذليون إلى وصف الحيوان بها؛ من ثقة ومروءة وكرم وإيثار وعطف وحماية، أو طمع وجبن .

ومن أهم الصّعوبات التي واجهتني؛ الحالة المرضيّة التي مرّ بها المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجه رحمه الله رحمة واسعة، ثم وفاته. وكذلك صعوبة المفردات والكثير من الألفاظ المغرقة في البداوة في ظل شح التّفسير الحديثة مما صعب كثيراً التّحليل والتّفسير .

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشّكر إلى كل من ساعدني وقدم لي العون في إنجاز هذه الدّراسة، ابتداءً من التّوجيه والإرشاد في اختيار الموضوع، والحثّ عليه من الأساتذة في دائرة اللّغة العربية، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور إبراهيم الخواجه رحمه الله، ومروراً بجمع الكتب والمادة العلمية، وانتهاءً بخروجها بحلتها الحالية، مع خالص مودتي واحترامي للأساتذة المشرفين والمناقشين لها، على جهودهم الخيرة في الأخذ باليد، ورفع الهمة وتصويب المسارات من أجل تقديم الأفضل وخدمة الأدب العربي.

والله وليّ التّوفيق

الباحث :

أحمد عبد الرحمن محمود سويلم

فلسطين / بيت لحم

نيسان ، 2012م – شعبان 1433هـ

الفصل الأول: قبيلة هذيل وموقع الحيوان عند العرب

- أولاً : التعريف بقبيلة هذيل.
- ثانياً: دور الأسطورة في تشكيل المعتقدات عند العرب.
- ثالثاً: موقع الحيوان في الأساطير والمعتقدات عند العرب.

أولاً : التعريف بقبيلة هذيل :

تجمع المصادر على أن هذيل قبيلة شمالية صريحة النسب، وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهي قريبة من قبيلة قريش في نسبها، فجد القرشيين خزيمة بن مدركة أخ لهذيل بن مدركة⁽¹⁾.

1. ما معنى هذيل ؟

الهذولة في لسان العرب: " السرعة والاضطراب في العدو، والهذلول السريع الخفيف، وقيل للذئب هذلولاً لسرعته وخفته واضطرابه في حركته، وتتناسب الخفة مع السرعة"⁽²⁾، وقد اشتهرت هذيل بالسرعة في العدو، حتى فاقت أغلب القبائل العربية الجاهلية في هذه الصفة. ولعل اسم القبيلة جاء من هذا المعنى، فلم يكن اسماً لها بل صفة لصقت بها لشهرتها بها، فغلبت الصفة الاسم مع الأيام، ونسي الناس التعامل مع الاسم. أو سمى مدركة ابنه هذيلاً نسبة إلى الذئب، وهو هذلول فسماه به مصغراً⁽³⁾، على غرار بعض العرب التي كانت تسمى بعض أبنائها ذؤيب وكليب؛ نسبة إلى الذئب والكلب، لكنها كانت تطلقه مصغراً، من باب التحب والتلطف، ونظرتها إلى الحيوانات وتقديسها لبعضها.

2. بطون هذيل ومنازلها⁽⁴⁾ :

قبيلة هذيل عشائر كثيرة، وبطون متعددة تعدداً يلفت النظر، ويثير الانتباه، برز ذلك في شعر الشعراء الجاهليين الذين تعرضوا لهذيل مدحاً أو قبحاً، أو في شعر الهذليين، يقول مالك بن خالد الخناعي⁽⁵⁾:

فأَيُّ هُذَيْلٍ وَهِيَ ذَاتُ طُـوَائِفٍ يُـوَازِنُ مِنْ أَعْدَائِنَا مَا نُـوَازِنُ

ووردت أسماء العشائر والبطون في شعر الهذليين كلما اعتزوا بقبيلتهم، أو انتقص من شأنهم آخرون مناهضون لهذيل، أو على لسان بعض شعراء هذيل أنفسهم ممن ينتمون إلى بطون وأفخاذ أخرى، كان بينها وبين أبناء عموماتها ما يدعو إلى التعريض بها أو النيل منها. فجاء ذكر بطون هذيل في الشعر في سياق الفخر والهجاء .

(1) ينظر : النويري، نهاية الأرب ، 2 / 349 ؛ الألوسي، بلوغ الأرب ، 3 / 28 .

(2) ابن منظور، لسان العرب ، مادة : هذل .

(3) ينظر : أحمد الجدد ، تاريخ هذيل وأنسابها ، ص 11 .

(4) ينظر : أحمد الجدد ، م . ن ، ص 78 – 109 .

(5) السكري، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 446 .

ويقسم خليل العطية قبيلة هذيل إلى بطون وأرهاط: " ولهذيل بطون سعد، ولحيان، وعمير والعدد في سعد، وأرهاط أشهرها: تميم، وحريث، ومنعة، وخناعة، وجهام، وغنم، ومعاوية، والحارث، وهم رهط عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ " (1).

وشغلت هذيل ببطونها الكثيرة مساحة واسعة من منطقة الحجاز، بين مكة والمدينة، كان أغلبها الأقرب إلى مكة مكاناً، وإلى نواحي المدينة اتصالاً (2). فسكنت عدة منازل منها: عرنة (3)، وعرفة (4)، وبطن أنف (5). وعدة أودية، ومنها: سعيًا وحلية (6)، ووادي نعمان (7)، ووادي نخلة، ويسمى نخلة اليمانية، وهي ذات عرق (8)، وأوطاس: واد في ديار هوازن (9)، ومركوب: واد أعلاه لهذيل وأسفله لكاننة (10)، وملكان: واد لهذيل أسفله لكاننة (11)، وأدام الوثير: ما بين أدام إلى عرفة (12). وعدة جبال، ومنها: مكا وشمنصير والأرك (13)، وجبال الجوز (14)، وفراس (15)، والوتر (16)، والمراح (17)، وككب (18)، والوصيق جبل أدناه لكاننة، وشقه الآخر لهذيل (19).

وحافظت هذيل على منازلها بعد الإسلام، رغم توزعها على الممالك في أثناء الفتوحات الإسلامية (20).

3. أيام هذيل :

قامت العلاقة في الجاهلية بين القبائل العربية وهذيل - غالباً - على انتهاز الفرص والحدز والتنافس والتربص، للحصول على مورد ماء أو مرعى أو طمع في إبل أو فرس أو متاع آخر، كالرغبة في الرئاسة أو الأخذ بالثأر أو اعتداد بنفس أو مفاخرة بقوة أو غضب لجار أهين أو دفاع عن عهد نقض، فكثر الغارات والسلب والنهب وكثر السبي والقتل. فكثر أعداؤها وخصومها، فكانت لها أيام مع

(1) خليل إبراهيم العطية، لغة هذيل، ص 97.

(2) ينظر: عبد الجواد الطيب، هذيل في جاهليتها وإسلامها، ص 51.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 220.

(4) ياقوت الحموي، م. ن، 3 / 215.

(5) ياقوت الحموي، م. ن، 1 / 323.

(6) ياقوت الحموي، م. ن، 2 / 112 ؛ 2 / 455.

(7) ياقوت الحموي، م. ن، 4 / 235.

(8) ياقوت الحموي، م. ن، 4 / 222.

(9) ياقوت الحموي، م. ن، 3 / 217.

(10) ياقوت الحموي، م. ن، 4 / 91.

(11) ياقوت الحموي، م. ن، 4 / 157.

(12) البكري، معجم ما استعجم، 1 / 39.

(13) ياقوت الحموي، م. س، 4 / 145، 3 / 61، 1 / 85.

(14) ياقوت الحموي، م. س، 2 / 30.

(15) ياقوت الحموي، م. س، 1 / 27.

(16) ياقوت الحموي، م. س، 4 / 287.

(17) ياقوت الحموي، م. س، 4 / 79.

(18) ياقوت الحموي، م. س، 3 / 464.

(19) ياقوت الحموي، م. س، 4 / 300.

(20) ينظر: عبد الجواد الطيب، م. س، ص 70 - 71.

قبائل كثيرة خاصة مع قبيلة "سُلَيْم" في الجاهلية، حتى أنعم الله عليهم بالإسلام. ومن أشهر أيام هُذَيْل: يوم "القدوم" مع سُلَيْم وفيه كانت الدائرة على هُذَيْل، ويوم "ظهر الحرّة" وفيه دارت الدائرة على سُلَيْم⁽¹⁾. ويوم "الرجيع" مع خُزاعة، ويوم "البوابة" مع هوازن، كما كان لهُذَيْل أيام أخرى مع قبائل: كنانة وجُهينة والأزد⁽²⁾.

لم تكن أيام هُذَيْل مع القبائل العربية الأخرى فحسب، بل كان بعضها بين بطون هُذَيْل ذاتها، ودوافعها الثأر وحماية الجار والوفاء له؛ كيوم العُزج"، أو إلى سوء فهم تطوّر إلى صراع، كيوم "العوصاء"، و"الأحث"، و"الركبات"، و"داعة"⁽³⁾.

4. الحياة الاقتصادية :

لم تعد هُذَيْل السِّلْب والنَّهْب عيباً، بل مصدراً من مصادر حياتها الاقتصادية، ومظهراً من مظاهر الشجاعة، ووسيلة من وسائل الرِّزْق والثروة، فاشتهر فيها الصَّعاليك لكثرتهم، وكادت تكون ظاهرة الصَّلَكة عامة في القبيلة؛ إذ جعلوا جُلَّ همِّهم غزو القبائل والقوافل؛ ينبهونهما ويسلبونهما، فكانت أرزاقهم في رماحهم .

واللافت للنظر في حياة قبيلة هُذَيْل الاقتصادية؛ أنها جمعت بين عدة أنشطة، فمن رضي الاستقرار اشتغل بالزراعة، فأرض هُذَيْل مليئة بالأودية غزيرة الماء، كثيرة الفواكه، مما سمح بنشأة زراعة شملت الحبوب كالقمح والشعير، يقول المُنْتَخِل الهُذَلِي⁽⁴⁾:

[البسيط]

لَا دَرَّ دَرِّي إِنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَكُمْ قِرْفَ الْحَتِي، وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ

وكان صيد الحيوان في الصحراء مصدراً أساسياً للحياة عند هُذَيْل، فالحيوانات من حمر وأتن، وثيران وبقر وحشية، كانت مصدراً لطعامها، رغم أن الذين اعتمدوا على الصيد هم الفقراء، ومن أصابهم العوزُ وسوء الحال، يقول صخر الغي⁽⁵⁾:

[الطويل]

أُتِيحَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ طَالَ عُمُرُهُ جَرِيمَةَ شَيْخٍ قَدْ تَحَنَّبَ سَاغِبُ
يَحَامِي عَلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ إِذَا شَتَا وَفِي الصَّيْفِ يَبْغِيهِ الْجَنَّا كَالْمُنَاجِبِ
فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ اللَّهُ مَنْ رَأَى مِنَ الْعُصْمِ شَاةً قَبْلَهُ فِي الْعَوَاقِبِ

(1) ينظر : أحمد الجدع ، تاريخ هُذَيْل وأنسابها ، ص 110 .

(2) ينظر : إسماعيل الننتشة ، أشعار هُذَيْل ، 1 / 206 - 222 .

(3) ينظر : أحمد الجدع ، م . س ، ص 112 .

(4) السُّكْرِي ، شرح أشعار الهُذَلِيِّين ، 3 / 1263 .

(5) الهذليون ، الديوان ، 2 / 54 - 55 ؛ أُتِيحَ لَهُ : قُدِّرَ لَهُ ، جريمة شيخ : صياد يكسب لأبيه، تحنَّب : احدوب فتحتت عظامه، السَّاعِب : الجائع ؛ يحامي عليه في الشتاء إذا شتا : الصياد يحمي شيخه في الشتاء من كل أذى ، وفي الصيف يبغيه الحنا : وفي الصيف يقدم له الثمر المقطوف .

ولم تكن التجارة بيد هذيل، فتجارة اليهود وقريش لم تجعل لها حظاً بالاشتغال في التجارة، إلا من تبادل محدود في أسواق أقيمت على جنبات الطرق التجارية، أو في الأسواق الكبرى كعكاظ ومجنة وذبي المجاز⁽¹⁾. فتجارة هذيل المشروعة كانت محددة بطاقتها المادية، في حين تتبع بعض هذيل أواخر القوافل التجارية، فأغاروا عليها، وسلبوها، ثم لاذوا بالفرار.

وعمل معظم أبناء هذيل بتربية النحل واشتتار العسل، ولعل ما يميز قبيلة هذيل أنها عدت جوانب مصادر ثروتها الاقتصادية، ونوّعت في ميادينها، وكوّنت نفسها بما يلائم بيئتها الجغرافية، و"من الحق أنه كان للحياة عند هذيل وجوه شتى وفنون متباينة، ولسنا نغلو إذا زعمنا أنها كانت تلائم بين ما تريد وبين ما هو كائن، فإذا كان رعي رعت، وإن كانت تجارة تاجرت، وإن كان غير هذا وذاك فهي مكيّفة ظروفها لما هو موجود"⁽²⁾.

5. الحياة الاجتماعية :

كان التمسك بالقيم والتقاليد من أهم ما انتصفت به العرب، فأدت واجبات اجتماعية مقدسة كإكرام الضيف والإيفاء بالعهد والوفاء بالوعد.

وتمسكت هذيل بقيم العرب وعاداتهم، رغم حالة الفقر المنتشرة فيها، وكان الإخلال بتقاليد الضيافة، محل استهجان القبيلة بعامّة، والشعراء بخاصة الذين أشادوا بإكرام الضيف وإقراءه، وعابوا البخل وذمّوه وعدّوه نقيصة بالغة، يقول المتنخل⁽³⁾:

لو أنه جـاءني جـوعان مهتلك
من يؤسّ الناس عنه الخير محجوز
أعيا وقصر لـمـا فاتـه نـعم
يبادر الليـل بالعلـياء محفور

وانتصفت هذيل بالعديد من الصفات المحمودة والمذمومة، كما هي أغلب القبائل العربية في الجاهلية، ومن الصفات المحمودة: البسالة والمروءة وحماية الجار، واحتمال الشدائد والصعاب مدافعاً عن حريته وكرامته وعرضه، فكان أبيعاً عزيز النفس، وبالشجاعة والنجدة، ولها في ذلك مواقف مشهودة مع الأعداء والأولياء، تجلّى ذلك عندما أجذبت قبيلة فهم - العدو اللدود للهذليين - حتى خشيت الهلاك على نفسها، فخرجت في جمع من أشرفها إلى بني صاهلة من هذيل، وشكوا ما آلت إليه أحوالهم بسبب الجذب والقطط، فقبلت هذيل رجاءهم وجوارهم، وأرعوهم من أرضهم ما شاءوا. وهذا أمر نادر الحدوث

(1) ينظر : أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين ، ص 79 .

(2) إسماعيل الننتشة ، أشعار هذيل ، 1 / 326 .

(3) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 3 / 1263 .

بين الخصوم والأعداء في الجاهلية⁽¹⁾. كما اتصفت بالكرم، والجود والسَّخاء، والإيثار والعفة والإباء، يقول أبو خراش الهذلي⁽²⁾ :

أَرَدْتُ شُجَاعَ الْبَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ وَأَوْثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّعْمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذِلَّةٍ وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمٍ

فالشاعر الهذلي يصبر على آلام الجوع، مؤثراً غيره بالطعام، حرصاً منه على عزته وكرامة نفسه.

ومن صفات الهذليين وعاداتهم المذمومة: وأد البنات؛ خوف الجوع وانقطاع الرزق بها، وخشية العار. والفاحشة، وانتهاك الحرمات، والمخاللة بين الرجال والنساء، فنجد المنافسة بين رجل ورجل على امرأة واحدة⁽³⁾. وقد يجمع الرجل بين امرأة وابنتها، فيتصل بهما جميعاً، أو أن تطبق امرأتان على حب رجل واحد فتؤمانه، أو أن توفر دار للقوادة؛ فتجمع رجلاً بامرأته في بيت آخر⁽⁴⁾.

وكانت هذيل أقل من غيرها في احتساء الخمر الذي كان ميسوراً للأغنياء، فالكدح في سبيل توفير لقمة العيش لم يدع لهم فرصة لحياة الشرب واللهو. ورغم ورود بعض صفات الخمر عند شعراء الهذليين، إلا أنهم لم يصفوا مجالس الخمر في أشعارهم، يقول المتنخل⁽⁵⁾ :

يَمْشِي بَيْنَنَا حَانُوتُ خَمَرٍ مِنْ الْخَرَسِ الصَّرَاصِرَةِ الْقَطَاطِ
رُكُودٍ فِي الْإِنَاءِ لَهَا حَمِيًّا تَلْذُّ بِأَخْذِهَا الْأَيْدِي السَّوَاطِي
مُشْعَشَعَةٍ كَعَيْنِ الدَّيْكِ لَيْسَتْ إِذَا ذَبَقْتَ مِنَ الْخَلِّ الْخَمَاطِ

6. الحياة الثقافية :

تفوقت هذيل على كثير من القبائل العربية في الجاهلية والإسلام في حياتها الثقافية؛ بما امتازت به عن غيرها من خصائص وميزات، منها:

أ. الفصاحة :

تعدّ هذيل إحدى القبائل العربية التي وصفت بالفصاحة والبيان، فلغتها إحدى اللغات التي نزل بها القرآن الكريم، لذا اعتمد عثمان بن عفان رضي الله عنه في نسخته المعتمدة من القرآن الكريم على قاعدة أن الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل، وأحرق المصاحف الأخرى التي كانت لدى الصحابة.

(1) ينظر : عيد الجواد الطيب ، هذيل في جاهليتها وإسلامها ، ص 127 .
(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 128 ؛ شجاع البطن في لسان العرب : أن العرب تزعم أن الرجل إذا طال جوعه تعرضت له في بطنه حية يسمونها الشجاع والصفر .
(3) ينظر : عيد الجواد الطيب ، م . س ، ص 131 .
(4) ينظر : السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 397 ، و 1 / 387 ، و 1 / 207 .
(5) الهذليون ، م . س ، 2 / 21 ؛ الخرس الصراصرة القطاط : يريد صاحب حانوت أعجمي نبطي شامي ، أجدد ؛ ركود في الإناء : صافية ساكنة ، حمياها : سورتها ، الأيدي السواطى : الأيدي المتناولة ؛ المشعشة : أرق مزجها ، الخمطة : الخمرة التي أصبح لها ربحاً ولم تستحكم فلم تبلغ الحموضة أي لم تصبح عتيقة .

واعتادت العرب أن ترسل أبناءها إلى قبيلة هذيل كي يتعلموا اللغة، وتصفوا أذهانهم، ويتربوا في بيئة سليمة فتقوى ألسنتهم وأجسادهم. واستمر ذلك حتى وقت متأخر من العصر الأموي، فأقام الإمام الشافعي رحمه الله عند هذيل وعاش فيهم سبع عشرة سنة، فحفظ أشعارهم، وتذوق أساليبهم، وتأثر بشعرهم وفصاحته وبيانه، فغدا راوياً له يقرض الشعر. وعاش في كنفهم الأصمعي الذي روى أشعار هذيل، واستفاد من سلامة لغتهم، التي نجت من العجمة لابتعادها عن الاختلاط بالأعاجم، وصفت لبينتها الجبلية الصافية التي يصعب على غير الهذليين العيش فيها، لذا كانت " لغة قريش أفصح اللغات العربية، وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم " (1)، فكانت لغة هذيل من أفصح اللغات العربية، حتى أخذ اللغويون الكثير من مفرداتهم ومعانيهم منها (2).

عرفت قبيلة هذيل بسعة البيان، وروعة الأسلوب، وجمال الأداء، و" أشعار هذيل تعدُّ قمة في الفصاحة والبلاغة، وقد أجمع العلماء والنقاد في القديم والحديث على شاعريتهم الفذة، وعلى مكانتهم في دولة الشعر والأدب " (3)، فلهم نصيب وافر من الشعر، وشعراؤهم كثر، وأشعارهم غزيرة، حتى تصدرت المركز الأول بين القبائل، ويحق أن نقول ما قاله الزبيدي: " هذيل أعرفت في الشعر " (4).

ب. الشعر :

كان حظ الهذليين من الشعر والشعراء أكثر من حظ غيرهم من العرب، فلم يتح لقبيلة عربية ما أتيج لهم، حتى عدّهم حسّان بن ثابت أشعر العرب، عندما سئل "من أشعر الناس؟ فقال: رجلاً أم حياً؟ قيل له: بل حياً، قال: أشعر الناس حياً هذيل، قال ابن سلام الجُمحي: وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع" (5). وقال حسّان بن ثابت: " هذيل فيهم نيف وثلاثون شاعراً أو نحو ذلك، وبنو سنان مثلهم مرتين وليس فيهم شاعر واحد " (6). وعدّهم أبو عمرو بن العلاء: "أفصح الشعراء لساناً، وأعذبهم لساناً أهل السروات، وهن ثلاث وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن: فأولها هذيل... " (7)، وقال الأصمعي: " إذا فات الهذلي أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه " (8)، وقال يونس بن حبيب: " ليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو " (9)، ونبغ في هذيل من الشعراء ما لم ينبغ

(1) السيوطي، المزهـر، 211 / 1 .

(2) ينظر : ابن خلدون، المقدمة، 574 .

(3) إسماعيل الننتشة، أشعار هذيل، 404 / 1 .

(4) الزبيدي، تاج العروس، مادة: هذل؛ أعرفت : إجادت وأبدعت .

(5) ابن رشيق، العمدة، 77 / 1 .

(6) الهذليون، الديوان، 38 / 2 .

(7) ابن رشيق، م. س، 77 / 1 .

(8) الأصفهاني، الأغاني، 233 / 21 .

(9) الجاحظ، الحيوان، 211 / 1 .

مثله كثرة وجودة في أية قبيلة أخرى، والدارس لشعر هذيل يجد ما يمتاز به شعرها من الفصاحة، وسلامة الطبع، والفترة حتى كان الشعر ينسأل على ألسنتهم بسلاسة دون تكلف.

ونبع في هذيل الكثير من الشعراء البارعين، الذين سجلوا بشعرهم صفحات رائعة وناصعة برزت فيها البلاغة، وسلامة اللغة، فذلت بكل وضوح على شاعريتهم الفذة. ساعدهم في ذلك ما أحاط بهم من أسواق كانوا يتناشدون بما ينساب على ألسنتهم من أشعار، وما كان يأتيهم من القبائل الأخرى من شعراء يتبارون معهم في نظم الشعر وإلقائه، ومن أشهرها سوق ذي المجاز.

وقد شاع الغريب في شعرهم شيوعاً واسعاً، فظهرت البداوة، والألفاظ الغريبة، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه، يقول ساعدة بن جؤية⁽¹⁾:

أضرب به ضاحٍ فنبطاً أسالةً فمرّ فأعلى حوزها فخصورها
فرخباً فأعلام الفروط فكافر فنخلة تلى طلحها وسدورها

فصاح ونبط وأسالة ومرّ وحوز ورحب والفروط وكافر ونخلة كلها أسماء أماكن ومواضع. واعتمد النحاة على الشعر الهذلي في الاستشهاد على الأساليب الصحيحة والعبارات الفصيحة، وبقي كنزاً زاخراً لشواهد اللغة، ساعده بعد هذيل عن المؤثرات الخارجية، وعن الاختلاط بالأعاجم فاحتفظت بمقوماته وصحته، فسلمت اللغة من الدخيل.

كما احتل الشعر الهذلي مكانة مرموقة عند الخلفاء والعلماء والأدباء، لما امتاز به من جمال الحوك، وقوة الحبك، وجزالة السبك، وعمق التأثير، ودقة التعبير. وجاء الشعر الهذلي موضع عناية علماء اللغة واهتمامهم بجمع أشعار هذيل وشرحها وتنسيقها، فكان له مكانة رفيعة حين اتخذوه عوناً على ضبط اللغة وتدوين خصائصها، وعلى رأسهم الأصمعي وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني وأبو سعيد السكري.

واشتهر في هذيل الكثير من الشعراء، فورد في كتاب شرح أشعار الهذليين، وديوان الهذليين ما يزيد عن مائة شاعر، وأكثرهم من المشهورين من أصحاب المطولات أو المقطعات، برز بعضهم في العصر الجاهلي، واستمر بعضهم في صدر الإسلام، وبرز آخرون في العصرين الأموي والعباسي.

ثانياً : المعتقدات الدينية عند العرب في الجزيرة العربية :

انتشرت الوثنية في الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً قبل الإسلام، فكانت هُذَيْل أول من اتخذت سواعاً صنماً تعبد، وهي أول من أطلق على الأصنام أسماءً، "وكان أول من اتخذ تلك الأصنام - من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل - هُذَيْل بن مدركة اتخذوا سواعاً، فكان لهم برُهاط (1) من أرض ينبع، وينبع عرض من أعراض المدينة، وكان سدنته (بنو لحيان)، ولم أسمع لهُذَيْل في أشعارها له ذكراً، إلا شعر رجل من اليمن" (2)، "وأجابت عمرو بن لُحي مضر بن نزار، فدفع على رجل من هُذَيْل يُقال له: الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيْل بن مدركة بن إلياس بن مضر سواعاً؛ فكان بأرض يقال لها: رُهاط من بطن نخلة، يعبد من يليه من مُضر" (3).

وهُدم هذا الصنم بعد فتح مكة، إذ روى الطبري عن الواقدي: "أن سواعاً هُدم في السنة الثامنة للهجرة، وكان برُهاط لهُذَيْل، وكان حجراً، وكان الذي هُدمه عمرو بن العاص لما انتهى إلى الصنم، قال له السَّادن: ما تريد؟، قال: هُدم سواع، قال: لا تطيق هُدمه، قال عمرو بن العاص: أنت في الباطل بعد! فهُدمه عمرو، ولم يجد في خزانته شيئاً، ثم قال عمرو للسَّادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت والله" (4). وما جاءت شهرة هُذَيْل في عبادة سواع إلا لأنَّ سدانتها كانت لبني لحيان وبني صاهلة من هُذَيْل (5).

ولم تكن هُذَيْل ممن تؤمن بالحمس (6)، فتراهم لا يتشددون تشدد بعض القبائل العربية الجاهلية، فلا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات لأنهم من الحل، إنما يقفون بالمزدلفة، ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم. فكانت هُذَيْل من الحلة (7)، رغم أنَّهم ينكرون انتهاك حرمة الأشهر الحرم، وينصبون أنفسهم لنصرة المظلوم منعاً لسفك الدماء، وارتكاب المنكرات (8).

ولم تولِ هُذَيْل الأصنام اهتماماً كبيراً، بقدر ما كانت منشغلة بالنَّار، والكسب بالسَّلب والنَّهب، والإعداد للغزو، إذ "إنَّ انشغال هُذَيْل بالغزوات المتبادلة بينها وبين القبائل المحيطة بها، وبينها أنفسها، أي بين فروعها، كان من أهم ما يصرفها عن الاهتمام بهذه الأصنام" (9).

(1) رُهاط : اسم موضع في أرض ينبع .

(2) الكلبي ، الأصنام ، ص 9 - 10 .

(3) الكلبي ، م . ن ، ص 57 .

(4) الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، 3 / 66 .

(5) ينظر: إسماعيل النتنشة ، أشعار هُذَيْل ، 1 / 230 .

(6) الحمس: الأحس هو الورع من الرجال المتشدد في دينه. وهم سكان الحرم، والحمس من العرب: قريش لأنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون وقيل كانوا لا يستظلمون أيام منى ولا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون (ينظر : لسان العرب، مادة: حمس).

(7) ينظر : ابن حبيب ، المحبر ، ص 179 .

(8) ينظر : عيد الجواد الطيب ، هُذَيْل في جاهليتها وإسلامها ، ص 139 - 140 .

(9) أحمد الجدع ، تاريخ هُذَيْل وأنسابها ، ص 66 .

وكانت القبائل العربية في أديانها طرائق قِدَاداً ، فدانت بعض القبائل بأديان ومعتقدات تختلف عما يجاورها، بل كانت كل قبيلة تتخذ من صنم أو أكثر إلهاً تؤمن به، حتى قيل إنَّ عدد الأصنام في مكة بلغ 360 صنماً على عدد أيام السنة (1).

أ. الأصنام :

عرفت العرب في جاهليتها عشرات الأصنام، ونصبوها في الكعبة وفي أماكن ظعنهم، ومنها هُبَل، قدم به عمرو بن لحي من " هيت " (2) في العراق، وهو أعظم الأصنام التي نصبت على البئر البئر في جوف الكعبة، وأمر الناس بعبادته. فعده بعض الباحثين " إله مكة والكعبة " (3).

أما اللات فتعني الآلهة، وقيل إنها اسم الشمس، استقدمت من العرب النبطيين، وبقيت صخرة "اللات" حتى فجر الإسلام، عندما ابتعث الرسول ﷺ المغيرة بن شعبة لهدمها في الطائف (4).

وَنُعَدُّ الْعَزَى مِنْ أَكْثَرِ الْأَصْنَامِ لَدَى الْعَرَبِ تَزُورُهَا وَتَقْرُبُ إِلَيْهَا، وَكَانَتْ قَرِيشُ أَكْثَرَ الْقَبَائِلِ تَعْبُدُ لِلْعَزَى، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۚ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۚ ﴾ (5).

في حين كانت مناة أقدم أصنام العرب التي عبدتها، وأول ما عبد من الحجارة، وهي صخرة لهذيل وخزاعة، يستمطرون عندها الأنواء (6) تبركاً بها، وشاعت عبادتها بين قبائل هذيل المجاورة إلى أن أرسل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فهدمها وأخذ ما عليها من سيوف (7).

وسمّت العرب بعض أصنامها، فهذيل وهمدان اتخذت سواعاً بأرض ينبع، وجاء على صورة امرأة، وكان لهذيل بن مدركة، وكان سدنته من بني صاهلة من هذيل (8)، إذ قال رجل من العرب :

تَرَاهُمْ حَوْلَ قِبَلَتِهِمْ عُكُوفًا كَمَا عَكَفَتْ هُذَيْلٌ عَلَى سُوَاعٍ

[الوافر]

(1) ينظر : محمود الحوت ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ص 40 .
(2) هيت : بلدة على ضفة نهر الفرات، سميت باسم بانيها وهو هيت بن السبدي ويقال البَلْدُ بن مالك بن دُعر بن بويب بن عفا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وهي من نواحي بغداد فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة (ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، 4 / 331) .

(3) ينظر : محمود الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ص 77 .
(4) ينظر : ابن الكلبي، الأصنام ، ص 17 ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ص 315 .
(5) سورة النجم ، 19 / 53 - 22 .

(6) الأنواء : ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها من الصيف والشتاء والربيع والخريف يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمى، وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح فيُسببون كل غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم فيقولون: مُطَرْنَا بِنُوءِ الثَّرِيَّا وَالدَّبْرَانِ وَالسَّمَاءِ، وَالْأَنْوَاءُ وَاحِدُهَا نُوءٌ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ نُوءًا، لِأَنَّهُ إِذَا سَقَطَ السَّاقِطُ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ، نَاءَ الطَّالِعِ بِالشَّرْقِ؛ أَيْ نَهَضَ وَطَلَعَ وَذَلِكَ الْفُهُوضُ هُوَ النَّوُوءُ فَسُمِّيَ النَجْمُ بِهِ (ينظر: لسان العرب ، مادة : نوا) .

(7) ينظر : ابن الكلبي ، الأصنام ، ص 15 .
(8) ينظر : ابن الكلبي ، م . ن ، ص 57 ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، 2 / 492 .

واتخذت كلب وداً بدومة الجندل⁽¹⁾، أما أهل مذحج فقد اتخذوا يغوثاً⁽²⁾، الذي كان على صورة أسد⁽³⁾. في حين اتخذت همدان ومراد يعوقاً⁽⁴⁾، وهو على صورة فرس واتخذت حمير نسرًا، وكان على صورة نسر⁽⁵⁾، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾⁽⁶⁾.

ب. عبادة النار:

ومن أهم مظاهر تقديس النار وعبادتها؛ أن العرب استمطرت بالنار والبقر، فإذا اشتد القحط وانقطع الغيث جمعت ما لديها من البقر، ثم عقدت بأذنانها وعلى أرجلها الخلفية، وأشعلت فيها النار المقدسة، وتصعد بها الجبل الوعر في جهة الغرب كي تأتي بالمطر، فتطفأ النيران وتحيا الأبقار ويذهب القحط والمحل، وإن لم تأت بالمطر فهي تستحق الحرق بالنار⁽⁷⁾، يقول أمية بن أبي الصلت⁽⁸⁾ :

[الخفيف]

عَاقِدِينَ النَّيِّرَانَ فِي شُكْرِ الْأَذْنَابِ مِنْهَا لِكِي تَهِيَجَ الْبُحُورَا

وذهب أحمد الحوفي مذهباً آخر، إذ يرى أن العرب: "كانوا يتفاعلون بالنار طلباً للبرق، أو أنهم كانوا يحاكون عبادة قديمة تقرب الأبقار قرباناً للآلهة"⁽⁹⁾.

ت. عبادة القمر والنجوم :

عرفت العرب عبادة القمر، وكانت تعظمه، واكتسب مكانة دينية عالية بينهم، تجلّى ذلك في ورود اسمه كثيراً في الشعر الجاهلي، والإشادة بصفاته المتعددة، كما اتخذوا له العديد من الأصنام التي تعبّدوا لها⁽¹⁰⁾.

كما عرفت العرب كثيراً من النجوم والكواكب وعبدتها، ومن أساطيرهم التي تعكس صلة "الربة" بغيرها من الكواكب، أن القمر أراد أن يزوج الدبران من الثريا، فأبت وولت عنه، فجمع الدبران قلاصه،

(1) ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص 316.

(2) ينظر: ابن حبيب، م. ن، ص 317.

(3) ينظر: طاهر بادنجكي، قاموس الخرافات والأساطير، ص 237.

(4) ينظر: ابن حبيب، م. س، ص 317.

(5) ينظر: ابن حبيب، م. س، ص 317؛ ابن حزم، م. س، 2 / 491 - 494.

(6) سورة نوح، 23 / 71.

(7) ينظر: أنور أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، ص 136.

(8) أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص 74.

(9) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 426.

(10) ينظر: إبراهيم عبد الرحمن، التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، ص 129.

وتبعها حيث توجهت، يسوق مهرها أمامه، غير أن العيوق⁽¹⁾ أعاق اللقاء بين الدبران والثريا، وفي ذلك يشيد طفيل الغنوي بوفاء الدبران بقلاصه، فيقول⁽²⁾ :

[البسيط]

أَمَا ابْنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النَّجْمِ حَادِيَهَا

وعرف الهذليون النجوم وضمّنها شعرهم، وربطوا بينها وبين حيواناتهم، يقول أبو ذؤيب الهذلي، واصفاً الحمار الوحشي وأنته وقد وردن الماء⁽³⁾ :

[الكامل]

فَوَرَدَنَ وَالْعَيُوقُ مَقْعَدَ رَابِي الضُّ رَبَاءٍ فَوْقَ النَّظْمِ لَا يَتَتَلَعُ
ويقول أيضاً⁽⁴⁾ :

[الوافر]

بِأَطْيَبِ مَنْ مَقْبَلِهَا إِذَا مَا دَنَا الْعَيُوقُ وَانْخَسَمَ النَّبُوحُ

أما الشعري⁽⁵⁾، فذكرها القرآن ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى ﴾⁽⁶⁾، وقد عبدته بنو قيس عيلان وخزاعة، ورمزت العرب إلى الكواكب والنجوم بالحيوانات، يقول أبو ذؤيب⁽⁷⁾ :

[المتقارب]

بِأَطْيَبِ مِنْهَا إِذَا مَا النُّجُومُ مَ أَعْنَقْنَ مِثْلَ تَوَالِي الْبَقَرِ

فشخصت العرب الأجرام السماوية، وأنزلتها منزلة البشر، حتى عبدتها وقدّستها، وقد أسمت العرب كواكب السماء بحيوانات الأرض؛ فسهيل كوكب ذكر نكاح، أطلق عليه " الفحل " تشبيهاً له بفحل الإبل، فهو يعتزل النجوم كما يعتزل فحل الإبل النوق إذا قرعها⁽⁸⁾.

ث. تقديس الحيوان :

من أهم ما ابتدعه "عمرو بن لحي" أنه وجه أنظار العرب إلى تقديس الحيوان، فهو من بحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيعة، وحمى الحام⁽⁹⁾، يقول الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ حَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾⁽¹⁰⁾.

(1) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه وأصله فيقول فلما التقى اليباء والواو والأولى ساكنة صارتا ياءً مشددة (ينظر : لسان العرب ، مادة : عوق) .

(2) طفيل الغنوي ، الديوان ، ص 141 .

(3) الهذليون ، الديوان ، 6 / 1 ؛ العيوق : كوكب ، الرابي : المراقب والملاحظ ، لا يتتلع : لا يتقدم .

(4) الهذليون ، م . ن ، 70 / 1 .

(5) الشعري : كوكب نيز يقال له المِرْزَمُ يُطْلَعُ بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر (ينظر : لسان العرب ، مادة : شعر) .

(6) سورة النجم ، 49 / 53 .

(7) الهذليون ، الديوان ، 149 / 1 ؛ أعنقن : تصوين ، فترى مآخيرهن في الغور كما ترى مآخير البقر إذا أعنقت ، والتوالي : الأواخر .

(8) ينظر : أنور أبو سليمان ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 101 ؛ القراع : الضراب ، وقرع الفحل الناقة أي ضاربها ، وناقة قريعة : يُكْثَرُ الفحل ضرابها ويُبْطِئُ لِقَاحُهَا ، واستقرعت الناقة إذا اشتبهت (ينظر : لسان العرب ، مادة : قرع) .

(9) ينظر : الأزرق ، أخبار مكة ، 87 / 1 .

(10) سورة المائدة ، 103 / 5 .

فالبحية: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكراً، بحروا أذننها وشقوها، وامتنعوا من ذكاتها وما منعوها من ماء أو مرعى، وكان لبنها للرجال دون النساء⁽¹⁾، والسائبة: الناقة إذا أنجبت ثنتي عشرة إنثى ليس فيها ذكر سيبت، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فإذا أنتجت أنثى شقت أذننها وأخلي سبيلها، وهي " البحية " مع أمها في الإبل، فلم تركب، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف⁽²⁾، والوصيلة: الشاة إذا أنتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيها ذكر⁽³⁾. أما الحمام فالذكر من الإبل كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن أبطن قالوا: " حمى ظهره "، فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى، ويخلي في الإبل يضرب فيها ولا ينتفع به غير ذلك⁽⁴⁾.

ج. عبادة الجن وتقديسها :

عبدت قلة من العرب الجن، يقول الله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾⁽⁵⁾. والاعتقاد بالجن قديم جداً، فلطالما خشي الإنسان من الطبيعة وما تحجبه، يقول المتنخل الهذلي⁽⁶⁾ :

وخرق تعزف الجنان فيه بعيد الجوف أغبر ذي انخراط

أما أصناف الجن، فهم " أجناس، فأما الصميم الخالص من الجن، فإنهم ریح لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون في الدنيا، ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون وهم السعالي والغيلان والقطارب⁽⁷⁾ وأشباه ذلك⁽⁸⁾.

والغول أشهر الشياطين، فهو "حيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة، وإنه لما خرج مفرداً لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والبهيمة، وأنه يتراءى لمن يسافر وحده في الليالي وأوقات الفلوات، فيتوهم أنه إنسان فيصد المسافر عن الطريق"⁽⁹⁾. ويرى الحوفي أن شكل الغول كالإنسان،

(1) ينظر : الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، 2 / 77 ؛ ابن حبيب، المحبر، ص 330.

(2) ينظر : ابن حبيب، م. ن، ص 330؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة: سيب.

(3) ينظر : ابن حبيب، م. س، ص 331؛ ابن منظور، م. س، مادة: وصل.

(4) ينظر : الأبيشي، م. س، 2 / 77 ؛ ابن حبيب، م. س، ص 331 ؛ الألوسي، بلوغ الأرب، 3 / 34 - 39 .

(5) سورة سبأ، 34 / 41 .

(6) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 120 ؛ العزيف : صوت الجن، الجوف : ما انخفض من الأرض، الانخراط : البعد.

(7) القطارب : جمع فطرب وهي طائر أو دويبة كانت في الجاهلية، قيل : إن ليس لها قرار البتة، فلا تستريح نهاراً سعيّاً (ينظر: لسان العرب، مادة: قطرب) .

(8) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 301/1 .

(9) ينظر : القزويني، عجائب المخلوقات، ص 274؛ الأبيشي، م. س، 2 / 79 ؛ المسعودي، مروج الذهب، 2 / 169.

ولكن رجلها رجلا حمار⁽¹⁾، وقد وصف تأبط شراً غولاً اعترضته فأثخنها بالجراح بعد عراك طويل، فقال⁽²⁾ :

[الوافر]

إذا عينان في رأسٍ قبيحٍ كَرَأْسِ الْهَرِّ مَشْفُوقِ اللِّسَانِ
وساقاً مُخْدَجٍ، وشَوَاةً كَلْبٍ وَثُوبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شِنْشَانِ

أما السَّعْلَة، وهي واحدة من نساء الجن فتبرز في النهار، " وإذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما تلعب الهرة بالفارة ... ويذكر أن الذئب يفترسها فتستغيث، إلا أن القوم يعلمون أنها السَّعْلَة، فلا يغيثها أحد فيأكلها الذئب" ⁽³⁾.

ج. معتقدات أخرى :

امتلكت العرب نزعة تتيج للخرافة والأوهام أن تنتشر انتشار النار في الهشيم، حتى تذيب الخرافة وتصدق، ومن أهم المعتقدات الأسطورية التي آمنت بها العرب:

1. الهامة والصدى:

يقول المسعودي: " وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهي أبداً تتوحش وتصدح، وتوجد أبداً في الديار المعطلة والنواويس، وحيث مصارع القتلى وأحداث الموتى، ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محله بفنائهم، لتعلم ما يكون بعده، فتخبره به" ⁽⁴⁾. وهذا ما أيده إحسان الديك عندما عدّ الأرواح طيوراً " تكون في أجساد أصحابها، وإذا ما تركت هذه الأجساد، وسبحت في الفضاء ورفرفت في الأعالي، فإن أجساد أصحابها تموت وتبلى، وبهذا الرأي أخذ الجاهليون" ⁽⁵⁾، يقول مالك الهدلي ⁽⁶⁾:

[الطويل]

أتى مالكٌ يَمْشِي إليه كَمَنْ مَشَى إلى خيسه سيدٍ بخفان قاطبٍ
فزال بذِي دَورانٍ مِنْكُمْ جَماجِمٌ وهامٌ إذا ما جَنَّهُ اللَّيْلُ صاخِبٌ

(1) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 460.
(2) تأبط شراً، الديوان، ص 107؛ المخدج: الذي يلد قبل تمام أيامه وهو ناقص النمو ضعيف، شواة الكلب: قحف رأس الكلب والعظم فوق الدماغ، العباء: يقصد أن جسمها يغطيها صوف كالعباءة، الشنان: جمع الشن وهو القرية الصغيرة البالية.
(3) القزويني، م. س، ص 274.
(4) المسعودي، مروج الذهب، 2/ 166.
(5) إحسان الديك، الهامة والصدى، صدى الروح في الشعر الجاهلي، ص 638.
(6) السكري، شرح اشعار الهدليين، 1/ 469؛ السيد: الأسد بلغة هذيل، قاطب: زاو ما بين عينيه، ذو دوران: يوم من أيام العرب، الهام: جمع هامة، صاخب: صائح

وزعمت العرب : أَنَّ الهامة طير يخرج من رأس القتيل على شكل طائر هائم، يصرخ ويندب قائلاً: " اسقوني ... اسقوني " (1) ، فشاعت أسطورة الهامة بشكل منسجم مع عقيدة العرب في الأخذ بالتأثر والاقتصاص للقتيل من القاتل، يقول أبو ذؤيب (2) :

أُحَاذِرُ يَوْمًا أَنْ تَبِينَ قَرِينَتِي وَيُسَلِّمُهَا جِيرَانُهَا وَنَصِيرُهَا
وَمَا أَنْفُسُ الْفَتَيَانِ إِلَّا قَرَائِنُ تَبِينُ وَيَبْقَى هَامُهَا وَقُبُورُهَا

وبما أَنَّ الهامة طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلي (3) ، فَإِنَّ الصَّدى طائر يخرج من قبر الميت، لذا فالهامة والصَّدى واحد ، فتأتي الهامة بمعنى الصَّدى، ويأتي الصَّدى بمعنى الهامة، " بَيِّدَ أَنَّ الهامة أنثى والصَّدى ذكرها " (4) ، يقول أبو ذؤيب (5) :

فَإِنْ تُمْسِ فِي رَمْسٍ بِرَهْوَةٍ ثَاوِيًا أَنْيْسُكَ أَصْدَاءُ الْقُبُورِ تَصِيحُ

2. الزَّجَرُ وَالتَّطِيرُ :

من المعتقدات الجاهلية التي شاعت بين العرب الزَّجَرُ (6) والعيافة (7) ، ولهذا المعتقد دور بارز بارز في حياة العربي اليومية ونشاطه وسلوكه مع الآخرين. فقد شاع زجر الطير والوحش، فما جاء من جهة اليمين سموه سانحاً، وما جاء من جهة اليسار سموه بارحاً، وما يأتيهم مستقبلاً فهو الناطح، أما ما جاء من الخلف فهو القعيد، قال عمرو بن العلاء: سأل يونس رؤية عن السَّانِحِ والبارح، فقال: السَّانِحُ ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك مياسره (8) ، بينما يروي أبو عبيدة عن رؤية أن البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره، والسَّانِحُ ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه (9) ، يقول أبو ذؤيب (10) :

[الوافر]

فَبَيْنَا يَمْشِيَانِ جَرَتْ عُقَابٌ مِنْ الْعِقْبَانِ خَائِتَةٌ دَفُوفٌ

- (1) ينظر : الأبيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ص 491 .
- (2) الهذليون ، الديوان ، 155 / 1 - 156 ؛ القرينة: الروح أو النفس، أي أخاف أن أموت ويبقي علي الائم والعار ، يقول أكره أن أبقي على نفسي ، وإنما هي نفس تذهب كما تذهب الأنفس والأرواح حين الموت، ويبقى هامها وقبورها.
- (3) ينظر : إحسان الديك ، الهامة والصَّدى ، صدى الروح في الشعر الجاهلي ، ص 643 .
- (4) إحسان الديك ، م . ن ، ص 644 .
- (5) الهذليون ، م . س ، 1 / 116 ، الرمس: القبر، الأصداء جمع صدى وهو الهام ، رهوة : اسم مكان معروف، ثاوياً : مقيماً، المثوى: المقام ، يقول : ليس لك إنيس إلا الهام التي في القبور.
- (6) الزَّجَرُ : هو التَّيْمُنُ للطير والتَّشَاوُمُ بها والنَّقُولُ بطيرانها كالسَّانِحِ والبارح ، والزَّجَرُ : العيافة ، وأصله أَنْ يَرْمِيَ الطَّيْرَ بِحَصَاةٍ وَيَصِيحُ فَإِنْ طَئِرَ أَنَّهُ مَيَامِنُهُ تَفَاعَلَ بِهِ أَوْ مَيَاسِرُهُ تَطِيرَ . وهو ضَرْبٌ مِنَ التَّكْهِنِ (ينظر: لسان العرب ، مادة : زجر) .
- (7) العيافة : زجر الطير والتفاول بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب (لسان العرب ، مادة : عيف) .
- (8) ابن رشيق ، العمدة ، 2 / 227 .
- (9) ينظر: الأصفهاني، الأغاني ، 9 / 157 .
- (10) السَّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 185 ، خاتمت العقاب : إذا سمعت طيرانها وانقضاضها، دفوف: تدف فويق الأرض، أي تمر تسرع فوق الأرض في طيرانها، أي : ما تزجر أوحث عليه : كلمته، يقصد العقاب ، تعيف : تزجر .

فَقَالَ لَهُ وَقَدْ أَوْحَتْ إِلَيْهِ أَلَا اللَّهُ أُمُّكَ مَا تَعِيفُ

وكانت هذيل تتشام بالسنيح، وغيرها يتشام بالبارح، يقول أبو ذؤيب الهذلي (1): [الطويل]

زَجَرْتُ لَهَا طَيْرَ الشَّمَالِ فَإِنْ تَكُنْ هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى يُصِيبُكَ اجْتِنَابُهَا

واختلفت العرب في تعريف الزجر: فقَدَّم أهل الحجاز رأياً، وقَدَّم أهل اليمن رأياً آخر، والصواب: أن الزجر وهم وخرافة يعتمد المصادفة، فمن زجر طيراً وقضى لبانته تفاعل باتجاهها، ومن لم يقض حاجته تشام بهذا الاتجاه نفسه. يقول أبو ذؤيب الهذلي (2): [المتقارب]

أَرَبْتُ لِأَرَبَتِهِ فَاِنْطَلَقْتُ أَزْجِي لِحُبِّ اللَّقَاءِ السَّنِيحَا

ونشأ التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً أو سانحاً، ثم تطور إلى النَّاس والبهائم فإذا رأت العرب الأعور من النَّاس أو البهائم أو الطيور زجروا وتطيروا، يقول أبو ذؤيب (3): [الوافر]

وَقَالَ لَقَدْ خَشِيتُ وَأَنْبَأْتُنِي بِهِ الْعِقْبَانُ لَوْ أَنِّي أَعِيفُ

وتطيَّرت العرب بالبازي والغراب والرَّخم والبوم، والثور الأعضب (4)، والأبتر (5)، والقعيدة (6) والنطيح (7).

3. مطايا الجن :

آمنت العرب أنَّ الجنَّ اتخذ من الحيوانات مطايا تُركب، مثل: اليربوع (8) والقنفذ (9) والورل (10) والنَّعام والظبية والثور، فلم تتعرض العرب لهذه الحيوانات، ولم تصدها ليلاً. يقول الجاحظ: " والأعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قنفذاً ولا ورلاً من أول الليل، وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجنِّ كالنَّعام والظباء " (11)، واستثنت العرب بعض الحيوانات من مطايا الجنِّ، يقول الجاحظ: " ولا تكون الأرانب والضبع من مراكب الجنِّ، لأنَّ الأرانب تحيض ولا تغتسل من الحيض، والضباع تركب

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين، 42/1؛ طير الشمال: السانح وهو يريد طير الشؤم.

(2) السكري، م. ن، 203/1؛ أربت لأربته: كانت لي حاجة مع حاجته، وكانت لي في صحبته حاجة؛ السنيح: ما يسبح له فيتشام به؛ والإربة: الحاجة.

(3) السكري، م. ن، 188/1؛ أعيف: أي أزجر الطير.

(4) الثور الأعضب: الثور المكسور القرن (ينظر: لسان العرب، مادة: عضب).

(5) الأبتر: مقطوع الذنب والعقب (ينظر: لسان العرب، مادة: بتر).

(6) القعيد: ما أتى من وراء من وحش أو ظبي أو طائر يُتَطِيرُ منه (ينظر: لسان العرب، مادة: قعد).

(7) النطيح: ما مرَّ من الطير والظباء والوحش من الأمام وهو الجابيه (ينظر: لسان العرب، مادة: نطح، وشج).

(8) اليربوع: حيوان طويل الرجلين قصير اليدين جداً، وله ذنب كذنب الجرذ يرفعه صعوداً في طرفه شبه النوارة، لونه كلون الغزال (ينظر: الهميري، حياة الحيوان الكبرى، 558/2).

(9) القنفذ: دويبة بقدر الجرذ، أعلاها شوك حاد، يعادي الحية يقتلها بشوكه، يستأنس في البيوت (ينظر: القزويني، عجائب المخلوقات، ص 358؛ الهميري، م. س، 337/1؛ شاعر شكر، الحيوان في الأدب العربي، 149/3).

(10) الورل: دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه، وهو سريع السير خفيف الحركة، عدو للضب والحية، لا يحتقر لنفسه بيتاً بل يغتصب من كل حيوان بيته (ينظر: القزويني، م. س، ص 362؛ الهميري، م. س، 541/2؛ شاعر شكر، م. س، 229/2).

(11) الجاحظ، الحيوان، 1159/6 - 1160.

أيور القتلى والموتى إذا جيفت أبدانهم وانتفخوا وأنعظوا، ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة، ولا جنابة إلا ما كان للإنسان فيه شرك، ولا تمتطي القروء لأنَّ القرد زانٍ ولا يغتسل من جنابة " (1).
وتعتقد العرب أنَّ الظِّلِّيم والنَّعامة والجمال والنَّور من مطايا الجنِّ، فضربت النَّور إذا امتنعت البقر عن الشَّرب، زاعمة: " أنَّ الجنَّ يركب النَّيران فيصد البقر عن الشَّرب " (2).

ثالثاً : العلاقة بين الأساطير والمعتقدات عند العرب.

يجد دارس الشعر الجاهلي علاقة واضحة بين الأساطير والمعتقدات التي حفل بها العصر الجاهلي، إذ نظمت علاقته بالكون، وجعلت علاقته بالإنسان والحيوان تسير في منظومة من القيم التي أصبحت فيما بعد جزءاً من معتقداته:

1. دور الأسطورة في تشكيل المعتقدات عند العرب :

يسود الأسطورة (3) الخيال، وتبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حية ذات شخصية ممتازة، وينبني عليها الأدب الشعبي (4)، ويرى نصرت عبد الرحمن أنَّ: " الأسطورة خيال صنعه الإنسان فصدَّقه واعتقد به " (5).

فالأسطورة تعتمد الخيال بالدرجة الأولى، مستندة في ذلك إلى جوانب مقدسة في حياة البشر، نظراً لارتباطها بمفاهيم وقيم وحضارات وأذواق وآداب وعادات وثقافات متعددة.

والخرافة: محض خيال وباطل، فالجاهليون كانوا يمتلكون القدرة على توليد الأسطورة والخرافة بشكل تصوري، إذ تصوروا الأشياء التي تحيط بهم، واسترجعوا تجاربهم، ومزجوا بينها ليركَّبوا منها صورههم الشعريَّة الماديَّة المحسوسة، ويرى أحمد كمال زكي أنَّ الأسطورة : عندما ينتهي دورها في تفسير علاقة الآلهة بالموجودات، وفي كشف الغموض عن أسرار الكون والحياة، تتفتت في حكايات خرافيَّة، ممزوجة بالخيال كما في الملاحم الشعبيَّة القديمة (6)، فجاءت الرُّوح على شكل الهامة، والشَّجاعة على شكل أسد، والأمانة على شكل كلب، والعمر المديد على شكل نسر، والصَّبْر على شكل حمار.

والباحث في تراث الإنسان العربي الجاهلي يجد أنَّه أحد إفرازات تكوينه الاجتماعي، فامتلاً ضميره بالجانب الفكري الذي بدأ يتشكل قومياً نتيجة أيام العرب وغزواتهم ومعاركهم، فجاءت أشعار أيام

(1) الجاحظ، م. ن. ، 6 / 1160 .

(2) ينظر : الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف ، ص 491 .

(3) الأسطورة: مفرد الأساطير، وهي الأباطيل، والأساطير أحاديث لا نظام لها، واحتتها إسطار، وإسطارة وأسطورة بالضم، وقال قوم : أساطير جمع أسطار، وأسطار جمع سطر، وسترَّها ألفها، وسترَّ: أتانا بالأساطير، ويقال سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، يقال هو يسطر ما لا أصل له أي يولف (ينظر: لسان العرب ، مادة سطر) .

(4) ينظر : طاهر بادنجكي، قاموس الخرافات والأساطير، ص 6 .

(5) نصرت عبد الرحمن، الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، ص 10 .

(6) ينظر : أحمد كمال زكي، التفسير الأسطوري للشعر القديم ، ص 117 .

العرب ممزوجة بالأساطير والقصص الخرافي، وزاخرة بإشارات ورموز الأبطال الأسطوريين والبلدان الطامسة، فجاءت أغلب أشعار أيامهم مليئة بالرموز والأشخاص الأسطوريين من ملوك وقادة وكهّان، وأصنام وأوثان وكواكب وحيوانات طوطمية⁽¹⁾.

2. موقع الحيوان في الأساطير والمعتقدات عند العرب.

وجد العربي في طبيعة الحيوانات غرابة تكتنفها، وغموضاً يعتريها، فنسج خياله الواسع أفكاراً ومعتقدات عن هذه الحيوانات، لتتطور يوماً بعد يوم، وسنة وراء سنة، حتى تشكلت في ذهنه معتقدات وأفكار تجاوزت الواقع والملموس لتصل إلى درجة الأسطورة، التي قبلها عقله واستأنسها. فالعقل العربي وما امتلكه من قدرة على الخيال؛ الذي تمثل في أشعار: الفخر، والحماسة، والوصف، والغزل، وبكاء الديار والأيام، وما قدمه من وصف رائع لمشاعره وعواطفه الجياشة، وما بثه من معاني الشوق والالتياح والهيام، لا يمكن أن يصدر عن عواطف متجمدة باردة، أو روح ساكنة بليدة. ولكنه يصدر عن خيال متوقد متجدد يمتلك القدرة على بث الأسطورة، فالخيال مفتاح الخرافة، وأساس توليد الأساطير⁽²⁾.

ولعل ما يميز العرب أنها أمة تمتاز بخيال يعتمد على تصور الأشياء واسترجاع التجارب، عبر المزج بين المراثيات والمحسوسات؛ لتنشأ صورة تمتاز فيها التشبيهات وتختلط، ثم تتضح لدى كل ذي عينين أنها واقعية ومقبولة، وأنها تتسجم مع الصورة الواقعية، بل تفسرها أحياناً كثيرة⁽³⁾. تجلى ذلك عند الشعراء عندما شبهوا الحيوان بالحيوان⁽⁴⁾، فشبهوا الناقة والفرس - على سبيل المثال لا الحصر - بحيوان آخر، فامرؤ القيس يقول⁽⁵⁾:

[الطويل]

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَارْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقَرِيبُ تَنْفُلٍ

ونفى أحمد زكي ما ذهب إليه بعض الدارسين بأن العرب لم تعرف الأساطير، معتقدين أنها لم تكن من أصحاب الملكات الخلاقة التي تعتمد الخيال الواسع، عندما أكد: "أن العرب لم تكن ينقصها شيء مما حفلت به أساطير الإغريق، فقرن حيوان "المينطور" وهو حيوان خرافي نصفه الأعلى نصف الرجل الأعلى، ونصف الحيوان الأسفل هو نصف عجل وله أنياب أسد، أشبه بحيوان "الغول" التي لطالما عرضت في أشعار العرب وهم يقطعون الصحراء"⁽⁶⁾.

(1) ينظر: أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، ص 157.

(2) ينظر: محمد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 30.

(3) ينظر: علي بن ظافر الأزدي، غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات، ص 18.

(4) ينظر: الهذليون، الديوان، 1 / 205 - 206.

(5) امرؤ القيس، الديوان، ص 58؛ الأيطل: الخاصرة، الإرخاء: نوع من جري الذئب، التقريب: وضع الرجلين مكان اليدين في العدو، التنفل: صغير الثعلب. والمعنى: شبه خاصرتي الفرس بخاصرتي الظبي في الضمور، و ساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول، وعدوه بإرخاء الذئب، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب.

(6) أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، ص 78.

وللعلاقة بين الإنسان والحيوان من جهة، وبين الإنسان والنبات من جهة أخرى؛ أثر في تشكيل الأفكار الأسطورية حولها، فهما يمدانه بطعامه، كما أن بعض الحيوانات تبدو أقوى منه، إذ تفعل ما يعجز عنه وهو التخليق في السماء، والغوص في أعماق البحار والمحيطات (1).

من هنا فقد ذهب محمد خان إلى أن الأسطورة: تفسير لعلاقة الإنسان بالكائنات، وهذا التفسير ناتج عما يشاهده الإنسان حوله في حالة البداوة، فالأسطورة مصدر أفكار الأولين، ومهمة الشعر والأدب عند الجاهليين (2)، حتى شاع أن الشعر الجاهلي يكاد يكون وفقاً على الأساطير، فالغزل مقرون بالآلهة، وقصص الحيوان الوحشي فيه حديث عن هذه الآلهة، ومتصل اتصالاً وثيقاً بالتعاويذ والرقي السحرية والأساطير (3).

3. الحيوان المقدس " الطوطم" (4) :

تجلت مظاهر الطوطمية عند العرب في الجاهلية في الجانب الديني عبر: تسمي بعض القبائل باسم الحيوان، واتخاذها أباً لها، معتقدة أنها جزء من سلالته، فكانوا لا يؤذون طوطمهم، ولا يأكلونه إلا إذا عضهم الجوع، ويقيمون احتفالات الدفن لأي حيوان يموت من نوع طوطمهم، ويستعينون به في غزواتهم؛ فيجلبونه معهم إلى ساحة القتال ليحفزهم وينشطهم في طلب أعدائهم، وينذرهم فيما لو اقترب الخطر منهم، فقدسوا بعض الحيوانات وعبدوها (5). ولم تكن العرب تتلفظ باسم الحيوان الطوطم، أدباً وتقديساً؛ فكانت تسمي النعامة بالطلع (6) والمجمل (7)، ويلقبون الأسد بأبي الحارث، والثعلب بابن آوى، والضبع بأم عامر، وسموا الغراب بحاتم (8).

قدّست العرب بعض الحيوانات، فأطلقت أسماء طوطمية تتعلق بالسباع (9)، مثل: عنبس وحيدرة وهرثمة والضيغم (وهو الأسد)، وأوس ونهشل (وهو الذئب)، وثعلبة وكلثوم (وهو الفيل)، وثور وكلب وكليب ونمر ونمير وبكر وضب. وأخرى متعلقة بالطير، مثل: اليعقوب (وهو ذكر الحجل)، والهيثم (وهو فرخ العقاب)، وعكرمة (وهو الحمامة). وأطلقتها أيضاً على دارات مثل:

(1) ينظر: شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، ص 11.

(2) ينظر: محمد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 19.

(3) ينظر: وهب رومية، توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي، ص 56.

(4) الطوطم: كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب تربطه بواحد منها يسميه طوطمه، وقد يكون حيواناً أو نباتاً، وهو يحمي من يحترمه ويفدّسه (ينظر: محمد خان، م. س، ص 55).

(5) ينظر: محمد خان، م. س، ص 80.

(6) الطلع: أول ما يرى من عذق النخلة، وأول من يبعث لمطالعة خبر العدو، والجامع فيهما المتقدم (ينظر: لسان العرب، مادة طلع).

(7) المجمل: طويل الأرجل، لا شعر على قوائمه (ينظر: تاج العروس، مادة جمل).

(8) ينظر: الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، 2 / 78؛ محمد خان، م. س، ص 92.

(9) ينظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص 58 - 63.

دائرة الذئب، ودائرة الغزال، ودائرة الجدي. بل إن من العرب من اتخذ آلهة لها أسماء الحيوانات وأشكالها، مثل: "نسر" و"يغوث" وهو الأسد، و"يعسوب" وهو الفرس⁽¹⁾.

وإيماناً من بعض القبائل العربية أن الحيوان الطوطمي يدافع عن القبيلة ويحميها من الشرور، فقد جلبت قبيلة "تميم" (يوم الزورين) بعيرين مجلّين مقرونين مقيدين، وتركوهما بين الصقّين معقولين وسموهما زورين، وقالوا: لا نُؤلّي حتى يولي هذان البعيران، فأخبرت "بكر" عمرو ابن قيس بقولهم، فقال: وأنا زورك وبرك بين الصقّين، وقال: قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر، والتقى الجمعان، واقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت تميم، وأخذت بكر الزورين، فنحروا أحدهما وأكلوه، وافتحلوا الآخر، وكان نجيباً⁽²⁾، وفي ذلك قال الأعشى⁽³⁾:

[الخفيف]

نَحْنُ الَّذِينَ هَزَمْنَا يَوْمَ صَبَحْنَا جَيْشَ الزُّورَيْنِ فِي جَمْعِ الْأَحَالِفِ

4. الأسطورة والموروث الجاهلي :

يمتثل الموروث الجاهلي بإشارات واضحة، وحكايات تؤكد أن الحيوان الطوطمي لعب دوراً بارزاً في حياة الإنسان، وتدلل على شدة الارتباط بين حياة هذا الإنسان، وتلك الحيوانات.

أ. الناقة :

أظهرت العرب للإبل حباً وشغفاً كبيرين، ومن أبرز المعتقدات التي كانت تؤمن بها؛ الامتناع عن ركوب الإبل أو نحرها، وإباحة الماء والمرعى لها، وأنها كانت تعقر رواحها على قبور أبطالها وساداتها⁽⁴⁾، وتتباهى بكثرة البلايا التي تتركها على قبور الأحباب، كي يحشر المتوفى راكباً، فإذا مات الرجل شدت ناقته إلى قبره، وجعلت رأسها إلى مؤخرها، أو تركتها في حفرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت أو تنفك، فإذا انفكت لم تردّها عن ماء ولا مرعى. لأنها إذا فعلت ذلك حشرت مع الميت فيركبها في الميعاد⁽⁵⁾. تطورت نظرة العربي إلى الناقة باعتبارها جزءاً من حياته الآخرة وبعثه ونشوره؛ إذ أنها وسيلة نقله وترحاله هناك⁽⁶⁾.

وتاريخ الناقة عند العرب قديم، بدأ مع ناقة صالح عليه السلام، التي خرجت من بطن الصخرة، وعدت الناقة عنصراً مقدساً فحلف بها الشعراء⁽⁷⁾، كما اعتقدت العرب أن الإبل تولع بأكل عظامهم إذا بليت

(1) ينظر : محمد عجيبة ، موسوعة أساطير العرب ، ص 282 / 1 .

(2) ينظر : محمد أحمد جاد المولى ، أيام العرب في الجاهلية ، ص 213 . والزوران : مثنى الزور ، وهو كل شيء يتخذ رباً ويعبد من دون الله .

(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 282 / 2 ، ولم أجد البيت في ديوان الأعشى .

(4) ينظر : محمد هاشم عطيه ، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، ص 113 .

(5) ينظر : ابن حبيب ، المحبر ، ص 150 .

(6) ينظر : أنور أبو سويلم ، دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 94 .

(7) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 1 / 205 - 206 .

بعد موتهم؛ فأكثرُوا من ذبحها، ثاراً منها وإنقاذاً لهم بعد موتهم⁽¹⁾. كما عدّت نذير خراب ودمار، إذا أصيبت العرب بأذى، فبقدر ما كانت ناقة صالح عليه السلام مصدر خير لأهل ثمود، كانت سبب هلاكهم بعدما عقروها. ورمز شؤم عندما رمى كليب ضرع ناقة البسوس حتى اختلط اللبن بالدم بسبب انتهاكها مكاناً مقدساً هو حمى كليب، فتطور الأمر إلى انتهاك مقدس آخر من مقدسات الجاهليين، وهو حرمة الجوار، لتتشكل فيما بعد صورة جديدة لأسطورة الناقة منتقلة من دائرة المقدس إلى دائرة اللامقدس في ظل الإسلام⁽²⁾.

وتمثل الناقة في الأساطير " ربةً للحرب " تلقح الأسنة والرماح، فتحمل حملاً كريهاً، وتدر دماً أحمر مشؤوماً، وأنها نموذج للموت والدمار والشر، بعدما حلّ بثمود جراء عقربهم الناقة، يقول أبو كبير الهذلي⁽³⁾:

وَإِذَا الْكُمَاةُ تَعَاوَرُوا طَعَنَ الْكَلَى نَذَرَ الْبِكَاةُ فِي الْجَزَاءِ الْمُضْعَفِ
وَرَغَا بِهِمْ سَقَبُ السَّمَاءِ وَخُنِقَتْ مَهَجُ النَّفُوسِ بِكَارِبٍ مُتَزَلِّفِ

تبدو الناقة عند العرب حيواناً مقدساً فكل ما فيها يحمل طابع القداسة، فقدّمها أبو ذؤيب الهذلي لتشتمل على قوى متنوعة ومتفرقة⁽⁴⁾؛ ففيها قوة الظليم والثور والحصان الوحشي كي تبدو جديرة بالاحترام بالاحترام والإجلال⁽⁵⁾.

وأضفت مخيلة الجاهليين على الإبل طابعاً أسطورياً، فزعمت العرب أنّ في الإبل عرقاً من سيفاد الجنّ، وأنها خلقت من أعنان الشياطين، وأنّ الإبل " الحوشية " هي من نسل إبل الجنّ، فأطلقت على الإبل شديدة النفور " الجنّة " معتقدة أنّ الجنّ قد ركبتها، وألمّ بها طائف من الجنّ، وقرنت الإبل ببعض المخلوقات الوهمية كالسّعالي والغيلان والدّواهي⁽⁶⁾.

ب. الثّور والغزال :

نُظر إلى الثّور على أنّه رمز الإخصاب والمطر، وهو التّجسيد الأرضي للقمر السماوي، وقد استخدمته العرب في طقوس الاستسقاء، وكان من الآلهة التي عبدت على ضفاف الفرات، ثم استقر

(1) ينظر : محمد نعمان الجارم ، أديان العرب في الجاهلية ، ص 98 .

(2) ينظر : محمد عجينة ، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ، 1 / 286 .

(3) السّكري، شرح أشعار الهذليين ، 3 / 1087 ، الكماة : المقاتلون الشجعان، تعاوروا: تقاتلوا، نذر البكارة : تنذر الأيثار من الإبل أي تسقط من الدية فلا تحتسب ، في الجزاء : في الدم والقتل ، المضعف : يريد الدية التي تضاعف ؛ رغا بهم سقب السماء : حل بهم ما حل يقوم ثمود حين رغا بهم البكر من الهلاك ، والبكر ولد ناقة سيدنا صالح ، الكارب : الكرب ، متزلف : يتزلف منهم أي يدنو من أجوافهم.

(4) ينظر : الهذليون ، م . س ، 1 / 49 .

(5) ينظر : عماد الخطيب ، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي، ص 147 .

(6) ينظر : عماد الخطيب ، م . ن ، ص 165 .

صنماً في أطراف الجزيرة العربية آلافاً من السنين، فعبادة الثور انتشرت في عصور الجاهلية القديمة، حتى صار رمزاً للإله القمر⁽¹⁾، يقول أمية بن أبي عائذ⁽²⁾:

[المتقارب]

هَجَانِ السَّرَاةِ تَرَى لَوْنَهُ كَقُبْطِيَةِ الصَّوْنِ بَعْدَ الصَّقَالِ
حَدِيدِ الْقَتَاتَيْنِ عِبِلَ الشَّوَى لَهَا قِ تَلَأْوَهُ كَالْهَلَالِ

وقد انعكس هذا لدى الشعراء عندما قدموا مشهداً للثور لا يظهر فيه على مسرح الأحداث إلا مع قدوم الليل، محتمياً بشجرة الأُرطي من برد الصحراء وريحها ومطرها، يقول أبو ذؤيب⁽³⁾: [الكامل]

وَيَعُودُ بِالْأُرْطِيِّ إِذَا مَا شَفَّهْ قَطَرٌ وَرَاحَتُهُ بِلَيْلٍ زَعَزَعُ
فَعَدَا يُشْرِقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ أَوَّلَى سَوَابِقِهَا قَرِيْباً تَوَزَعُ

كما استخدمت العرب أسطورة البقر استخداماً رمزياً لتقديم النصح والإرشاد الذي ينظم نظرة الإنسان الجاهلي إلى الحياة وحتمية الموت، يقول خالد بن زهير الهذلي⁽⁴⁾: [الطويل]

فَلَا تَكُ كَالثَّوْرِ الَّذِي دُفِنَتْ لَهُ حَدِيدَةٌ حَتَفٍ ثُمَّ ظَلَّ يُثِيرُهَا

فأرشد الثور صاحبه إلى سكين ذبحه المدفونة، حين أخذ يحفر الأرض بأظلافه، وهذه قصة رمزية تشير إلى فناء الإنسان وموته الحتمي الذي يسير إليه دون أن يحتسب.

أما الغزال فهو من المعبودات العربية القديمة، إذ آمنت بعض العرب أن الغزالة لم تكن مقدسة لذاتها؛ بل لأنها ترمز للإله الشمس؛ لذا حُرِّمَ لحمها على العابدين، وأُحِلَّ ذبحها قرباناً لها⁽⁵⁾، وللإنسان في قصة العقاب- التي قدمها صخر الغي⁽⁶⁾ - عندما انقض على غزال جائم، فأخطأه وانحطم جناحه؛ عبرة وعظة في أن عقاباً سيحل بكل معتد على الغزال.

ت . الذئب :

يُعدُّ الذئب مثل بقية فصيلته من السباع التي تحدثت عنها الأساطير، " وقد ورد ذكر الذئب في قصة الطوفان البابلي، وهو نص مشابه للنص التوراتي "⁽⁷⁾، كما تزعم العرب أن الله تعالى لم يدع ماكساً إلا أنزل به بليةً وأنه مسح اثنين ضبعاً وذنباً⁽⁸⁾، وهو حيوان كثير الخبث، لا يأمن على نفسه

(1) ينظر : علي البطل ، الصورة في الشعر العربي ، ص 123 .
(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 176 ؛ هجان السراة : الثور الوحشي الأبيض الظهر، قبطي : ثوب ينسب إلى القبط، الصون : مصان، حديد القاتين : حديد القرنين، عبل الشوى: غليظ القوائم، لهاق : أبيض.
(3) الهذليون ، م . ن ، 1 / 10 - 12 ، الأُرطي : شجر ينبت بالرمْل طوله قدر قامته ورائحته طيبة، شفه: جهده، راحته : أصابته ريح، بليل : ريح شمالية باردة تتضح بالماء، زعزع: ريح شديدة، توزع: تكف ليجتمع بعضها إلى بعض .
(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 158 .
(5) نصرت عبد الرحمن، الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، ص 63 .
(6) الهذليون ، م . س ، 2 / 55 .
(7) عايد عمرو ، الذئب في الشعر والتراث العربي ، ص 27 .
(8) ينظر : عايد عمرو ، م . ن ، ص 33 .

حتى من قطيعه، فإذا نام واجه قطيعه حذراً، وعند دُنُوّه من الغنم يعوي، ثم يذهب إلى جهة أخرى؛ ليذهب الكلب إلى الجهة التي انطلق منها العواء، ثم يسلبها والكلب بعيد عنه. ويأتي الصيّد عند طلوع الشمس، في وقت يغلب النّعاس على الكلب، كما أنّه من أشدّ الحيوانات شماً، وطلباً للإنسان بخلاف بقية السّباع القوية التي لا تتعرض للإنسان إلا بعد الهرم، والعجز عن صيد الوحوش (1).

ورغم ما آمنت به العرب من معتقدات بخصوص الذّئب، فلا أرى أنّه بلغ مبلغاً يجعل المختصين يعدّونه حيواناً أسطورياً مثله مثل الحيوانات الأخرى التي اعتقدت العرب أسطوريتها، وهذا ما أكده الجاحظ عندما قال: " وزعمتم أنّ الكلاب أمة من الجنّ مسخّت، والذّئب أحقّ بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنّه وحشي وصاحب قفار، وبه يضرب المثل في التعدي، والكلب ألوف ... والذّئب مضرة كله" (2)، فاستقبحت العرب مشيته، وتشاءمت من صوته (3). والذّئب لا يصبر على جوع، فإذا جاع تجرأ على الثّور والحمّار الوحشيين، يقول الجاحظ: " والذّئب مخالف للثّور والحمّار والتّغلب جميعاً؛ لأنّه يأكل اللحم النّيء، ولذلك يقع على البقر والحمير والتّغالب" (4).

ث. الغُراب :

انمزجت صورة الغراب في الشّعْر الجاهلي بالواقع الاجتماعي لتصبح جزءاً من التّراث الأسطوري؛ حتى قيل: " أشأم من غراب البين" (5)، وقيل: " فإنّما لزمه هذا الاسم لأنّ الغراب إذا بان أهل الدّار لنجعة، وقع في مواضع بيوتهم ينلمس ما يأكله، فتشأموا به وتطيروا منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسمّوه غراب البين" (6). وللغراب مع الديك والحمامة قصة أسطورية قديمة (7)، إذ تؤكّد أنّ الغُراب نادم الديك عند خمار ورهنه عنده، ثم خدعه وخرج من الحانة سالماً غير غارم، فصار له الغنم وعلى الديك الغرم (8)، يقول أمية بن أبي الصّلت (9):

بَآيَةٍ قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الْغُورَابُ

وقد بدأت قصة الغراب مع الحمامة عندما أرسل نوح عليه السلام الغُراب ليستكشف الأرض، ولم يعد، وعندما فقد الأمل في عودته أمر نوح عليه السلام الحمامة أن تفعل ذلك، ثم عادت بالخبر اليقين، فكافأها نوح عليه السلام بأن جعل لها الطّوق الذي يزين صدرها (10). ويقول الجاحظ: " لقد رأينا العلماء يتعجبون من

(1) ينظر: القزويني، عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات، ص 424 - 425 .

(2) الجاحظ، الحيوان، 1 / 192 - 193 .

(3) ينظر: مصطفى طلاس، الذئب في آداب الشعوب، ص 31 .

(4) الجاحظ، م. س، 2 / 279 .

(5) الميداني، مجمع الأمثال، 2 / 194 .

(6) البغدادي، خزائن الأدب، 4 / 762 .

(7) ينظر: محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب، 1 / 299 - 328 .

(8) ينظر: الجاحظ، م. س، 3 / 403 و 600 .

(9) أمية بن أبي الصّلت، الديوان، ص 24 ؛ وينظر: ابن قتيبة، الشّعْر والشّعراء، 1 / 95 .

(10) ينظر: النويري، نهاية الأرب، 10 / 277 .

خرافات العرب والأعراب في الجاهلية، ومن قولهم في الديك والغراب، ويتعجبون من الرواية في طوق الحمامة، فإن الحمام كان رائد نوح على نبينا وعليه السلام" (1).

ج. الحمامة :

وللحمامة قصة مع الأسطورة، إذ تخبرنا المصادر أن نوحاً عليه السلام - بعد أن رست سفينته على الجودي - بعث " الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف وأبطأ عنه، فبعث الحمام فأتته بورق الزيتون ولطخت رجلها بالطين" (2)، ثم طلبت من نبي الله جُعلاً، فدعا الله لها بالطوق الذي يزين يزين أسفل رقبته، يقول أمية بن أبي الصلت (3):

وَأُرْسِلَتِ الْحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ تَدُلُّ عَلَى الْمَهَالِكِ لَا تَهَابُ
تَلَمَّسُ هَلْ تَرَى فِي الْأَرْضِ عَيْناً وَغَبَّتْهَا مِنَ الْمَاءِ الْغُبَابُ
فَجَاءَتْ بَعْدَ مَا رَكَضَتْ بِقُطْفٍ عَلَيْهِ الثَّوْأَطُ وَالطَّيْنُ الْكُبَابُ
فَلَمَّا فَرَسُوا الْآيَاتِ صَاغُوا لَهَا طَوْقاً كَمَا عَقِدَ السَّخَابُ

أما الأسطورة الثانية، إذ تزعم الأعراب أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام، فمات ضيعة وعطشاً، " فالعرب تجعل " الهديل " فرخاً، عندما صاده طير جارج من جوارح الطير على عهد نوح عليه السلام، فقيل: ليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه، وأنشد في هذا المعنى (4): [الطويل]

فَقُلْتُ: أَتَبْكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرْتُ هَدَيْلاً وَقَدْ أودى وَمَا كَانَ تُبْعُ " (5)

فَاتَّخِذْ رَمْزاً لِلْحُزْنِ وَالْفَقْدِ، وَبِرْثِي صَخْرَ الْغَيِّ وَلَدَهُ " تليداً "، ويقول (6): [الوافر]

وَذَكَّرَنِي بِكَايَ عَلَى تَلِيدٍ حَمَامَةٌ مَرَّ جَاوِبَتِ الْحَمَامَا

(1) الجاحظ، الحيوان، 813/4 .

(2) الأزرق، أخبار مكة، 28/1 .

(3) أمية بن أبي الصلت، م. س، ص 24 - 25؛ تلمس: تبحث وتتلمس، العين: الناحية، العباب: الكثير، يقول: ذهبت الحمامة تبحث عن ناحية من الأرض تشرب هذا الماء الكثيف فتجف أرضها؛ القطف: الثمرة والعنقود، ويقال: غصن الزيتون، الثأط: الطين الأسود، الكباب: الرمل؛ فرسوا: صاغوا، السخاب: القلادة .

(4) ورد في لسان العرب أن البيت لنصيب، وقيل هو لأبي وجزة.

(5) ابن قتيبة، أدب الكاتب، 143 - 144 .

(6) السكري، شرح أشعار الهذليين، 292/1؛ مر: مر الظهران، أي كنت قد سكنت، تليد: ولد صخر الغي.

ج. النعامة :

تزعم الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين تتقوى بهما، فرجعت مقطوعة الأذنين، فسُميت بالظليم لأنها ظلمت نفسها، ويصفونها بذلك⁽¹⁾، يقول أبو العيال الهذلي⁽²⁾:
[الكامل]

أو كَالنَّعَامَةِ إِذْ غَدَتْ مِنْ بَيْتِهَا لِيُصَاعَ قَرْنَاهَا بِغَيْرِ أَذِينَ
فاجتثت الأذنان منها فانتَهت صلماً ليست من ذوات قرون

ورغم قوة حاسة الشم لدى النعامة، فهي لا تسمع، والعرب تقول: "هو أشم من نعامة"⁽³⁾، يقول الجاحظ: "ضربان من الحيوان لا يسمعان الأصوات، وذلك عام في الأفاعي والنعام"⁽⁴⁾. ومن الأمور العجيبة أن النعامة رغم عظم عظامها، وشدة عدوها، لا مُح فيها، وفي ذلك يقول الأعلام الهذلي⁽⁵⁾:
[الوافر]

على حث البراية زَمْخَرِيَّ السَّـ سِوَاعِدِ ظَلَّ فِي شَرِي طَوَالِ

إن التفسير الأسطوري لاسم الظليم وربطه بما وقع عليه من ظلم، يكشف منذ البداية عن تعاطف حميم مع هذا الحيوان؛ لقد ذهب يتسلح بقرنين يواجه بهما أعداءه، فلم يظفر بما شاء، بل فقد أسلحته القوية، وهما الأذنان اللتان تساعدانه على الإحساس بالأعداء، والهرب منهم.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، 4/ 807.
(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، 1/ 422؛ الجاحظ، م. س، 4/ 808؛ الصلما: مقطوعة الأذنين. فهو أشبه بالنعامة التي ذهبت تطلب قرناً فعادت بلا أذنين.
(3) الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 198.
(4) الجاحظ، م. س، 4/ 833.
(5) السكري، م. س، 1/ 320؛ الحث: السريع، والشرى: الحنظل، البراية: القدرة على السير، السواعد: مجاري مخه في العظم، الزمخري: الأجوف.

الفصل الثاني: مواضع ورود صورة الحيوان في شعر الهذليين

- أ. الحيوان في الرثاء.
- ب. الحيوان في النسيب.
- ت. الحيوان في الفخر.
- ث. الحيوان في الحماسة.
- ج. الحيوان في المدح.
- ح. الحيوان في الهجاء.
- خ. الحيوان في الحنين.
- د. الحيوان في الحكمة.
- ذ. الحيوان في المثل الشعري.

في هذا الفصل سأناقش مواضع ورود صورة الحيوان في ديوان الهذليين، من خلال الحديث عن الأغراض الشعرية التي وردت فيها صورته.

ساعدت بيئة قبيلة هذيل الجغرافية على انتشار الحيوانات فيها بنوعها الأليف كالإبل والشاء، والمتوحش كالحمير والبقر الوحشية والوعول والظباء والسباع والظليم، وكثرة الغارات والوقائع بين هذيل والقبائل المجاورة لها حتى وصلت حداً يصعب حصره، فعرفت هذيل بكثرة الشعراء الصعاليك والزماة والعدائين، يقول الأصمعي: "إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعراً، أو ساعياً، أو رامياً فلا خير فيه" (1)، كما كان لحياتهم في الجبال أثر في قوة أرجلهم وسرعتهم، حتى قارنوا سرعتهن بسرعة الظليم في لحظات العدو في وجوه المطاردين، ويسرت سرعتهن مطاردة الحيوان البري واصطياده. فكثر الصيد والطرد للحيوان المتوحش، حتى بات الحيوان أصلاً من أصول الصورة الفنية في شعرهم، كما أنه كثر في أغراض النسيب والرثاء والفخر والهجاء...

أما كثرة الصيد والطرد فكان لها أثر واضح في ترجيح غرض الرثاء عند استخدام صور الحيوان وقصصه، ففي الطرد والصيد هلاك للحيوان وروع وفزع - بالإضافة إلى حياتهم المليئة بالغارات والقتل والتأثر والغدر التي صبغت بالدم - وكثر شعر الرثاء في شعرهم بشكل غير مألوف مقارنة مع القبائل الأخرى، فهذيل أكثر القبائل مراساً في القتال، حتى قيل: "أن هذيلاً أكراد العرب بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال" (2). ففي الغارات يكثر موت الإنسان والفرار، فيكون الميت أماً أو قريباً أو صديقاً مقرباً أو ابناً وحيداً لعجوز ولدته على كبر.

في مثل هذه البيئة يتشارك الإنسان والحيوان في تعرضهما للفناء والهلاك في أية لحظة غداً ومفاجأة، فالمصائب كثيرة، والنفوس مترعة بالحزن والأسى. فعبر الشعراء الهذليون من خلال الحيوان عن حجم ألمهم وحزنهم ومعاناتهم؛ خاصة حمار الوحش وأنته، وثور الوحش وبقرته. وفي ظل ما أحاط بهذلي من بيئة اجتماعية واقتصادية وجغرافية ونفسية ومعنوية، ومعرفته بطبائع الحيوان، يمكن تصنيف مواضع ورود صورة الحيوان، على النحو التالي:

أ. الحيوان في الرثاء:

يعتبر الرثاء من أهم أغراض الشعر الهذلي لكثرة الأيام بين الهذليين وجيرانهم من القبائل العربية، و أوقعت القتل فيهم حتى بات الشعراء لا يجدون فرصة إلا يذكرون أحباءهم الذين قضوا في المعارك، أو قتلوا غيلة ثاراً لغيرهم، فكان للهذليين في كل يوم مفقود أو أكثر، فبكوا أحباءهم، ورثوهم بحزن صادق وجزع كبير.

(1) الأصفهاني، الأغاني، 21 / 208 .

(2) عبد الجواد الطيب، هذيل في جاهليتها وإسلامها، ص 118.

وكثرت صورة الحيوان في غرض الرثاء للتشابه الواضح بين قصة الإنسان مع الموت والهلاك في الحروب، بقصة الحيوان في الصيد والطرْد، أما الحيوانات التي كثر ورودها في غرض الرثاء فهي حمار الوحش وأنته، والنور الوحشي وبقرته والوعل والعقاب والأسد. فوردت صورة الحمار الوحشي وأنته، والنور الوحشي وبقرته، وهي تعيش حياة راغبة في بيئة خضراء زاخرة بالماء، محاطة بالأشجار، أو في طريقها إليها بعد طول كد وعناء، فإذا بصائد يتربها يتخفى خلف شجرة أو صخرة ليصطادها. أما الوعل والعقاب فجاءت صورته في سياق الحديث عن حياتها بعيداً عن الأخطار في أعالي الجبال التي تعجز بعض الطيور من الوصول إليها، وفي لحظة شعورها بالأمان، يصلها الموت رغم بعدها عن المخاطر. ولما كان الشاعر يذكر ما اتصف به المقتول من شيم وخلال، وعزة ونخوة وكرم وشجاعة وضراوة وإقبال، فقد استعان بصور الحيوانات ليؤكد ما يصف به المرنى، أو يعقد مقارنة بينه وبين حيوان تجمعهما ذات الصفات، أو يجري موازنة بين الحالة التي مات عليها المرنى أو الحيوان.

ومن السمات المشتركة في غرض الرثاء أن قصة الحيوان تبدأ في كثير منها بعبارة "والدهر لا يبقى على حدثانه ... " أو " تالله يبقى على الأيام مبتقل ... "، وهي صيغة اختص باستخدامها الهذليون في غرض الرثاء، وقد وردت مع النور الوحشي وبقره أكثر من أربع مرات، ووردت مع الوعل أكثر من ثلاث مرات، ووردت مع الأسد أكثر من مرة ⁽¹⁾.

" وشعراء هذيل يمتازون بالقدرة الفائقة على فن الرثاء، ولكني لم أجد شاعراً منهم يفوق أبا ذؤيب في هذا الفن، ولم يبلغ فيه أحدهم مبلغه في الإجابة والإحسان " ⁽²⁾، وقد برز بشكل واضح أن الهذليين في رثائهم ذهبوا مذهباً قصصياً يعتمد على الحيوان الشارد، والمتحصن في قُلل الجبال العالية، ليؤكدوا أن الموت يدرك الكائنات مهما تحصنت، أو احتمت في بروج مشيدة .

فأجاد أبو ذؤيب الهذلي في عينيته حتى بلغ القمة، عندما رثى بنيه فيها عبر ثلاث قصص مؤلمة، جاءت كل واحدة منفصلة عن الأخرى، فتراها يقول ⁽³⁾ :

والدهر لا يبقى على حدثانه	جَوْنُ السَّارَةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ
صَخْبُ الشَّوَارِبِ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ	عَبْدُ لَالٍ " أَبِي رَيْبَعَةَ " مُسْبَعُ
أَكَلَ الْجَمِيمِ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجٌ	مِثْلُ الْقَنَاءَةِ وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرَعُ
بَقَرَارٍ قِيَعَانٍ سَقَاها وَابِلٌ	وَاهٍ فَأَتَجَمَّ بِرَهْمَةٍ لَا يُقْلَعُ

(1) محمد حسن الأمين ، الصورة البيانية في شعر الهذليين ، ص 81 .

(2) إسماعيل النتنشة ، أشعار هذيل ، 135 / 2 .

(3) الهذليون ، الديوان ، 1 / 4 - 5 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 146 - 148؛ الحدثان : المصائب والبلايا ، الجون: الأبيض والأسود، السراة : أعلى كل شيء والمراد أعالي الجبال والهضاب، الجدائد : جمع جدود وهي الأتان السمينية، الصخب: شديد الصوت، الشوارب : عروق في الحلق، والمراد أنه كثير النهيق، أبو ربيعة : رجل من بني شيبان ، المسبع: المهمل الذي لا يعمل، الجميم: النبات أول خروجه من الأرض، السمحج : الأتان الطويلة دون ارتفاع في السماء، القناة : الرمح، أزعلته : نشطته ، الأمرع : جمع مرع وهو الخصب، القرار : مكان استقرار الماء، القيعان : الأرض السهلة المطمئنة ، الوايل : المطر الشديد ، أجم: أقام وثبت ودام ، البرهة: المدة الطويلة من الزمن ، يقلع : ينقطع.

قَلْبُنَ حَيْنًا يَغْتَلِبُنَ بِرَوْضِهِ فَيَجِدُ حَيْنًا فِي الْعِلَاجِ وَيَشْمَعُ

فيستعين بقصة حمار الوحش واصفاً حياته مع أخته، متمتعاً بحريته التي انتهت بالهلاك والموت، ثم ينتقل مرة أخرى إلى قصة الثور الوحش، وما دار في المعركة بينه وبين الصائد وأكلبه، فيقول أبو ذؤيب (1):

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ شَبَبَ أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ مُرَوَّعُ
شَعَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ فُوَادَهُ فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ الْمُصَدِّقَ يَفْزَعُ
وَيَعُودُ بِالْأَرْضِ إِذَا مَا شَفَّاهُ قَطَرَ وَرَاحَتُهُ بِلَيْلٍ زَعَزَعُ

وعندما يرثي ساعدة بن جؤية ولده سفيان يقص علينا قصة وعل متوحش (2) ترتعد فرائصه خشية الموت، وعندما تتاله سهام الصائد وتخترق جسده، لا يشعر بها فتراه يستمر في الفرار من الموت رغم ما ألم به، لكنه أخيراً ينهار صريعاً، فيقول ساعدة (3):

أَرَى الدَّهْرَ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَبُودُ بِأَطْرَافِ الْمَنَاعَةِ جَلْعُدُ
تَحُولُ لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ كَأَنَّهُ بِشَفَانٍ رِيحٍ مُقْلِعِ الْوَيْلِ يَصْرُدُ
تَحُولُ فَشَغَرِيرَاتُهُ دُونَ لَوْنِهِ فَرَائِصُهُ مِنْ خِيفَةِ الْمَوْتِ تُرْعَدُ

ويجد أبو خراش في قصة الحمار الوحشي تسرية في فقدته لزهير بن العجوة، بعد أن تكالبت عليه كل ظروف الحياة القاسية فخرج منها منتصراً، لكن الموت كان أقوى منه، فيقول (4):

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ عِلْجُ بِكُلِّ فَلَاةٍ ظَاهِرَةٍ يَرُودُ
تَخْطَأُ الْخُتُوفُ فَهُوَ جَوُّونُ كِنَازُ اللَّحْمِ فَائِلُهُ رَدِيدُ
غَدَا يَرْتَادُ بَيْنَ يَدَيَّ قَنِيصِ تُدَافِعُهُ سَفَنُجَةٌ عَنُودُ
فَأَلْجَمَهَا فَأَرْسَلَهَا عَلَيْهِ وَوَلَّى وَهُوَ مُنْتَفِدٌ بَعِيدُ

(1) الهذليون، الديوان، 10 / 1 - 12، الشبيب الثور المسن، أفزته: طردته، الضاريات: المتعودات على الصيد، الصبح المصدق: المضيء، الأرطي: شجر ينبت بالرمْل طولُه قدر قامته ورائحته طيبة، شفه: جهده، راحته: أصابته ريح، بليل: ريح شمالية باردة تنضج بالماء، زعزع: ريح شديدة.

(2) ينظر: الهذليون، م. ن، 1 / 193 - 195؛ قصيدة "الميمية" لساعدة بن جؤية. و 2 / 54 - 55؛ "قصيدة البائية" لصخر الغي.

(3) الهذليون، م. ن، 1 / 240 - 242؛ الأبود: الأبد وهو المتوحش يريد الوعل، المناعة: اسم جبل، الجلعد: الغليظ؛ تحول لوناً: يقشع فيخرج باطن شعرته فيجيء لون غير لونه ثم يسكن فيعود لونه الأول، شفان ريح مقلع الويل: الريح الباردة، الصرد: أشد البرد؛ الفريضة: المضيفة التي تحت الكتف.

(4) الهذليون، م. ن، 2 / 162 - 163؛ العليج: الحمار الوحشي، فلاة ظاهرة: ما ارتفع عن الأرض، يرود: يروح ويجيء، تخطأه: الخطوف: أصبح قوياً يعتمد على نفسه، الجون: الحمار الوحشي، كنز اللحم: صلب اللحم، الفائل: اللحم على خرب الورك، والخرب: ثقب رأس الورك، رديد: مجتمع ومتماسك ويغطي خرب الورك، القنيص: الصائد، تدافعه: تلاحقه، السفنجة العنود: النعامة البعيدة الخطو المتحرقة النشاط يريد فرس الصائد، فألجمها: يريد سبقتها عدواً، فأرسلها عليه: عادت إليه، وولي وهو منتقد: هرب منها بعد أن استوفى ما لديه من قدرة على العدو.

ويرثي قيس بن عيزارة أخاه الحارث بن خويلد مسلماً نفسه ببقرة وحشية هادئة البال تعيش في خصب ودعة، ثم يعرض لها صائد مع أكلبه الضارية، فيقول (1):

[الكامل]

وَاللَّهِ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ بَقَرٌ بِنَاصِفَةِ الْجَوَاءِ رُكُودُ
حَتَّى أَشِبَّ لَهَا أُغْيِيرُ نَابِلُ يُغْرِي ضَوَارٍ خَلْفَهَا وَيَصِيدُ

واستفاد الشعراء الهذليون من صوت الحمام (2) وما عُرف عن نواحه وسجعه الممزوج بالحزن، فأفصحوا من خلاله عن دوام حزنهم وألمهم العميق على ما فقدوه من أبناء وأقارب، وما آلت إليه أحوالهم من سهد وأرق. فيرثي صخر الغي ولده تليداً، فيقول (3):

[الوافر]

وَذَكَّرَنِي بِكَائِي عَلَى تَلِيدٍ حَمَامَةٌ مَرَّ جَاوَيْتِ الْحَمَامَا
تُنَادِي سَاقَ حُرٍّ وَظَلْتُ أَدْعُو تَلِيدًا لَا تُبَيِّنُ بِهِ الْكَلَامَا

ويرسم في أبياته صورة الحمامة تتغنى بهديلها الحزين، ثم يرد عليها حمام آخر، فيستشعر الشاعر صوته؛ لتعبر عما يشكو منه، فهي أشبه بامرأة نائحة على ميت التفت حولها أخريات ينحنه، فالحمامة تبكي "ساق حر" وهو يبكي "تليداً". كما جاء صوت الحمام في نواحه وسجعه منسجماً مع حالة أبي ذؤيب في حزنه على ابن عمه "نشيبه" عندما ترك موته أثراً مؤلماً في نفسه، فالحمام دائم الحزن دوام حياته، حتى اقترنت حياة الشاعر بهديل الحمام الحزين، فباتت اللُغة المشتركة التي يعبر بها عن ألمه وحزنه على فراق ابن عمه، فيقول (4):

[الكامل]

تَدْعُو الْحَمَامَةُ شَجْوَهَا فَتَهْجُنِي وَيَرُوحُ عَازِبٌ شَوْقِي الْمَتَأَوُبُ

ويرثي أبو خراش أخاه عروة، فيرسم صورة العقاب وهو ينقض على أرنب، فيقول (5):

[الطويل]

وَلَا أَمْعُرُ السَّاقِينَ ظِلَّ كَائِهِ عَلَى مُحَزَّاتِ الْإِمَامِ نَصِيلُ
رَأَى أَرْنَبًا مِنْ دُونِهَا غَوْلٌ أَشْرَجُ بَعِيدٌ عَلَيْهِنَّ السَّرَابُ يَزُولُ

فالموت انقض على عروة كما انقض عقاب متحفز لا ريش على ساقيه على أرنب كان مختفياً في مكان آمن يصعب الوصول إليه، وكأن الشاعر يؤكد أن الموت يصل إلى الإنسان مهما ارتقى في البروج المشيدة، أو اختبأ في الشقوق الضيقة المعتمة البعيدة التي لا يصلها النور أو الضوء.

(1) الهذليون، الديوان، 3 / 74، بناصفة الجواء: الأرض السهلة المطمئنة التي تنبت الثمام، الجواء: الواسع من الأودية، ركود: في دعه وخصب، البلقة: التي لا شيء بها، الخبت والسملق: ما استوى من الأرض ولا نبت فيه (مستو أملس)، تروود: تروح وتجيء.

(2) ينظر: الهذليون، م. ن، 2 / 67؛ قصيدة صخر الغي "الدالية".

(3) الهذليون، م. ن، 2 / 66؛ مر: اسم موضع، ترجع منطقاً: تصدر صوتاً، أوفت: استمرت، والحر: فرخ الحمام وقيل الذكر منها وساق حر الذكر من القماري، وقيل الساق الحمام وحر فرخها ويقال ساق حر صوت القماري. (اللسان، مادة حر).

(4) الهذليون، م. ن، 1 / 63، عازب شوقي: أي كان قد عذب ثم راح، الشجو: الحزن، المتأوب: الذي يرجع بالليل.

(5) الهذليون، م. ن، 2 / 121؛ أمعر الساقين: يريد صقراً من الصقور لا ريش على ساقيه، المحزئل: المشرف والمجتمع، النصيل: حجر يجعل في البئر؛ غول: أي ذات بعد، أشرح: شقوق في الصخر، يزول: يتحرك عليها السراب.

وفي معرض رثاء الشعراء لأقاربهم، تجدهم يعرضون لصفة حيوان مشهورة، ويوظفونها في الصورة لتزيدها قوة ومصداقية، فيشبهه ساعدة بن جؤية العادية التي قتلت ابن عمه غيلة في سرعتها بسرعة العقاب، فيقول⁽¹⁾:

تَدَارَكُهُ أُولَى عَدِيٍّ كَأَنَّهُمْ عَلَى الْفَوْتِ عِقْبَانُ الشَّرِيفِ الْخَوَاطِفِ

ويؤكد الشاعر أنهم ما كانوا لينالوا منه لولا كثرتهم، وقتلهم له غيلة، وسرعتهم - في النيل منه- التي تشبه سرعة العقاب الخاطفة.

وفي موضع غير مسبوق، نجد أبا خراش يرثي نفسه قبل موته بعد أن لدغته حية، بينما كان يجلب الماء لضيوفه ليلاً ليشرّبوا، فقضت عليه، فقال أبياتاً في ذلك قبل وفاته⁽²⁾ :

[الوافر]

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَائِيَا غَالِبَاتٍ عَلَى الْإِنْسَانِ تَطْلُعُ كُلُّ نَجْدٍ
لَقَدْ أَهْلَكْتَ حَيَّةً بَطْنِ أَنْفٍ عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ

فأبو خراش وهو يرثي نفسه يبين أن ساقاً كانت تضرب فيها الأمثال في سرعة العدو ستفقد، بعد أن أكد أن الموت سيحل بالإنسان، ولن يجد لنفسه منه مناصاً، فكأنه يريد أن يقول : تعددت الأحوال والموت واحد.

وفتر القصص الحزين في الرثاء في العصر الإسلامي، حتى بات واضحاً أننا " لا نلمح هذا القصص الذي يصور عجز الإنسان أمام الموت، وضعفه وهو في قبضة الدهر. فكأنما كتاب الله أضفى على نفوسهم أمناً وطمأنينة ... " ⁽³⁾ . لكن بقيت صورة الحيوان تطرح ضمن شعر الرثاء في إطار محدود، يقول عبد الله بن أبي ثعلب الهذلي يرثي بعض رجال هذيل ممن أصيبوا بالطاعون في الشام ومصر⁽⁴⁾:

[المتقارب]

فُجِعْنَا بِهِمْ وَيَأْمُثُ الْهَلِيمُ مِنْ أَهْلِ الْغَنَاءِ فَأَمْسَوْا رِمَامًا
جَمَاجِمَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَمِيمِ وَفِي النَّاسِ كَانُوا أَسْوَدًا حِمَامًا

(1) الهذليون، الديوان ، 1 / 226 ؛ العدى : العادية الذين يحملون الحملة الأولى، كأنهم على الفوت: كأنهم خافوا أن يسبقوا، الشريف: عين ماء لبني نمير تنسب إليه العقبان ، الخواطف : العقبان الخاطفة .

(2) السكري، شرح اشعار الهذليين ، 3 / 1244 - 1245 ؛ بطن أنف : منازل هذيل ، ساقاً : يقصد ساقه ، ويضرب فيه المثل في السرعة فلم يكن يدرك ، مما جعل أصحابه يفتقدونه ويفتقدونها .

(3) أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين ، ص 208 .

(4) السكري ، م . س ، 2 / 887 ؛ الحمام : أهل الحامة والخاصة .

والباحث في شعر الهذليين يجده مليئاً بالنسيب، وصف محاسن المرأة المادية والمعنوية، فتراهم يشيدون بحسن نسائهم، وما اعتراهم من ألم ومعاناة عند الفراق، وشوق وسعادة للقاء بعد طول غياب. لذا عمد معظم الشعراء الهذليين إلى البدء في أشعارهم بالنسيب والتشبيب، ثم كانوا ينتقلون إلى غرض قصيدتهم الأصيل. ورغم أن هذا تقليد شائع في الجاهلية، إلا أن ديوان الهذليين لم يخل من التجارب الصادقة، " المرأة فيه تقبل على الرجل، والرجل يقبل عليها، والاثنتان يعطيان هذه المعاني المستمدة من غريزتهما وقلبيهما، فلن نجد الحبيبة رشاً أكحل فقط، ولا نعمة مغزلة ولا أيماء ملوناً، ولكن سنراها إنساناً يتحرك، وقلباً يخفق، وصوتاً يتكلم، والرجل معها مفتون بها، حريص عليها، ومعنى ذلك كله أن الصورة هنا سوية نلمسها فيما ينعتها به " (1).

وقد أورد الشعراء الهذليون في غزلهم بالمرأة صورة الإبل والظباء والنحل، كما جاءت صورة الإبل في غرض النسيب مرتبطة بشكل غير مباشر، بمعنى أن الإبل إما أنها كانت تساعد الشاعر في إظهار محاسنه أمام محبوبته عندما تغنى بكرمه وشجاعته، وإما أنها تسليه حزنه وفراقه للمحبة بركوبها طوال رحلتها الطويلة. وإما أنها تهيج أشجانه وتحمل أشواقه، وهي تحمل الحبيبة مبتعدة عنه، يقول مليح بن الحكم القردي (2):

مُصْطَفَاةٌ كَاصْطِفَافِ الْفُلْكِ لَا لَجْنٍ تَحْتَ السَّيَاطِ وَلَا مَشْعُوفَةٌ شَرْدُ
كَأَنَّ مَا فَوْقَهَا مِمَّا عَلَيْنَ بِهِ دِمَاءُ أَجْوَافٍ بَدَنٍ لَوْنُهَا جَسِدُ
فَالْعَيْرُ تَحْمِلُ أَشْوَاقًا مُضَعَّفَةً وَالْعَيْنُ يُحْمَلُ فِيهَا الصَّابُ وَالرَّمْدُ

ويتغنى أبو ذؤيب بكرمه، أمام حبيبته " أسماء " وهو الذي يذبح الإبل الضخمة ليُطعم الجياع، وضيوف قبيلته، حتى لا يسبقه أحد إلى هذا الفعل، فيقول (3):

وَمُفْرِهَةٌ عَنَسٍ قَدَرْتُ لِرَجْلِهَا فَخَرْتُ كَمَا تَتَابَعُ الرَّيْحُ بِالْقَفْلِ
لَحِيٍّ جِيَاعٍ أَوْ لَضِيفٍ مَحُولٍ أَبَادِرُ ذِكْرًا أَنْ يُلَجَّ بِهِ قَبْلِي

وحتى تكتمل الصورة، لا بد من الربط بين ما سبق من الأبيات ومطلع القصيدة، إذ يقول (4):

أَلَا زَعَمْتَ " أَسْمَاءُ " أَنْ لَا أَحِبُّهَا فَقُلْتُ: بَلَى، لَوْلَا يُنَازِعُنِي شُغْلِي

فالشاعر في سبيل رفع شأنه أمام حبيبته، ينحر كرائم الإبل وسمانها للفقراء والمحتاجين والضيوف، وهي خصلة يعتز بها العربي ويتباهى بها أمام الناس.

(1) أحمد كمال زكي، شعر الهذليين، ص 158.
(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، 3 / 1013 - 1014، الفلك: السفن: اللجون: الثقلة البليدة، مشعوفة: وإلهة إلى أوطانها وصواحبها، شرد: ذاهية، كأن ما فوقها: الأشرعة، دماء بدن: حمراء كدماء الإبل، الصاب: الغبار.
(3) الهذليون، الديوان، 1 / 38 - 39؛ مفرهة: الناقة تأتي بأولادها فواره، عنس: شديدة، قدرت لرجلها: هيات وضربت رجلها، كما تتابع الريح بالقفل: كما تذهب الريح بالنبات اليابس؛ لحي جياع: الناقة مذبوحة لقوم جياع، لضيف محول: لضيف تحول عن أهله ورحل عنهم، أبادر ذكراً: أبادر من أجل الحمد والشكر قبل أن يناله غيري.
(4) الهذليون، م. ن، 1 / 34.

أما تشبيه المحبوبة بالطَّيِّبة فكان مختلفاً، لأنَّها ظهرت بشكل أصيل في الصَّورة، لأنَّها الصَّورة المثلى لجمال الحبيبة في عينيها، وعنقها، وضمورها، ورشاقتها. فارتباط الطَّيِّبة بالنَّسب مختلف عنه عند الناقّة، وكذلك صورتها التي وردت في شعر الغزل الهذلي عندما أبرز الهذليون طول عنق المحبوبة، وسعة عيونها، وبياض لونها وإشراقه، وسواد الفم وامتلاء الجسم. حتى إنَّ الطَّيِّبة لم تفضل المحبوبة جمالاً وبهاءً. أما النحل فجاء في سياق تشبيه العسل الممزوج بالماء البارد الصافي بعم الحبيبة عند السحر، وفي روعة حديثها وحلاوة منطقتها فكأنَّه العسل .

وتناول الشعراء الهذليون في غزلهم صفات المرأة الحسّية عبر صور خاطفة للحيوان، يقول المتنخل الهذلي (1) :

[السريع]

عِزْرٌ عَلَيْهِنَّ كِنَانِيَّةٌ جَارِيَةٌ كَالرَّشَاءِ الْأَكْحَلِ
كَالْأَيْمِ ذِي الطُّرَّةِ أَوْ نَاشِيٍّ بَرْدِيٍّ تَحْتَ الْحَفَا الْمُغِيلِ
تَنْكَلُ عَنْ مُتَسِقٍ ظَلَمَهُ فِي ثَغْرِهِ الْإِثْمُ لَمْ يَفْلُلِ
غُرَّ الثَّنَايَا كَالْأَقَاحِي إِذَا نَوَّرَ صَبْحَ الْمَطَرِ الْمُنْجَلِي

فمحبوبته الكنانية أشبه بالطَّيِّبة الصَّغير الأكل حسناً، وبالحيّة في رشاقتها وليونتها ونعومة ملمسها. ويقول أيضاً لصاحبه أمانة بعدما هجرته (2) :

[الوافر]

أَبَيْتُ عَلَى مَعَارِي فَاخِرَاتٍ بِهِنَّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ الْعِبَاطِ
يُقَالُ لَهُنَّ مِنْ كَرَمٍ وَحُسْنٍ ظَبَاءُ تَبَالَةٍ الْأُيَمِّ الْعَوَاطِي

فهجرانه لها لم يمنعه من أن يبيت مع نساء حسان على فرش ناعمة، يحتسي معهن الخمر، حتى لا يعود يذكر شيئاً، فصاحباته من النساء أشبه بظباء تبالة اللواتي يتناولن أطراف الشجر. فجاءت صور المتنخل مادية، يصف فيها جسدها وقوامها، ليعزز بذلك متعة حسّية، يلذ لها ويستمتع بها.

ويتغزل أبو ذؤيب الهذلي في " أسماء " مشبهاً إياه بالطَّيِّبة، وقد أبرز العديد من صفات جسدها، قائلاً (3) :

[الطويل]

لَعْمَرُكَ مَا عَيْسَاءُ تَتَّبَعُ شَادِنًا يَعْنُ لَهَا بِالْجَزَعِ مِنْ نَخْبِ النَّجْلِ
إِذَا هِيَ قَامَتْ تَقْشَعِرُ شَوَاتِهَا وَيُشْرِقُ بَيْنَ اللَّيْلِ مِنْهَا إِلَى الصُّقْلِ
تَرَى حَمَشًا فِي صَدْرِهَا ثُمَّ إِنَّهَا إِذَا أَدْبَرَتْ وَلَّتْ بِمُكْتَنَزِ عِبْلِ

(1) الهذليون ، الديوان ، 4 / 2 - 5 ، الرشاء : الطَّيِّبة الصغير ، يقول : هي مثل الرشاء الأكل في حسنه.
(2) الهذليون ، م . ن ، 20 / 2 ؛ المعاري، الفرش، الملوب : من أنواع الطيب والعمور، العباط : جمع عبيط ، وهو ماذبح أو نحر في غير مرض قدمه صاف ، تبالة : بلدة مشهورة من أرض تهامة في الطريق إلى اليمن، العواطي : اللواتي يتناولن أطراف الشجر.
(3) الهذليون ، م . ن ، 35 / 1 - 36 ، العيساء : الطَّيِّبة بيضاء اللون ، الشادن : صغير الطَّيِّبة، يعن لها : يعرض لها ، الجزع : واد بالطائف، نخب: واد في أرض هذيل، النجل : الماء الذي يظهر من الأرض ثم يجري ؛ الشواة : جلد الرأس والمقصود يقشعر شعر الرأس، بشرق : يضيء، الليت : أسفل الأذن وهو صفحة العنق، الصقل : الخاصرة؛ الحمش : الدقة في الصدر مكتنز : ممتلئ اللحم ، العبل : الضخم، والمعنى أن مؤخرتها ممتلئة اللحم.

والهذليون وهم يتغزلون بمحبياتهم خلطوا بين أوصاف المرأة المادية، وبين عواطفهم عندما وصفوا ثغرها الجميل وجسدها المتسق وقامتها الرائعة، يقول أبو ذؤيب⁽¹⁾: [الطويل]

فَمَا أُمُّ خَشْفٍ " بِالْعَلَايَةِ " شَادِنِ تَوْشُ الْبَرِيرِ حَيْثُ نَالَ اهْتِصَارَهَا
مَوْلَعَةً بِالطَّرْتِينَ دَنَا لَهَا جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارَهَا
بِهِ أَبْلَتْ شَهْرِي رَبِيعِ كَلِيهِمَا فَقَدْ مَارَ فِيهَا نَسْوُهَا وَاقْتَرَارَهَا
وَسَوْدَ مَاءِ الْمَرْدِ فَاهَا فَلَوْنُهُ كَلَوْنِ النَّوُورِ فَهِيَ أَدْمَاءُ سَارَهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا يَوْمَ قَامَتْ فَأَعْرَضَتْ ثَوَارِي الدَّمُوعِ حِينَ جَدَّ انْحِدَارَهَا

فالظبية كثيرة التلقت، وتلفتها يبرز جمال عيونها، وطول عنقها الذي يظهر طوله وحسنه وهي تمدّه لتلتقط ثمر الآراك، وهي سميكة مكتنزة، بيضاء لونها، مشرق جسمها، أسود فمها لكثرة أكلها ثمر الآراك، ورغم جمال الظبية إلا أن محبوبة الشاعر تفوقها حسناً وجمالاً وإشراقاً .

وعبرت صورة العصفور عن نفسية الشعراء، وما يكتنفها من الفرح والترح، فكانت أداة التسلية والسّلوى كلما تذكروا المحبوبة ولاح طيفها، يقول أبو خراش⁽²⁾: [الطويل]

إِذَا ذُكِرَتْ يَرْتَاحُ قَلْبِي لِذِكْرِهَا كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَلَةَ الْقَطْرِ

ويقدم الشاعر صورته متصدع القلب شوقاً ولوعة لمحبوبته، يصاب بالزعشة حين يتذكرها، وطيف الذكريات يسري عنه همومه ويخفف عنه انشغاله، فإذا هدأت نفسه عادت الطمأنينة إلى وجدانه، كأن الهموم التي اعترته بمنزلة الماء الذي بلل العصفور، فارتعش منه، وكأنه إذا نفّس قطر الماء عن جسمه عادت السكينة تسكن وجدانه، وعاد إلى استقراره .

وبات وصفهم للمرأة على هذا النحو واضحاً لدى معظم الشعراء، لينزعوا بذلك نزعة حسية، يقول عمرو بن الداهل يتغزل في أم عبد الله مشبهاً إياها بغزالة⁽³⁾: [الوافر]

وَمَا إِنْ أَحْوَرَ الْعَيْنَيْنِ رَخْصُ الدِّ عِظَامٍ تَرُودُهُ أُمُّ هَدُوجٍ
بِأَحْسَنَ مَقْلَةٍ مِنْهَا وَجِيداً غَدَاةَ الْحَجَرِ مَضَحَكُهَا بَلِيحُ

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 22 - 24 ؛ الخشف : الظبي أول مشبه ، العلاية : اسم موضع ، شادن : ظبية قوي لحمها منفردة عن القطيع ، توش البرير : تتناول وتأكّل ثمر الآراك ، نال اهتصارها : تجذبه ؛ مولة : ملونة ، الطرتان : حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن ، جنى أَيْكَةٍ : ما تجنيه وتقطّفه ، يصفو عليها قصارها : كل قصير من أغصان شجرة الأيك فهو سابغ لها سهل تناولها له ؛ به أبليت : بهذا الثمر اكتفت بالرطب عن الماء ، شهري ربيع : شهري ربيع الأول وربيع الآخرة ، مار فيها : جرى فيها نسوها وظهر سمنها وبدانتها ، الاقترار : نهاية وغاية السمن ؛ سود ماء المرد فاهها : أحال ماء ثمر البرير الغض فاه الظبية أسوداً ، كلون النور : جعله كلون دخان الشحم الذي يستخدم حين الوشم ، فهي أدماء : فالظبية بيضاء تعلو جدها غيرة .

(2) السّكري ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 957 .

(3) الهذليون ، م . س ، 3 / 98 - 99 ؛ رخص العظام : حديث العهد بالنتاج فعظامه رخصة لينة ، تروده : ترود حوله ، الهدوج : صوت فيه حنين ، وقيل : الهدوج : السير والمشي وهو الغزال ؛ المضحك : موضع الأسنان التي تبدو إذا ضحكت ، بليح : واضح .

وعندما وصفوا عين المحبوبة ضمن وصفهم المادي لحسن المرأة العربية، شبهوها بعين المهابة
اتساعاً وبياضاً، يقول أبو الحنان في قصيدته الغزلية اليتيمة (1) :

لَهَا عَيْنَا مَهَابَةٍ أَمْ طِفْلٍ وَجَيْدٌ أَحْمَمٌ مُخْتَلِسِ الْبُغَامِ
مِنَ الْبَيْضِ اللَّبَاخِيَّاتِ خَوْدٌ يَجُولُ وَشَاحُهَا جُمُ الْعِظَامِ

أما حلاوة حديثها فأشبهه بالعسل المخلوط بلبن الأبقار المنتج حديثاً، يقول أبو
ذؤيب (2) :

وَأِنْ حَدِيثًا مِنْكَ لَوْ تَبَذَّلِيْنَهُ جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عَوْذٍ مَطَافِلِ
مَطَافِلِ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نِتَاجُهَا تُشَابُ بِمَاءٍ مِثْلَ مَاءِ الْمَفَاصِلِ

ويغلب عند الهذليين الغزل العفيف، الحافل بالشكوى من الحبيب، والحزن على البين والبكاء
على الفراق والهجران، والصدود من الحبيبة. ورغم ذلك فقد بقي " الغزل الهذلي في طوره الجاهلي
والإسلامي يمثل لنا المرأة وجوهاً التي كانت تعيش فيه، كما يمثل أحوال العاطفة وتجاربها " (3).

ت. الحيوان في الفخر :

كان الهذلي يعتز بنفسه ويفتخر بذاته، فهو بفطرته ميال إلى التّعالي والمباهاة، شديد التطلع إلى
مآثر الأجداد والآباء. فلم يعتز الشاعر الهذلي بنفسه، وما اتصف به من شدة في القتال وسرعة في
العدو، وكرم ونخوة وشهامة فقط، بل حرص أيضاً على الإشادة بفضائل قبيلته، ورفع شأنها بين القبائل،
عبر الشعر الذي كان سجلاً للمفاخر والمآثر، يقول أبو ضب (4) :

وَلَقَدْ أَقْوَدُ الْجَيْشَ أَحْمِلُ رَأْيِي لِلْجَيْشِ يَفْقُدُهُمْ كَمِيٍّ أَصِيدُ
لَيْثٌ يَغَامِرُ لِلطَّعَانِ كَأَنَّمَا يَقُمُ الرَّجَالُ بِهِ فَنَيْقٌ مُبْدُ

فهو يفخر بنفسه، وبقيادته الجيش وتصدره كالحصان الذي يتقدم بصدرة المعركة، وحين النزال فإنه
يهاجم كالليث الذي يقاتل ولا يبالى بالنّائج، أو بالفحل الملبد حين نشاطه.

وجاء اقتحار الهذليين بقبيلتهم في غمار غزوهم لقبائل أخرى، وفي معرض وصف أسلحتهم
ورماحهم الكثيرة وشجاعة فرسانهم حين القتال، حتى كانوا مرهوبي الجانب لبأسهم وجراتهم، فكان الأعداء

(1) السّكري ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 897 ؛ اللبائية : الضخمة ، جم العظام : مغطاة بلحمها .
(2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 140 - 141 . أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 199 ؛ جنى النحل : العسل ، العوذ : حديثات النّاتج
من النّوق وواحدتها عائد ، مطافل : لها أولاد صغار وواحدتها مطفل ، يريد أن لين الأبقار أطيب ، تشاب : يخلط ، المفاصل : منقطع
السهل من الجبل .

(3) أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين ، 163 .

(4) السّكري ، م . س ، 2 / 704 ، الكمي : الحصان الأصيل ، ليث : أسد ، يقيم الرجال : يكسر الرجال ، فنيق : فحل ، ملبد : يضرب بذنبه
بوله فيتلبد على وركيه ، وإنما يفعل ذلك إذا هبّ .

يتقونهم كما تتقي الإبل البعير الأجر، فهم بذلك يحمون ضيوفهم ويوفرون لهم سبل الأمن والطمأنينة، يقول ساعدة بن جؤية (1):

[الكامل]

مُتَقَارِبٌ أَنْسَابُهُمْ وَأَعِزَّةٌ تُوقَى بِمِثْلِهِمُ الظُّلَامُ وَتُرْهَبُ
فَإِذَا تُحُومِي جَانِبَ يَرْعَوْنَهُ وَإِذَا يَجِيءُ نَذِيرُهُ لَمْ يَهْرُبُوا
بُذْخَاءُ كُلِّهِمْ إِذَا مَا نُوكِرُوا يُتَّقَى كَمَا يُتَّقَى الطَّلِيَّ الْأَجْرَبُ
ذُو سَوْرَةٍ يَحْمِي الْمُضَافَ وَيَحْتَمِي مَصِيعٌ يَكَادُ إِذَا يُسَاوِرُ يَكَلِّبُ

كما افتخروا بالكرم والشجاعة والحلم والجود وإقراء الضيف، فإذا نادى المنادي للمعركة كان ينبري لها فتیان هذيل الشجعان الذين كانت القبائل تحسب حسابهم في صولاتهم وجولاتهم، يقول إياس بن سهم (2):

[الكامل]

وَمِنَّا الَّذِي لَأَقَى الْفَوَارِسَ بِالْشَفَا هَزَبَ رَأً عَلَيْهِ جُنَّةُ الْمَوْتِ ضَيْغَمَا

وكانت الإبل محل اهتمامهم، يمتلكونها وينحرونها للضيوف إذا ما أمحل الناس في سني الجفاف والقحط، يقول أبو ذؤيب (3):

[الطويل]

فَإِنَّكَ لَوْ سَاءَلْتِ عَنَّا فَتُخْبِرِي إِذَا الْبُزْلُ رَاحَتْ لَا تَدُرُّ عِشَارُهَا
لَأَنْبِئْتُ أَنَا نَجَّتْ دِي الْفَضْلِ إِنَّمَا يُكَلِّفُهُ مَنَ النَّفْسُوسِ خِيَارُهَا
لَنَا صِرْمٌ يَنْحَرْنَ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ إِذَا مَا سَمَاءُ النَّاسِ قَلَّ قَطَارُهَا

فالشاعر يفخر بنحر الناقة العشاء، وهي من أعز الإبل عند العرب، وبعد ذبحها للضيوف غاية الكرم والجود، فالعرب تعدُّ لحم الإبل من أكرم اللحوم وأطيبها.

وتناول الشعراء الهذليون صورة الظليم والنعامة - فيما قدّموه - في سياق الفخر عندما شبه الشاعر نفسه بأحدهما في السرعة وشدة العدو، وهي صفة اشتهر بها الهذليون، يقول مالك بن خالد (4):

[البسيط]

وَاللَّهِ مَا هَفَلَةٌ حَصَّاءُ عَنْ لَهَا جَوْنُ السَّرَاةِ هَزَفَ لَحْمُهَا زِيمُ
كَانَتْ بِأَوْدِيَةِ مَحَلٍ فَجَادَ لَهَا مِنَ الرَّبِيعِ نِجَاءُ نَبْتُهُ دِيمُ
فَهِىَ شَنُونٌ قَدْ ابْتَلَتْ مَسَارِبُهَا غَيْرُ السَّحُوفِ وَلَكِنْ عَظُمَ زَهْمُ

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 184 ؛ تُحُومِي : تُرك وابتعد عنه، النذير : من ينذر بالشر ؛ بذخاء : عظام الشان ، إذا ما نكروا : من المناكرة والمقاتلة، الطلي: البعير؛ ذو سورة : يسور إذا قاتل ، المصع : المبارزة بالسيف.

(2) السُكْرِي، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 541 ؛ الشفا : أرض ، الهزير : الأسد، الضيغم: الشديد .

(3) الهذليون ، م . س ، 1 / 27 - 28 ؛ البزل : النوق في عمر الرضاعة ، نجتدي: نطلب، الصرم: قطع الإبل وهو ما بين العشرة والعشرين.

(4) الهذليون ، م . س ، 3 / 14 ؛ الهفلة : النعامة، حصاء: خالية من الريش، عنَّ لها : اعترضها ، هزف لحمها : خفيفة اللحم، زيم: مقطوع هنا وهنا ؛ نجا نبتة ديم: نبت سقي بماء مطر استمر أياماً ؛ شنون : متوسطة بين الهزال والسمنة، ابتلت مساربها: سرى الشحم في جوانب بطنها ، غير السحوف: لا يقشر عن متنها الشحم ، يقول : ابتدأ فيها السمن وليست بالسحوف، عظمها زهم : سمين فيه مخ ؛ يوم لا نية : يوم ليس فيه فتور ، فهجاهم وعيرهم بفرارهم ، فيقول : إنهم عدوا فتحركت لمهمهم وهم يعدون .

بِأَسْرَعِ الشَّدِّ مِنِّي يَوْمَ لَا نِيَّةٍ لَمَّا عَرَفْتُهُمْ وَاهْتَزَتِ اللَّمَمُ

إذ يؤكد الشاعر أن هربه من الأعداء ليس جبناً، ولكنه يرفض أن يقتل، أو يلقي الذل والهوان منهم - كما يلقي بكر الإبل من الفحول، أو كالكلب الذي لا يأكل إلا بعد أن يشبع الناس ثم يلقون إليه بالطعام - فيما لو وقع أسيراً بين أيديهم، وبالتالي تبكيه نساؤه، أو يلحق الأذى المادي والمعنوي به وبأهله وصغاره، فيقول (1) :

كَفْتُ ثُوبِي لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ إِنِّي شَنِتُّ الْفَتَى كَالْبَعْرِ يُخْتَطَمُ
وَقُلْتُ مَنْ يَثْقُفُوهُ تَبْكُ حَنَّتَهُ أَوْ يَأْسِرُوهُ يَجْعُ فِيهِمْ وَإِنْ طَعِمُوا

واتخذ ساعدة بن جؤية النعامة مثلاً في العدو، عندما افتخر بأخيه في عدوه وسرعته في هربه ممن يطلبه للقتل، فقال (2) :

فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا أَخُوهُمْ كَأَنَّهُ بَغَاذَةٌ فَتَخَاءَ الْجَنَاحِ لَحُومُ
يَخْفِضُ رِيْعَانَ السُّعَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا تَنَحَّى لِلنَّجَاءِ ظَلِيمُ

وجاءت صورة الذئب في سياق الفخر، عندما فاجأ الهذلي الذئب المختبئة في قُلل الجبال، أو عند مورد الماء الذي لا تصله إلا الذئب والسباع، يقول أبو كبير (3) :

وَلَقَدْ وَرَدَتْ الْمَاءَ لَمْ يَشْرَبْ بِهِ بَيْنَ الرَّبِيعِ إِلَى شُهُورِ الصَّيْفِ
إِلَّا عَوَاسِلُ كَالْمِرَاطِ مُعِيدَةٌ بِاللَّيْلِ مَوْرِدَ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفِ
يَنْسَلُنُ فِي طُرُقِ سَبَاسِبِ حَوْلُهُ كَقِدَاحِ نَبِلٍ مُحْبَرٍ لَمْ تُرْصَفِ

فصورة الشاعر متحركة نابضة بالحياة، دقيقة للغاية؛ عندما يفخر بشجاعته وتحديه الصعاب والمخاطر ومصاحبته السباع المتوحشة.

وأطال الشعراء الهذليون الصعاليك معايشة الحيوانات المفترسة والمتوحشة، وبرعوا في وصفها لشدة ملاحظتهم لها، كما تباهاوا بشدة عدوهم (4)، الذي ساعدهم في التغلب على الموت في الصحراء، حتى لا تأكلهم السباع والضباع، يقول الأعلم (5) :

فَأَكُونُ صَيْدَهُمْ بِهَا وَأَصِيرُ لِلضَّبْعِ السَّوَاغِبِ

(1) الهذليون، الديوان، 3 / 13؛ كفت ثوبي: شمرته، ألوي: أعطف وأنظر وأرجع، شنتت: أبغضت، البكر: صغير الإبل، يختطم: يذل ويؤسر، حنته: زوجته أو جاريتها.

(2) الهذليون، م. ن، 1 / 235؛ عادة: اسم موضع، فتخاء الجناح: لينة الجناح وهي صفة للعقاب، لحوم: أكثر أكله اللحم، فهو يقول: فاجأهم أخوهم بسرعة عدوه وانقضاضه فكان كالعقاب؛ يخفض: يتركهم ويخلفهم وراءه، ريعان السعاة: أوائل السعاة ومتقدمي مشاة الأعداء، انتحى للنجاء: توجه وانحرف للعدو والنجاة بالنفس، فهو في سرعته يخلف أعداءه خلفه، فإذا ما أراد النجاة بنفسه كان كالظليم سرعة وعدوا.

(3) الهذليون، م. ن، 2 / 105 - 106؛ العواسل: الذئب التي تضطرب في عدوها فتسير سيراً سريعاً وتهز رأسها، كالمِرَاطِ: كالنبيل المتمطرة الريش، المعيدة: المشبعة بالماء، الأيم المتغضف: الحية المنطوية المتثنية؛ ينسلن: يسرن، في طرق سباسب: في طرق مستوية ممتدة، كقِدَاحِ نَبِلٍ مُحْبَرٍ لم ترصف: طرق ممتدة كالسهام المستقيمة.

(4) ينظر: الهذليون، م. ن، 2 / 169.

(5) الهذليون، م. ن، 2 / 79 - 80؛ الضبع: جمع ضباع، السواغب: الجياح؛ جزراً: قطعاً، الطير المربة: الطيور المجتمعة الثابتة.

جَزْراً وَلِلطَّيْرِ الْمُرِيّاً ————— هـ وَالذَّنَّابِ وَلِلثَّعَالِبِ

والصورة تحكي قصة الفرع من الموت على أيدي الأعداء، وترتبط بترك الجسد للحيوانات الضارية، خاصة الضباع، ورغم ذلك فقد نجا الشاعر من أعدائه، الذين كانوا سيتركونه قتيلاً في الصحراء تنوشه جراء الضباع التي تبحث عن جيف الموتى .

والجدير ذكره أن الهذليين استمروا في الفخر بأشعارهم بعد دخولهم الإسلام، لكنه كان ضعيفاً لانقطاعهم عن الأيام والوقائع وإثارة العصبية، في حين بقي الفخر بقبيلة هذيل بعد الإسلام، وظلوا يعتزون بانتمائهم إليها، ويتعصبون لها، ويشيدون بقوتها وشجاعتها، وحسن مناقبها.

ث. الحيوان في الحماسة:

يُعد شعر الحماسة من أقوى الأشعار وأصدقها وأكثرها تأثيراً، لأنها تصدر عن واقع يعيشه الشاعر ويشارك فيه، فيصف الشاعر ما يجيش به من هواجس ومشاعر، وهو يخوض المعارك والقتال. وتعد قبيلة هذيل من أشهر القبائل في كثرة حروبها وأيامها، حتى نجد الأيام والمعارك كانت شغل القبيلة الشاغل فلا تكاد تنتهي من معركة حتى تخطط لأخرى، فكانت هذيل مهابة بين القبائل العربية، لما عرف عنها من جلد وشدة وإصرار على القتال، فكثر خصومها وأعداؤها من القبائل المجاورة .

وسجل الهذليون في أشعارهم انتصاراتهم وانجازاتهم، وما حققوه بالثأر لقتلاهم، ورثوا أبناءهم الذين قتلوا في المعارك، وتباهوا بقوتهم وبسالتهم واستماتتهم في القتال والدفاع عن شرفهم وقبيلتهم، كما صوروا أهوال القتال وما فيه من كر وفر، وما استخدم في المعركة من وسائل قتال: رماح وسيوف وسهام وتروس، فجاءت صور الحيوان في سياق وصفهم لسير المعركة، وما تخللها من قتال وإقبال، ومناورة وإدبار، مبرزين ذلك بصور خاطفة للخيل والإبل والأسد. ففرس الشاعر تحمل على أعدائه، وتصيح في الميدان، وترد الخيل إلى وسطه؛ كالفحل الذي يهدر بين قطيع الإبل، يقول ساعدة بن جؤية (1) :

وَشَرَجِبٍ نَحْرُهُ دَامٍ وَصَفَحَتْهُ
يَصِيحُ مِثْلَ صِيَاكِ النَّسْرِ مُنْتَحِمٍ
مُطَرَفٍ وَسَطَ أُولَى الْخَيْلِ مُعْتَكِرٍ
كَالْفَحْلِ قَرَقَرٍ وَسَطَ الْهَجْمَةِ الْقَطْمِ

فقدم الشاعر فرسه في صورة أسطورية، فهي خليط من النسر في صياحه وصوت أنفاسه، وكالفحل تفرقر مهتاجة مقبلة ومدبرة.

(1) الهذليون، الديوان ، 1 / 205 – 206 ؛ الشرجب : الطويل ، الانتحام : سبيه النفس من الصدر ، المطرف : الذي يرد أوائل الشيء، المعتكر : الذي يعتكر وسطها يقبل ويدبر ، القرقرة : الهدر ، الهجمة : القطعة من الإبل ، القطم : الصئول والمحتاج .

كما وصف الهذليون ما حل بأعدائهم من ذلة وهزيمة، بعد أن تأثروا لقتلهم، وسبوا النساء واستولوا على الإبل البيضاء في سياق الحديث عن أيامهم، يقول ساعدة (1): [الطويل]

أَبَانَا بِيَوْمِ الْعَرْجِ يَوْمًا بِمِثْلِهِ غَدَاةَ غَزَالٍ بِالْخَلِيطِ الْمَزِيلِ
فَقْتَلْنَا بِقَتْلَانَا وَسُقْنَا بِسَبِينَا نَاءً وَجُنْنَا بِالْهَجَانِ الْمُرْعِلِ

فعرف عن بعضهم؛ أنهم كانوا إذا عرفوا قاتلاً لأحد أبناء القبيلة لا ينفكون عنه حتى يقتلونه انتقاماً وتأثراً لقتلهم. ويقول أبو ضب (2): [الكامل]

وَلَقَدْ أَقَوْدُ الْجَيْشَ أَحْمِلُ رَايَتِي لِلجَيْشِ يَقْدِمُهُمْ كَمِيٍّ أَصِيدُ
لَيْثٌ يُغَامِرُ لِلطَّعَانِ كَأَنَّمَا يَقُمُ الرَّجَالُ بِهِ فَنِيْقُ مُبْدُ

فالهذليون لا يخشون الخطوب، ولا يبالون بالتهديد ولا الوعيد، ويردون على المعتدين الصاع صاعين، ففي غمرة الأيام كانت صورة الحيوانات تبقى ماثلة أمامهم، فاستخدموها في حربهم الإعلامية ضد القبائل المجاورة، فيهددونهم بإنزال الهزائم المتتالية بهم، يقول خالد بن مالك الخناعي (3):

[الطويل]

مَتَى تَنْزِعُوا مِنْ بَطْنٍ لِيَّةٍ تُصْبِحُوا بِقَرْنٍ وَلَمْ يَضْمُرْ لَكُمْ بَطْنٌ مُحَرِّ
فَلَا تَتَهَدَّدْنَا بِقَحْمِكَ إِنَّمَا مَتَى تَأْتِنَا نُنْزِلُكَ عَنْهُ وَيُعْقَرُ

كما حرصت المرأة الهذلية على القتال، والتأثر للقتلى، فعددت مناقبهم، ووصفتهم بالرجولة والبأس، لتحفز المقاتلين على طلب الثأر وعدم الركون إلى الدعة، تقول جنوب راثية أخاها (4):

[البسيط]

الطَّاعِنُ الطَّغْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتْبَعُهَا مُتَعَنِّجٌ مِنْ دِمَاءِ الْجَوْفِ أُتْعَوُ
تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَّةٌ مَشْيَ الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ

فلم يخل شعر الهذليين في الحماسة من صورة الحيوان التي أضفت جمالاً على صور المعركة، أو قوة عندما أشارت إلى تصميم الهذليين على القتال والنصر والنيل من الأعداء، لكنهم استخدموا عدداً محدوداً من الحيوانات التي عرف عنها مشاركتها العربي في قتاله، مثل الخيل والإبل، أو الحيوانات التي تدل على القوة والإرادة مثل الأسد والنسر، وبعض الحيوانات الأخرى التي جاءت في سياق شعر الحماسة دون أن يقفوا عندها كثيراً في أشعارهم.

(1) (السُّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 518 ؛ أباناً : كافأنا غزال : ثنية عسفان (اسم موضع) ، المزيل : المفرق ؛ الهجان : الإبل البيض الكرام، المرعل : مشقوقة الأذان وهي الإبل الخيار السمان ذوات الأسنمة .

(2) (السُّكْرِي ، م . ن ، 2 / 704 ؛ الفنيق : الفحل ، ملبد : يضرب بذنبه بوله فيتلبد على وركيه ، وإنما يفعل ذلك إذا هب .

(3) (الهذليون ، الديوان ، 3 / 7 ؛ متى تنزعوا : متى تخرجوا، المحمر : البغل ، القحم : الفرس المسن .

(4) (الهذليون ، م . ن ، 3 / 125 ؛ النجلاء : الواسعة، المتعنجر : السائل الذي يتصبب، النجيع : الدم ، ينتعب : ينسكب؛ لاهية : آمنة، فالنسور بعد موته أصبحت لا تفرق منه .

ج. الحيوان في المدح :

لم يرتفع الشعراء الهذليون في مدحهم إلى المستوى الذي وصل إليه رثاؤهم ووصفهم للحيوان، فالشاعر الهذلي لم يعرف عنه المبالغة والنفاق، ولعل ما يدل على ذلك أنه " في العصر الجاهلي لم يكن شاعر بلاط، ولم يكن كالنابغة ولا الأعشى ولا حسّان ولا أي شاعر اعتاد أن يطرق أبواب المناذرة والغساسنة وإنما كان شاعراً معترّاً بذاته عندما تكون " أنا " فقط أو عندما تكون " أنا وقبيلتي " (1) .

وعندما يصف الهذلي ممدوحه بالكرم ، تراه يصف البيئة الإقتصادية الصعبة المحيطة به، من قحط وجذب، وزهد الإبل في لبنها، وضعف ظهورها وبروز ضلوعها، ورغم ذلك فإنه لا يمتنع عن حماية المضاف وإقراءه وإكرامه، وكأنّه يقول " وَيُؤَثَّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

[الكامل]

خَصَاصَةٌ " (2) ، يقول قيس بن عيزارة (3) :

وَإِذَا تَرَوَّحْتَ اللَّقَاحَ عَشِيَّةً حُدْبَ الظُّهُورِ وَدَرَهْنَ زَهِيدُ
فَحَبْسَنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيعِ وَكُلَّهَا حُدْبَاءَ بَادِيَةِ الضُّلُوعِ حَرُودُ
أَلْفَيْتَهُ يَحْمِي الْمُضَافَ كَأَنَّهُ صَبَحَاءُ تَحْمِي شِبْلَهَا وَتَحِيدُ

وفي صورة مخالفة للمألوف، يمدح ساعدة بن جؤية بني قومه في شجاعتهم وبطولتهم وإكرامهم ضيفهم، حتى إنّ الواحد منهم كالبعير الأجرى المطلي بالقار الذي تتقيه بقية الإبل، فيقول (4) :

[الكامل]

بُذْخَاءُ كُلُّهُمْ إِذَا مَا نُوكِرُوا يُنْقَى كَمَا يُنْقَى الطَّلِي الْأَجْرُبُ
ذُو سَـوْرَةٍ يَحْمِي الْمُضَافَ وَيَحْتَمِي مَصْـصَعٌ يَكَادُ إِذَا يُسَاوِرُ يَكَلْبُ

فقوم الشّاعر يتصفون بالكرم والعزة وحماية المضاف، فإذا شمريت الحرب عن ساقها، فهم شجعان يدفعون الضيم ويحمون الحمى، ويهبون للقاء الأعداء سراعاً .

ومدح أبو ذؤيب ابن عمه، فوصفه بالشّجاعة والإقدام، وحسن البلاء حين النّزال، وشدة الضرب والطعن في ساح الوغى، فيقول (5) :

[الطويل]

ضَرُوبٌ لَهَا مَاتِ الرِّجَالِ بِسَيْفِهِ إِذَا عُجِمَتْ وَسَطَ الشُّؤُونِ شِفَارُهَا

(1) أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين ، ص 164 .

(2) سورة الحشر : 9 / 59 .

(3) الهذليون ، الديوان ، 3 / 73 - 74 ؛ تروحت اللقاح : عادت الإبل عشية ، درهن زهيد : لبنهن قليل ، حبس : مئس ، الضريع : اللبن ، حرود : لا تكاد تدر ، الصباحاء : اللبوة تضرب البياض والحمرة .

(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 184 ؛ تحومي : ترك ، النذير : من ينذر بالشر ؛ بذخاء : عظماء الشأن ، إذا ما نكروا : من المناكرة والمقاتلة ، الطلي : البعير ؛ ذو سورة : يسور إذا قاتل ، المصع : المبارزة بالسيف .

(5) الهذليون ، م . ن ، 1 / 30 ؛ عجمت : أصل العجم العض وروي أعجمت أعضت ، الشؤون : أصل قبائل الرأس ، الشغار جمع شفرة وهي حد السيف ؛ يقض : يكسر ، البيض : الخوذة الحديدية التي تلبس فوق الرأس حين الحرب ، وطعن كركض : يعني الدّم ينضح كأنه وقع الخيل في دفعه بارجلها ، يفلي : يطرد وينحي ويبعد مهره ، فهو يصف الضرب بأنه شديد يكسر البيض الذي على رؤوس المحاربين .

بَضْرِبٍ يَقْضُ الْبَيْضَ شِدَّةً وَقَعِهِ وَطَعْنٍ كَرَكُضِ الْخَيْلِ تُفْلِي مَهَارَهَا

فالربط بين شدة طعن الأعداء وقتلهم، تساوي شدة غيرة الخيل على صغارها ودفع الأذى عنهم، فهو يشبه حركة نضح الدم وتدفقه السريع بركض الأفراس التي فصلت عنها أولادها، فهي تذب عنها بأرجلها وتدفع من أراد فصلها عنها، فصورة الخيل الأصيلية وهي تحمي مهرها إنما تؤكد على طبيعة علاقة الأمومة وما يعترئها من مشاعر وأحاسيس يمكن أن تتسحب على الإنسان.

ومدح ساعدة بن جؤية الولد الذي أنجبته أمه على يأس، عندما شاغل أعداءه، فلما صاروا هدفاً له رماهم بنباله، فخرقت قلوبهم فوقوا صرعى كبدن إياد. فمدحه بقدرته على التملص من أعدائه على الرغم من كثرتهم، ثم إيقاع الموت فيهم وهو الصغير الوحيد الضعيف، يقول⁽¹⁾:

[الطويل]

يُزَجِرْهُمْ عَنْهُ بِنَبْلِ سَنِينَةٍ يُضِرُّ بِحَبَاتِ الْقُلُوبِ حَشُورَهَا
فَلَمَّا رَأَهُمْ يَرْكَبُونَ صُدُورَهُمْ كَبَدْنِ إِيَادٍ يَوْمَ ثَجَّتْ نُحُورَهَا
تَمَلَّرَ مِنْ تَحْتِ الظُّبَاتِ كَأَنَّهُ رَدَاةٌ إِذَا تَعَلَّوْا الْخَبَارَ نُدُورَهَا

لم يكثر الهذليون مدح غيرهم، وإن مدحوا غير الهذليين فإنهم لا يبالغون فيه، ويجنحون إلى جانب الحق والصواب، فيذكرون ما يتصف به من الشيم الحقيقية، ولا يغرقون في المدح، يقول مالك بن خالد مادحاً سيد بني لحيان⁽²⁾:

[الوافر]

فَتَى مَا ابْنُ الْأَغَرِّ إِذَا شَتَوْنَا وَحُبُّ الزَّادِ فِي شَهْرِي قِمَاحٍ
وَصَبَاحٌ وَمَنَاحٌ وَمَغْطٍ إِذَا عَادَ الْمَسَارِحُ كَالسَّبَاحِ
وَجَزَالٌ لِمَوْلَاهُ إِذَا مَا أَتَاهُ عَائِلًا قَرَعَ الْمَرَّاحِ

فالشاعر يصف ممدوحه بالكرم والتجدة والنخوة، وأن كرمه يتجلى في أشد شهور السنة برداً، وبمنح من يأتيه طالباً الغوث قطعة من إبله ليشرب ألبانها وينتفع من وبرها، حتى إذا قلّ لبنها ردّها إليه.

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 217 ؛ يزجرحهم : ينحيهم عن نفسه، بنبل سنيينة: محدودة، حبات القلوب: جمع حبة وهي علفة جامدة سوداء في القلب، حشورها: حديدتها أي ألطف الريش وحددت أذانه أو أطرافه. يركبون صدورهم : يقعون عليها ، البدن : الإبل، ثجت: أسبلت دماؤها ؛ تملز : نجا وأفلت، الظبة: حد السيف، الرادة : الصخرة، ندور : أعلى الجبل ، الخبر: الأرض الرخوة .
(2) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 451 ، فتى ابن الأغر : الممدوح وهو زهير بن الأغر ، شهرا قماح : أشد شهرين برداً في الشتاء إذ لا تشرب الإبل فيهما، صباح : يسقي الصبوح ، مناح : يمنح الغنيمة، معط : يعطي إبلًا وغنماً ينتفع بها لسنة ثم ترد ، المسارح: حيث تسرح الإبل وترعى ، السباح : مفردها سبحة وهي جبة من الأدم توضع على الدابة لحمايتها من البرد، فالمسارح جرداء لا نبت فيها ، جزال : يقطع من ماله ويعطيه الآخرين، العائل : الفقر، قرع : خال من أي شيء ، المراح : حيث يريح إبله.

ح. الحيوان في الهجاء:

يرتبط الهجاء بالحروب، بل يتقدمها توطئة لها، عبر الانتقال من قيمة الخصوم، والنيل منهم وكشف معائبهم وعوراتهم، ولما كانت هذيل مشهورة بأيامها وحروبها الكثيرة، فقد أكثر الشعراء الهذليون من وصف خصومهم بالغدر والخيانة واللؤم والبخل والتقاعس عن الدفاع عن القبيلة ونسائها. وامتاز الشعراء الهذليون بأنهم " كانوا يقتصدون في الإقذاع، ولا يسرفون في السب وذكر المثالب، وكانوا يقفون دائماً عند الصفات المذمومة، كالbخل والجبن، والغدر، والخيانة وعدم الوفاء، من غير أن نرى نبؤاً أو إقذاعاً أو إفحاشاً في القول، اللهم في حالات قليلة نادرة نرى فيها بعض الشعراء ينحدرون نحو الإفحاش والإقذاع " (1)، يقول ساعدة (2) :

إِذَا مَهَرْتُ صُلْبًا قَلِيلًا عِرَاقَهُ (3) تَقُولُ أَلَا أَرْضَيْتَنِي فَتَقَرَّبْ
مُصْنَعٌ أَعْلَى الْحَاجِبِينَ مُسَبِّلٌ لَهُ وَيَرُ كَأَنَّهُ صُوفٌ تَغْلَبُ

ففي البيت الأول دلالة على غلظة المرأة وطلبها الشهوة، إذ هي لا تعرف الاحتشام، والخجل عندها مفقود، وهذه الصورة المهينة أرادها ساعدة لكل نساء بني الدَّيْل، بعد أن أطلقها على المرأة المهجوة، فساعدة كان مقذعاً في هجائه، ولم يحسب حساباً للقيم والتقاليد حينما هجا المرأة، ولم يتوان عن ذكر الصفات التي تمس كرامتها (4). ويهجو قيس بن عيزارة رجلاً محقراً له عندما عاب عليه صغر حجمه، الذي يشبه أير الذئب في صغره، فيقول (5):

أَثَابْتُ أَيْرَ الذَّئْبِ فِيمَ هَجَوْتَنِي وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ إِنِّي لَشَانِعُ

وعندما هجا الهذليون، وصفوا مهجوبيهم بالجشع والغدر، فاستخدموا صورة الذئب (6) بما عرف به من الغدر والخيانة. واستخدموا صورة الغراب، لما يضفيه على المشهد من شؤم ومصير غير معروف، فيقول أبو المورق (7):

وَكُنْتُ إِذَا سَلَخْتُ نِجَادَ أَرْضٍ رَأَيْتُ عَلَى مَرَاقِبِهَا الذَّئَابَا
إِذَا نَزَلْتُ بَنُو لَيْثٍ عَظَاظَا رَأَيْتُ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الْغُرَابَا

(1) إسماعيل الننتشة، أشعار هذيل، 2 / 167 .
(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، 3 / 1151، مهتر: زوجت، عراقه: كناية عن متاع الرجل، مصنّع أعلى الحاجبين مسبل له وير كأنه صوف تغلب: صفات لمتاع المرأة.
(3) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: مهر.
(4) ينظر: ميساء قتلان، شعر ساعدة بن جوية، ص 174.
(5) السكري، م. س، 2 / 596، أير الذئب: تحقيراً له لصغر حجمه، الشانع: المشهور.
(6) ينظر: السكري، م. س، 3 / 1150.
(7) السكري، م. س، 2 / 779، النجاد: الأرض الغليظة، مراقبها: مرتفعات يقف فوقها الحراس، بنو ليث: من كنانة، على رؤوسهم الغراب: لشدة سكونهم لذلمهم وخزيهم من غدرهم.

فبنو ليث يسبّرون في أرض عكاظ أدلة كأن على رؤوسهم الطير، وقد ركبهم عار الغدر لفداحة ما فعلوه من غدر وخيانة . كما وصف الهذليون الفارين من المواجهة في الحرب؛ وشبهوهم بصغار النعام ممعطة الريش، وهي تفر مسرعة، يقول المتنخل⁽¹⁾ :

لَا يَنْسَا اللَّهَ مِنَّا مَعْشَرًا شَهِدُوا يَوْمَ الْأَمِيلِ لَا غَابُوا وَلَا جَرَحُوا
كَانُوا نَعَائِمَ حَفَّانٍ مُنْفَرَّةً مَغْطَ الْخُلُوقِ إِذَا مَا أُدْرِكُوا طَفَحُوا

وعاب الهذليون على بعض الضعفاء عدم قدرتهم على مواجهة مصائب الدنيا، فتراهم يشدهون لها، ولا يحسنون تصرفاً أو سلوكاً، فيشبههم أبو بثينة الصاهلي بالبقر الفاعرة أفواهاها، لعجزهم وضعفهم، فيقول هاجياً سارية بن الزنيم⁽²⁾ :

وَأَوْفَى وَسَطَ قَرْنٍ كُرَاشٍ دَاعٍ فَجَاءُوا مِثْلَ أَفْوَاهِ الْحَسِيلِ

فالمهجو لا يملك القدرة على مواجهة نوائب الحياة، فتراه يهرب منها نجاة بنفسه الضعيفة، وإذا ما اختبر قوم المهجو في ابتلاء، فهم أشبه بالبقر الفاجر أفواهاها لما أصيب به من عطش وتعب. أما مساعدة بن جؤية فقد استخدم جلسة الذئب هاجياً امرأة من بني الدئل، فيقول⁽³⁾ : [الطويل]

إِذَا جَلَسْتُ فِي الدَّارِ يَوْمًا تَأْبَضْتُ تَأْبُضَ ذَنْبِ التَّلْعَةِ الْمُتَصَوِّبِ

ولما كان الذئب يتصف بالغدر الشديد، الذي يشتد كلما تصوب جسمه، فلا يعرف سوى القتل والإيذاء، فجاءت صورته منسجمة في هذا السياق مع المرأة المهجوة، التي جاءت تقدم المثل الحقيقي للذئب المتصوب، فجلسة المرأة تدل على غدرها وخيانتها.

ومن الصفات التي ذمتها هذيل عدم إجارة المستجير، أو العجز عن تقديم الحماية والمساعدة له، وكانت هذه الشيمة تثير غضب الهذليين مثلهم مثل القبائل العربية، فهجا الشعراء الهذليون كل من قصر أو تقاعس عن القيام بدوره، يقول أبو خراش⁽⁴⁾ :

كَأَنَّ الْغُلَامَ الْحَنْظَلِيَّ أَجَارَهُ عُمَانِيَّةٌ قَدْ عَمَّ مَفَرَقُهَا الْقَمْلُ
أَبَاتَ عَلَى مِقْرَاكَ ثُمَّ قَتَلْتَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ ذَاكَ جَدُّ بَكِ الثُّكُلِ

فيستهجن الشاعر ما قام به غاسل بن قميئة عندما غدر بمن استجار به، وأكل من قصعته التي يقري بها ضيوفه، فلم يجد إلا أن يشبهه بإمرأة عمانية امتلأ رأسها بالقمل، وفي ذلك هجاء فاحش عندما شبهه بها، وما آلت إليه من مذمة وتحقير وإزدراء وقد انتشر القمل في مفرق رأسها.

(1) الهذليون ، الديوان ، 31 / 2 ، لا ينسا الله : لا يؤخر الله آجالهم بمعنى لا أطال الله في أعمارهم ، النعائم الحفان : صغار النعام ، منفرة : خائفة جزعة، معط الخلق: تمعطت من الريش فلا ريش عليها.

(2) السُّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 731 / 2 – 732 ؛ أوفى : أشرف ، كراش : حيل ، الحسيل : البقر.

(3) السُّكْرِي ، م . ن ، 3 / 1150 ؛ تأبضت : جعلت يديها من تحت ركبتيها من خلفها ثم احتملتها (ينظر : لسان العرب ، مادة أبض) ، تأبض ذئب التلعة : تجلس جلسة الذئب إذا أفعى وإذا تأبض على التلعة رأبته مُنْكَبًا ، التلعة : مسيل الماء في الجبل وهو يشبه الشعب يأوي إليه الذئب (ينظر : لسان العرب ، مادة تلغ) ، المتصوب: المنكب والهابط .

(4) الهذليون ، م . س ، 2 / 164 ، الغلام الحنظلي: غلام من بني تميم استجار بغاسل بن قميئة، المقرئ أو المقرأة : القصعة يقري بها الضيف ، ذاك جد بك الثكل : هذا الفعل أحل بك الخزي والخسارة .

خ . الحيوان في الحنين:

إنَّ البُعدَ عن الأوطان والأهل والأحبة من أكثر الأسباب التي دفعت الشعراء الهذليين إلى أن يبوحوا بحنينهم وأشواقهم لهم عبر شعرهم الذي وجدوا من خلاله متنفساً، ومنبراً للتعبير عن مشاعرهم الصادقة الفياضة تجاه من يحبونهم ويشتاقون لهم، فوجدوا في الحمام - وصوته الحزين الشجي - السَّلوَى لهم، وهم يستذكرون اللحظات الجميلة بين أهليهم ومحبيهم، يقول أبو كبير الهذلي (1) :

[الطويل]

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَ الْفُكَّ حَاضِرٌ وَغَضُنْكَ مِيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ
أَفِقْ لَا تَنْخُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، فَإِنِّي بَكَيْتُ زَمَانًا وَالْفُؤَادُ صَحِيحُ
وَلَوْعًا فَشَطَّتْ غُرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ فَهَا أَنَا أَبْكِي وَالْفُؤَادُ قَرِيحُ

ووجد الشعراء في الإبل تعبيراً عن عاطفة الحنين والشوق، وهي التي تحملهم بعيداً عن وطنهم، وتسليهم وتخفف عنهم مشاق الرحلة والغربة، يقول أبو خراش (2) :

[الطويل]

لَقَدْ عَلِمْتُ أُمَّ الْأَدْيِيرِ أَنَّنِي أَقُولُ لَهَا هَدْيٌ وَلَا تَذْخِرِي لَحْمِي
فَإِنَّ غَدًا إِنَّ لَا نَجْدَ بَعْضُ زَادِنَا نَفِيٌّ لَكَ زَادًا أَوْ نَعْدُكَ بِالْأَزْمِ
إِذَا هِيَ حَنَّتْ لِلْهَوَى حَنَّ جَوْفُهَا كَجَوْفِ الْبَعِيرِ قَلْبُهَا غَيْرُ ذِي عَزْمِ

إن حالة " أم الأديير " الضائقة بحياتها، المتمنية العودة لوطنها، ظناً منها أنها ستلقى هناك العيش الرغيد، فيزداد حنينها إلى أهلها كلما اشتد بها الفقر والضنك. أشبه بحال البعير الذي يحن لوطنه فتراه يصدر من جوفه صوتاً مميزاً يعرف من خلاله شوقه للديار، فالقاسم بينهما الشوق والحنين للديار التي يجد كلاهما فيها ما يخفف عنهما وطأة البعد والسفر وسوء الحال.

وجاءت صورة الإبل وهي تسرع الخطو عائدة إلى وطنها لتبرز بوضوح كثرة الأسفار والغربة التي أسفرت عن شدة الشوق والحنين لدى الهذلي لقبيلته، يقول أبو قلابة الهذلي (3) :

وَمِنَّا عُصْبَةٌ أُخْرَى سِرَاعٌ زَفَتْهَا الرِّيحُ كَالسَّنَنِ الطَّرَابِ

فيشبه الشاعر بني قومه الذين آثروا العودة والتراجع إلى قبيلتهم شوقاً لها وحفاظاً عليها بسرعة الإبل التي تطرب لوطنها، فجمع الشاعر في صورة واحدة مشهدين، عندما قدم صورة الإبل التي ألحت في العدو مسرعة الخطى نحو موطنها شوقاً إليه، وبين فتیان هذيل الذين آثروا التفقه على المواجهة فعادوا مسرعين، فهم بحنينهم لقبيلتهم وحرصهم على حمايتها أسرع من الإبل التي تحن لموطنها.

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 5 / 2138 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 125 - 126 ؛ هدي: أقسمي هديتك وما عندك ولا تذخري ، نفيء زاداً : أي نفيء عليك فيئاً، نعدك: نصرحك بإمساك الفم ، الأزم : امساك الفم عن الطعام ، قلبها غير ذي عزم : أي هي غير ساكنة .

(3) الهذليون ، م . ن ، 3 / 55 ؛ سراع: سريعو العدو ، زفتها : استخففتها ، السنن الطراب : الإبل المشتاقة لموطنها .

واتخذ الإنسان الهذلي من الإبل مثلاً للصبر والاحتمال على ألم الفراق وتقلبات الحياة، فالإبل هي أكثر الحيوانات صبراً وقدرة على احتمال الرّحيل، يقول أبو ذؤيب⁽¹⁾:
[المتقارب]

كَعُودِ الْمُعْطَفِ أَحْزَى لَهَا بِمَصْدَرِ الْمَاءِ رَأْمٌ رَذِيٌّ
فَهِنَّ عُكُوفٌ كَنُوحِ الْكَرِي مِ قَدْ لَاحَ أَكْبَادَهُنَّ الْهَوَى

فالشاعر وهو يشكو الفراق والغربة، ويبث حنينه، رسم صورة تعتمد في تشكيلها على الأتافي التي باتت جزءاً من وجدان الشاعر تذكره بالديار، التي درست معالمها فلم يبق سوى الوجد الأشعث الذي رمز الشاعر به إلى نفسه، وهو الثابت في الأتافي والأطلال الذي يرفض الرّحيل.

وحينما يشتاق الظليم إلى رثاله، بعد طول انقطاع عنها، تغزوه مشاعر الشوق والحنين الأبوية لصغاره، فنراه يعود مسرعاً يسابق الريح لا يهاب ظلمة، ولا يخشي على نفسه ضعف قوائمه الفارغة الجوفاء، لا يلوي على شيء، فهو أشبه بحال حبيب الأعم الذي أطلق لساقيه العنان فراراً، فبدا كأنه ظليم يعدو وتخفق جناحاه كريط تضربه ريح الجنوب، فيقول⁽²⁾:
[الوافر]

كَأَنَّ مُلَاعَتِي عَلَى هِزْفٍ يَعْنُ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرَّئَالِ
عَلَى حَتِّ الْبُرَايَةِ زَمْخَرِي السَّ وَاعِدِ ظَلٍّ فِي شَرْيِ طِوَالِ
هِزْفٍ أَصْنَفِ السَّاقَيْنِ هَقْلٍ يُبَادِرُ بَيْضَهُ بَرْدَ الشَّمَالِ
أَحْسَ ضَبَابَةً وَعَمَاءَ لَيْلٍ يُبَادِرُ غَوْلَ وَادٍ أَوْ رِمَالِ
كَأَنَّ جَنَاحَهُ خَفَقَانُ رِيحٍ يَمَانِيَّةٍ بِرِيْطٍ غَيْرِ بَالِي

فمشاعر الشوق والحنين لدى الهذليين وخاصة الصّاعليّك منهم كانت صادقة من جهة، ونابعة من بعدهم عن وطنهم وقبيلتهم التي درجوا فيها، فعبروا عنها في شعرهم من خلال حيوانات عرفت بحنينها وشوقها إلى ديارها وصغارها.

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 66 - 67 ؛ العود من الإبل: الحديثات العهد بالنتاج، المعطف: الذي يعطف ثلاث أبنق على ولد حتى يدرن عليه، أحزى لها: أشرف لها، رأم: ولد، ولد رذي: ملقى ضعيف؛ لاح أكبادهن الهوى: أهلك الحزن أكبادهن .

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 84 ؛ الهزف: الظليم السريع، يعن: يعترض، الرئال: فراخ النعام، الحت: السريع، والشري: شجر غليظ تتخذ منها العصي، البراية: القدرة على السير، السواعد: مجاري مخه في العظم، الزمخري: الأجوف؛ هزف: سريع، أصنف الساقين: سيقانه متقشرة، هقل: من أسماء النعام، يبادر بيضه برد الشمال: بقي بيضه برد الشمال، أحس ضبابية: رأى ضبابية، عماء ليل: غيمة سوداء مرتفعة يبادر غول واد: يقطع واد؛ الريح اليمانية: ريح الجنوب، ريط غير بالي: ملاحف وثوب جديد .

د . الحيوان في الحكمة :

تهدف الحكمة إلى تقديم النصح والإرشاد والموعظة، وتأتي تعبيراً عن تجربة ذاتية وعن طول تأمل وتبصر بأمور الحياة وبما يحيط بالإنسان من حيوان ونبات.

ولأن حياة الإنسان الهذلي فيها الخير والشر، وكان يصطدم دائماً بالموت، ويعيش وسط غيره من المخلوقات من نبات وحيوان، فلا بد له من الإحساس واليأس والخوف والجبن والشجاعة والحب، وبغيرها من الانفعالات التي تتناوب في تسييره، وهنا يأتي دور الحكمة التي تظهر فجأة أمام عينه فتحذره من الخيانة، وتحضه على التسامح وتقوي عزيمته وتسري عنه، وتعزیه من مصائب الدنيا وتنهاه عن جنبه، وتعزز إيمانه بحتمية الموت .

وقد زخر الشعر الهذلي بالحكم المستمدة من حياتهم ومما شاهدوه في الطبيعة المحيطة بهم، فوظف الهذليون ذلك في شعرهم وقدموه بهدف التخفيف من المصائب والأهوال التي لحقت بهم والتأسي بغيرهم من البشر والحيوانات، وأخذ العبرة والعظة لتصحيح قناعاتهم وسلوكيات حياتهم، والرضى بالقضاء والقدر، يقول خالد بن زهير (1) :

[الطويل]

فَلَا تَكُ كَالثَّوْرِ الَّذِي دُفِنَتْ لَهُ حَدِيدَةٌ حَتْفٍ ثُمَّ ظَلَّ يُثِيرُهَا

فينصح الشاعر خاله أبي ذؤيب ويدعوه ألا يثير قصة علاقته بأمر عمرو، وإلا حل به ما حل بالثور الذي ظل يثير الأرض حتى برزت أداة قتله (2). ويستمر الشاعر في تقديم النصح والإرشاد، فيقول (3) :

[الطويل]

وَلَا تَبْعَثِ الْأَفْعَى تُدَاوِرُ رَأْسَهَا وَدَعَهَا إِذَا مَا غَيَّبَتْهَا سَفَاثُهَا

[الطويل]

فيجيب أبو ذؤيب خالداً يريد الصلح بينه وبين معقل بن خويلد (4) :

فَلَا تُتْبِعِ الْأَفْعَى يَدَيْكَ تَنُوشُهَا وَدَعَهَا إِذَا مَا غَيَّبَتْهَا سَفَاثُهَا

وَأَطْفِئِ وَلَا تُوقِدْ وَلَا تَكُ مِحْضاً لِنَارِ الْعُدَاةِ أَنْ تَطِيرَ شَكَاتُهَا

إنَّ الحوار الذي جرى بين أبي ذؤيب وخالد بن زهير، وهما يستخدمان صورة الحيوان يحمل في طياته الحكمة والنصيحة، فجاءت صورة الحيوان في سياق منسجم مع الحالة التي جمعت الشعارين عندما استخدمتا صورتَي الثور والحية في كشف المستور وتحريك مكان النفس بما يؤلب القلوب ويجعلها تحمل الضغائن والدفائن.

(1) الهذليون ، الديوان ، 158 / 1 .

(2) ينظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، 1 / 306 .

(3) الهذليون ، م . س ، 1 / 162 ؛ لا تبعث : لا تترك ، السفاة : التراب .

(4) الهذليون ، م . س ، 1 / 163 ؛ المحضاً : العود الذي تقدح به النار .

وعندما ينفر الهذليون من الجشع والطمع، لم يجدوا سوى قصة العقاب التي جرّها طمعها إلى حتفها، وجعل صغارها أيتاماً بعد أن كانوا يرفلون بأثواب النعيم وقد أحاط بها الطعام من كل جانب، فالطمع يضر صاحبه، والقناعة كنز لا يفنى، يقول صخر الغي⁽¹⁾ : [الطويل]

فَمَرَّتْ عَلَى رَيْدٍ فَأَعْنَتَ بَعْضَهَا فَخَرَّتْ عَلَى الرَّجُلَيْنِ أَخْيَبَ خَائِبٍ
فلم تكتف العقاب بما قسمه الله لها وكان فيه كفايتها، بل راحت تطارد صيداً آخر فاصطدمت بصخور الأرض فتكسرت أجنحتها وماتت.

أما الذين لا يسمعون النَّصَح ولا يستفيدون من تجارب غيرهم، ولا يطيعون أولي الأمر، فهم أشبه بالنَّعام الشَّارد، يقول أسامة بن الحارث⁽²⁾ : [مجزوء الكامل]

وَأْمَهَلْتُ فِي إِخْوَانِهِ فَكَأَنَّمَا يُسَمِّعُ بِالنَّهْيِ النَّعَامَ الشَّوَارِدُ
فكأنَّ الشَّاعر يريد أن يقول: لا حياة لمن ينادي، فكأنما أسمعت النَّهي الذي نهيتُ به نعاماً شارداً⁽³⁾، إذ إنَّ النَّعام موصوف بأنه لا يسمع.

وفي سياق نصح أبي العيال لبدر بن عامر يحذره من التَّعامل مع الذين يبتغون السَّم الخبيث ويظهرون اللِّين والدَّسم، وإلا حلَّ به ما حلَّ بالنَّعامة التي لم تُصنع للنَّصح، فيقول⁽⁴⁾ :

[الكامل]

أَوْ كَالنَّعَامَةِ إِذْ غَدَتَ مِنْ بَيْتِهَا لِيُصَاغَ قَرْنَاهَا بِغَيْرِ أَذِينِ
فاجتثت الأذنَّانِ مِنْهَا فانتَهتَ صِلْمَاءَ لَيْسَتِ مِنْ ذَوَاتِ قُرُونِ

فالحكمة والعبرة في خاتمة الذي لا يحسن استخدام النَّصيحة ولا يطيع ذوي الخبرة والتَّجربة، يقول أبو خراش الهذلي⁽⁵⁾ :

[الوافر]

أَلَا فَاغْلَمْ خِرَاشُ بِأَنَّ خَيْرَ الْـ مَهَاجِرِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ زَهِيدُ
فَإِنَّكَ وَأَبْتِغَاءُ الْبِرِّ بَعْدِي كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ وَلَا يَصِيدُ

إنَّ من يهاجر مبتعداً عن أهله ووطنه طمعاً في دنيا، فإنَّ النَّتائج غير مضمونة، وسيضطرب بعد أن يترك والده وأهله وهم أحوج ما يكونون له؛ كالكلب الذي يلطخ صدره بالدم حتى يرى أنَّه صاد ولم يصد، فتراه يكابر ويتظاهر بإحراز الخير، والواقع غير ذلك.

وكان للموت في نفوس الهذليين وقع كبير، فحرك مكانها، وأظهر مخاوفها، فلجأوا إلى صورة الحيوان يتأسون بها، ويجدون فيها العبرة والعظة، حتى شكلت لوحاتهم صوراً أظهرت حكمة تحكي قصة

(1) الهذليون ، الديوان ، 56 / 2 ، الريد : الشمراخ أو الصخرة البارزة اصطدمت بها، أعنت : هلكت وتلفت .
(2) الهذليون ، م . ن ، 202 / 2 ؛ وأمهلْتُ في أصحابه الذين معه ، فكأنما أسمعتُ النهي الذي نهيتُ نعاماً شرداً ، فلا حياة لمن تتنادي .
(3) الميداني ، مجمع الأمثال ، 170 / 1 .
(4) الهذليون ، م . س ، 268 / 2 ؛ الصِّلْمَاء : مقطوعة الأذنين . فهو أشبه بالنَّعام التي ذهبت تطلب قرناً فعاتت بلا أذنين .
(5) الهذليون ، م . س ، 171 / 2 ؛ زهيد : قليل ، مخضوب : ملطخ ، اللبان : الحلق أو الرقبة .

الموت والحياة، والقبر والفناء، وهم يودعون أحببتهم وأعزاءهم، فيجدون فيها العزاء والتسرية، فيقول أبو ذؤيب (1) :

[الكامل]

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعٍ
ويقول ساعدة (2) :

[الكامل]

فَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَنْسُ لَفِيفٌ ذُو طَوَائِفَ حَوْشَبٍ
يقول أبو ذؤيب (3) :

[الكامل]

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ شَبَبٌ أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ مُرَوِّعٌ
ويقول صخر الغي (4) :

[الطويل]

فَعَيْنِي لَا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ فَادِرٌ بَتِيهُورَةٌ تَحْتَ الطَّخَافِ الْعَصَائِبِ

فالموت نهاية حتمية، وقد محتوم على الجميع، فلا الحمار الوحشي - الذي يعيش مع أخته ويلهو معهن في الطبيعة الجميلة -، ولا البعير - الذي يعيش في قطع كثيف من فصيلته -، ولا الثور الوحشي وبقرته - الذي يبحث عن رزقه بعيداً عن أعين الصائدين رغم حرصه وحذره -، ولا الوعول - الممنعة في قلال الجبال التي يصعب على الصائدين الوصول إليها - ناجية من الموت الذي يرتصدها ويتربحها، وهذا حال الهذلي الذي يبحث عن رزقه وطعامه ويعيش مع أهله في أمن وسلام بعد أن اتخذ كافة الاحتياطات وبات محصناً من كل اعتداء. يقول أبو ذؤيب (5) :

[الكامل]

فَصَرَعْنَاهُ تَحْتَ الْغُبَارِ وَجَنْبُهُ مُتَتَرَّبٌ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ

فالموت نهاية حتمية لكل المخلوقات، فكل جنب مصرع، لكن كيفية حلول الموت تختلف من مخلوق إلى آخر.

فالحكمة تُعدُّ من أهم أغراض شعر الهذليين، إذ كانت نتيجة طبيعية للتجربة والبيئة المحيطة بهم، ولم تكن صادرة عن فلسفة مستقلة، إذ إنَّ الموت والاعتبار به قد أفرزا ظاهرة الحكمة عند الشعراء الهذليين، وبخاصة لدى أبي ذؤيب الهذلي وصخر الغي وأبي خراش. فبلغت الحكمة في ديوان الهذليين مبلغاً بارزاً، وجاءت فطرية بيئية متناسبة مع حياتهم وظروفهم وعلاقتهم مع غيرهم من القبائل المجاورة، خاصة فيما يتعلق بالموت وتقلب الدهر.

(1) الهذليون، الديوان ، 1 / 4 ؛ الحدثان : المصائب والبلايا ، الجون : الأبيض والأسود، السراة: أعلى كل شيء والمراد أعالي الجبال والهضاب، الجدائد : جمع جدود وهي الأتان السمينية.

(2) الهذليون، م . ن ، 1 / 183 ، أنس : طائفة كثيرة، لفيف : ليس فيه رقة، طوائف : نواح ، حوشب : بعير منتفخ الجنبين.

(3) الهذليون، م . ن ، 1 / 10 ، الشبيب الثور المسن، أفزته : طردته ، مروع : خائف.

(4) الهذليون، م . ن ، 2 / 52 ؛ الفادر : الوعل المسن، التيهورة : الأرض الرملية السهلة الممتدة، الطخاف : الغيم الرقيق، العصائب: المتقطعة ، يقول الشاعر : أن الوعل المسن متوحش في الرمل لا يصل إليه شيء، وهو في موضع مخصب أصابه مطر.

(5) الهذليون، م . ن ، 1 / 12-14 ، متترَّب : علق به التراب.

ذ . الحيوان في المثل الشعري:

حاز الحيوان موضعاً مهماً في كتب الأمثال العربية القديمة، وكان الشعر الهذلي أحد أهم الشواهد على الأمثال، يستأنس بها مؤلفو الكتب، وبالعودة إلى ديوان الهذليين وجدت أنهم استخدموا الأمثال في سياق شعرهم بعامة، وصور الحيوان بخاصة.

فاشتداد المصائب على أبي ذؤيب، واستمرار حلولها وتداولها بفقد أبنائه، جعلته يشبهها بالإبل التي تطيل مضغ العظام البالية تتملح بها، وقد قيل " كنت للمصيبة كالعظم ترتمه الإبل " (1)، فيقول (2) :

وَكُنْتُ كَعَظْمِ الْعَاجِمَاتِ اكْتَنَفَنَهُ بِأُطْرَافِهِ حَتَّى اسْتَدَقَّ نُحُولُهَا

أما من يفعل السوء فإنه يطرق رأسه حياءً؛ لأن الناس تقول: " جاء كخاصي العير " (3)، لمن لا يستحي من سوء فعله ويجاهر به، لأن خاصي العير يطرق رأسه عند الخصاء يتأمل في كيفية ما يصنع، كما أن علياً الناس يترفع عن ذلك ويستحي منه، يقول أبو خراش (4) :

[الطويل]

فَجَاءَتْ كَخَاصِي الْعَيْرِ لَمْ تَحِلْ جَاغَةً وَلَا عَاجَةً مِنْهَا تَلَوُّ عَلَى وَشَمٍ

وحين اليقين بعدم حدوث أمر تشاؤماً، فإن ذلك يتجلى في قصة أحمر ثمود الذي عقر ناقة سيدنا صالح عليه السلام، فقيل: "أشأم من أحمر عاد" (5)، يقول أبو خراش (6) :

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو الصِّلَاحَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ كَأَحْمَرِ عَادٍ أَوْ كُؤْلِبٍ لَوَائِلِ

وعند اشتداد الغضب، وإظهار العداء والغیظ على الأعداء، كان لا بد من الإعداد والاجتهاد والتهيؤ لذلك والاستعداد لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فالعرب تقول: " لبست له جلد النمر " (7)، يقول أبو جندب الهذلي (8) :

وَتَقَطَّعَ بَيْنَنَا رَحِمٌ إِذَا مَا لَبِسْنَا لِلْكُمَاةِ جُلُودَ نَمْرٍ

(1) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 175 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 33 ؛ العاجمات: الماضغات من الإبل، اكتنفنه: أخذنه بمضغنه، استدق نحولها: حتى أصبحت نحيلة ودقيقة بفعل المضغ، يقول : ركبنتي المصائب وعجمتني كما عجمت الإبل العظام ، والإبل إذا أسنت أولعت بالعظام البالية تمضغها تتملح بها تتخذها كالحمض .

(3) الميداني ، مجمع الأمثال ، 1 / 219 .

(4) الهذليون ، م . س ، 2 / 129 ؛ الجاجة: الخرز الرديء، العاجة : الذبلة ، تلوح على الوشم : تظهر على وشم فهي غير موشومة.

(5) الميداني ، م . س ، 1 / 478 .

(6) الهذليون ، م . س ، 2 / 124 ؛ يقول : هذا القتيل كأحمر عاد، وإنما يريد كأحمر ثمود الذي عقر الناقة ، يقول : هذا القتيل في شؤم ذاك وفي شؤم كليب لوائل .

(7) الميداني ، م . س ، 1 / 276 .

(8) السكري ، م . س ، 1 / 369 ؛ الكمأة : الأعداء ، إذا ما لبسنا للكمأة جلود نمر : هذا مثل ؛ إذا تهيأنا للقتال .

وعرف الحمار الوحشي بنشاطه وقوته، فتراه يضم قوائمه كي يثب ويقفز، فقد ضرب به المثل في الجَد على العمل، فقيل: "جمع له جراميزك" ⁽¹⁾، يقول أمية بن أبي عائذ ⁽²⁾: [المتقارب]

أَوْ أَصْحَمَ حَامٍ جَرَامِيزُهُ حَزَابِيَّةٍ حَيْدَى بِالذَّحَالِ

فأراد البريق الهذلي تصوير الذل الذي لحق به بعد أن تركه أبناؤه وهو طاعن في السن، وبات الصبية يعبتون به؛ فلا يحترمونه ولا يقدرونه بعد أن كان سيداً في قومه، شبه نفسه بحال تيس اليعر المربوط الذي يشد على فم الزبية ويغطي رأسه، فإذا سمع السبع صوته جاء في طلبه، فقالت العرب "أذل من اليعر" ⁽³⁾، يقول البريق الهذلي ⁽⁴⁾: [الطويل]

أَسَائِلُ عَنْهُمْ كَلَمًا جَاءَ رَاكِبٌ مُقِيمًا بِأَمْلَاحٍ كَمَا رُبِطَ الْيَعْرُ

وعندما وصف ساعدة بن جؤية حبيبته، قدّمها نقيّة الطرف لا تجيل النظر إلى الآخرين أدباً وحياء، فقالت العرب لمن يفعل ذلك "إنّه لغضيض الطّرف" ⁽⁵⁾، فكانت كالظبية، فيقول ⁽⁶⁾: [الكامل]

خَرِقَ غَضِيضُ الطَّرْفِ أَحْوَرُ شَادِنٍ ذُو حُوَّةٍ أَنْفُ الْمَسَارِبِ أَخْطَبُ

وعندما يحلّ الحزن وألم الفراق بالهذليين كلّما تذكروا أحبّاءهم، كانوا يجدون في صوت الحمام الحزين النّسرية والتّعزية، فصوت الحمامة يهيج الأحزان ويذكر بالأحبة الذي طال الزمان على فراقهم، فالعرب قالت: "أشجى من الحمامة" ⁽⁷⁾، يقول أبو ذؤيب ⁽⁸⁾: [الكامل]

تَدْعُو الْحَمَامَةُ شَجْوَهَا فَتَهْجُنِي وَيَرُوحُ عَازِبُ شَوْقِي الْمَتَأَوِبُ

وضربت العرب المثل في موق النّعام وحمقه، فربما رأت بيض نعامة أخرى قد انتشرت لمثل ما انتشرت هي له، فتحضن بيضها وتتسى بيض نفسها، ثم تجيء الأخرى فتري غيرها على بيض نفسها فتمر عنه وكأنّه ليس لها، فقالت العرب: "أحمق من نعامة" ⁽⁹⁾، فهي منزوعة العقل، هوجاء، وفي

(1) الميداني، مجمع الأمثال، 1 / 221.

(2) الهذليون، الديوان، 2 / 176، أصحم: الحمار لونه يضرب إلى الصفرة والسواد، حام جراميزه: أي بدنه، حزابية: مجتمع الخلق، وحيدى: يحيد ويقفز ويبتعد، الدحال: جمع دحل وهي الهوة من الأرض.

(3) الميداني، م. س، 1 / 362.

(4) الهذليون، م. س، 3 / 59؛ أملاح: اسم موضع، اليعر: الجدي الضخم.

(5) الميداني، م. س، 1 / 99.

(6) الهذليون، م. س، 1 / 168؛ الخرق: صغير الطّبي الذي ينقبض عن العَدُو إذا فوجئ، غضيض الطرف: فاتر الطرف، الشّادن: المتحرك، ذو حوة: فيه خطوط تضرب إلى السواد على ظهره، الأخطب: الأخضر في لونه، أنف المسارب: مستأنف الربيع لم يبرع قبله.

(7) الميداني، م. س، 1 / 154.

(8) الهذليون، م. س، 1 / 63، عازب شوقي: أي كان قد عذب ثم راح، الشّجو: الحزن، المتأوب: الذي يرجع بالليل.

(9) الميداني، م. س، 1 / 290.

سرعة عَدُوها ضربوا المثل، فقالت العرب " أشرد من خفذيذ، وهو الظَلِيم " (1)، يقول أسامة بن الحارث (2):

[مجزوء الكامل]

وَأَمْهَلْتُ فِي إِخْوَانِهِ فَكَأَنَّمَا يُسَمِّعُ بِالنَّهْيِ النَّعَامَ الشَّوَارِدُ
كما استخدموا صورة النعامة التي ذهبت تتقوى بقرنين فعادت بلا أذنين (3)، قالت العرب: " كطالب القرن جدعت أذنه " (4)، ويضرب في طلب الأمر الخطأ فيؤدي بصاحبه إلى تلف النفس.
أما طلب الأمر المستحيل فهو كمن يتوقع أن يشيب الغراب، فلون ريشه الأسود يستحيل أن ينقلب أبيض، فقالت العرب " لا أفعل حتى يشيب الغراب " (5)، يقول ساعدة بن جؤية (6):

[الكامل]

شَابَ الْغُرَابُ وَلَا فُؤَادُكَ تَارِكٌ ذِكْرَ الْغَضُوبِ وَلَا عِتَابُكَ يُعْتَبُ
أما من يقدم حججاً واهية ليدفع برأيه، وينتصر لذاته دون أن يكون مستعداً ومتأهباً لذلك، فهو كما قالت عنه العرب " نطح بقرن أرومه نقد " (7)، يقول صخر الغي (8):
تَيْسَ تَيْسٍ إِذَا يَنَاطِحُهَا يَأْلَمُ قَرْنَنَا أَرْوْمَهُ نَقْدُ
وعندما يحل الموت فإنه لا يفرق بين الغني والفقير، أو الحاكم والمحكوم، أو الصغير والكبير، فكل الأنفس ذائقة الموت، فقالت العرب " لكل جنب مصرع " (9)، يقول أبو ذؤيب (10):

[الكامل]

فَصَرَعْنَهُ تَحْتَ الْغُبَارِ وَجَنَّبَهُ مُتَتَرَّبٌ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ

(1) الميداني ، مجمع الأمثال ، 487 / 1 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 202 / 2 ؛ وأمهلته في أصحابه الذين معه ، فكأنما أسمعته النهي الذي نهيت نعماً شرداً ، فلا حياة لمن تنادي .

(3) الهذليون ، م . ن ، 268 / 2 ؛ الصلحاء : مقطوعة الأذنين . فهو أشبه بالنعام التي ذهبت تطلب قرناً فعادت بلا أذنين .

(4) الميداني ، م . س ، 167 / 2 .

(5) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 179 / 2 .

(6) الهذليون ، م . س ، 168 / 1 ، شاب الغراب : أصبح ريشه أبيضاً كالشيب ، الغضوب : اسم امرأة ، ولا عتابك يعتب : أي يستقبل بعنبي في أمرها ، بمعنى عتابك لا يجدي .

(7) الميداني ، م . س ، 402 / 2 .

(8) الهذليون ، م . س ، 63 / 2 ؛ الأروم : اصل القرن في الرأس ، نقد : متآكل وضعيف .

(9) الميداني ، م . س ، 239 / 2 .

(10) الهذليون ، م . س ، 14 / 1 ؛ متترب : مليء بالتراب .

الفصل الثالث: صورة الحيوان في شعر الهذليين

- أ. الحيوانات الأليفة.
- ب. الحيوانات المتوحشة.
- ت. الحيوانات الضارية.
- ث. الطيور .
- ج. الزواحف والحشرات .
- ح. النحل .

تتبع الشعراء الهذليون فوصفوا تفاصيل كيانه وقوته، وطبائعه وعاداته، وحركته وطبيعة علاقته مع غيره من الحيوان، حتى اتخذ القدماء من الحيوان عبرة يستعينون بها كلما حلت بهم نائبة أو نزلت مصيبة، يقول ابن رشيقي: " ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة، والوعول الممتعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرف بين القفار، والنسور، والعقبان، والحيات؛ لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر " (1). فرصدوا الحيوان وسجلوا مظاهر حياته، ولم يجدوا في ذلك حرجاً، فوصفوا الإبل، وأبدعوا في ذلك، ووصفوا الخيل، والحمير والبقر الوحشية والوعول والظباء والذئاب والضباع والأسود والنمور والثعالب، كما وصفوا النعام والحمائم والعقبان والصقور والنسور، كذلك الحيات وغيرها من الزواحف، والنحل وغيرها من الحشرات.

وقسمت الحيوانات الواردة في هذا الفصل إلى: الحيوانات الأليفة، وهي التي تألف الحياة مع الناس، وتعتمد في حياتها عليهم، والحيوانات المتوحشة، وهي التي لا تألف الحياة بين الناس، لكنها غير مفترسة، وأخيراً الحيوانات الضارية، وهي المفترسة التي لا تألف الحياة بين الناس. وعلى هذا الأساس استعرضت صورة الحيوان:

أ. الحيوانات الأليفة:

لم يترك الهذليون مشهداً من مشاهد الحياة الصحراوية إلا سجلوه في أشعارهم؛ فالرجل العظيم جاء فحلاً، والسريع حصاناً، والمرأة ظبية، فجاءت موضوعاته مستلهمة من الصحراء والسماء والنبات والحيوان.

1. الإبل :

يرى الأصمعي أن الهذليين كانوا " أصحاب جمال، ويغيرون رجالة، لم تكن لهم خيل " (2)، بينما يرى بعض الباحثين المحدثين غير ذلك، مستندين في ذلك إلى أن الهذليين لم يكثروا من ذكر الإبل في أشعارهم؛ لسببين، الأول: كان الحيوان عند الهذليين انعكاساً تلقائياً لطبيعتهم، فاعتزوا بالحيوانات القوية التي تدل على اعتزازهم بأنفسهم، ولأن الإبل تحمل صفة الذل أحياناً فقد جاء ذكرها محدوداً (3). والثاني: لم يحظ أغلب الهذليين بتربية الإبل واقتنائها لفقيرهم، ووعورة مناطق سكنهم، إذ

(1) ابن رشيقي، العمدة، 2 / 130 .

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، 1 / 35 .

(3) ينظر : حسين جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، ص 20 .

اعتادوا التنقل على أرجلهم أكثر من ركوبهم الرّواحل⁽¹⁾. فالشاعر الهذلي لم يهتم بالإبل اهتمام غيره من الشعراء، فهو من سكان الجبال الذين يهتمون برعي الأغنام، واشتتار العسل⁽²⁾.

وأرى أنّ ما ذهب إليه الأصمعي كان في سياق حديثه عن صفة العدو التي امتاز بها الهذليون، وعدم اعتمادهم الخيل في غزوهم وكرهم وفرهم، وفي معرض مناقشة الصورة التي قدمها أبو ذؤيب للخيّل ولم يحسن عرضها. فهم يجيدون وصف الإبل أكثر من الخيل، ولا أذهب إلى أنّه أراد كثرة اقتنائهم الإبل وامتلاكها فلا حالتهم الاقتصادية تسمح بامتلاكها - وأغلبهم من الصّعاليك الذين سكنوا الجبال الوعرة -، ولا طبيعة منطقة سكنهم الوعرة أو الجافة تساعدهم على اقتنائها.

وتناول أبو ذؤيب النّاقة⁽³⁾ في سياق مشهد متكامل ليثبت كرم قومه، ومبادرتهم لإطعام المحتاجين عندما ينقطع الغيث عن النّاس، فالإبل طعام المشردين الذي يطبخ في القدور المليئة باللحم، التي يضاف تحتها الحطب تباعاً كلّما خبت نيرانها⁽⁴⁾، في حين قدّم مالك بن خالد⁽⁵⁾ وساعدة بن جؤية النّاقة تحمل صفة الذّل والهوان⁽⁶⁾.

ورغم أنّ وصف الإبل عند الشعراء الهذليين لم يصل إلى العمق الذي وجد عند بقية الشعراء الجاهليين، فقد عبرت إشارات عن حالة إنسانية، لم تكن لمجرد وصف النّاقة⁽⁷⁾، حين أشاروا إلى ظاهرة ظاهرة الطّعائن دون سبر أعماقها، وهي أكثر الظواهر التي عاشها العربي دائم الارتحال، وافتقد الاستقرار نفسياً ومكانياً، يقول ساعدة بن جؤية⁽⁸⁾:

[الطويل]

أَهَاجَكَ مِنْ عَيْرِ الْحَبِيبِ بِكُورِهَا أَجَدْتُ بَلِيلٍ لَمْ يَغْرِجْ أَمِيرُهَا
تَحْمَلْنَ مِنْ ذَاتِ السُّلَيْمِ كَأَنَّهَا سَفَائِنُ يَمِّ تَنْتَحِيهَا دَبُورُهَا

ونجد تشبيه الإبل بالسفن عند أمية بن أبي عائذ ضمن مشهد السفن في البحر⁽⁹⁾، كما قدّمها مليح بن الحكم القردي مطيعة قوية، هادئة الخطا هانئة البال، ووسيلة الرحيل والخلاص من الهموم والضيق، قوية قوة السفن، وهذا من جديد الشعر الهذلي عندما أضاف إليه بعض ظواهر الحياة المعاصرة، فيقول⁽¹⁰⁾:

[البسيط]

حَتَّى رَأَيْتُهُمْ تَعْلُو رِحَالَهُمْ مَلْمُومَةً فَوْقَهُنَّ النَّيُّ وَاللَبَدُ

(1) ينظر : ميساء قتلان ، شعر ساعدة بن جؤية ، ص 39 .

(2) ينظر : نورة الشملان، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره ، ص 77 .

(3) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 1 / 38 - 39 .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 27 - 28 .

(5) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 12 - 13 .

(6) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 217 .

(7) ينظر : ميساء قتلان ، م . س ، ص 41 .

(8) الهذليون ، م . س ، 2 / 211 ؛ أميرها : ربانها ، ذات سليم : اسم موضع ، تنتحي : تعتمد ، وكانت الإبل من عادتها أن تقذف بالنوى .

(9) ينظر : السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 515 .

(10) (السكري ، م . ن ، 3 / 1013 - 1014 ؛ ملومة : إبل سمان، الني : الشحم ، اللبد : الوبر ، الشبا : الأنياب الحادة ، الغرد : الصوت المنبعث ؛ اللجون : النقيلة البلدية، مشغوفة : مشتاقة إلى أوطانها ، شرد : ذاهبة .

سُدْسًا وَيُزَلًّا إِذَا مَا قَامَ رَاجِلُهَا تَحَصَّنَتْ بِشَبَابٍ أَطْرَافُهُ غَرْدُ
مُصْطَفَّةً كَاصْطِفَافِ الْفَلَكَ لَا لَجْنُ تَحْتَ السَّيَاطِ وَلَا مَشْعُوفَةً شُرْدُ

فقدّمها مليح في صورة حسية عندما عرضها سميئة مليئة بالشحم، يافعة قوية، وقدمها في صورة حركية تقف مصطفة في صورة رائعة كالسفن الراسية على الشاطئ متجاورة منتظمة، تتمايل بفعل الأمواج، وتتحرك بنشاط وسرعة دونما حاجة إلى حث، ولا تسرع سرعة المشتاق العائد إلى أهله. من هنا ارتبطت الإبل في بعض النماذج بالسفن السائرة أو المصطفة، مضافاً إليها صوراً من الحركة والقوة والخفة، دلّ بها على معرفة جديدة، إلا أنها معرفة لم تنفصل عن الطعائن التي هي من الصور المألوفة في الشعر العربي" (1).

وقدّم أبو ذؤيب مبارك الإبل (2) مكاناً ثابتاً فيه المنعة والقوة، يجد فيها المقاتل الطمأنينة والاستقرار الذي يفضي إلى توفير الحماية، فاستوحى الشاعر من هذه المبارك صوراً للأبطال لأنها تكون حصوناً منيعة تصنع النصر، يقول أبو كبير (3):

وَتَبَوُّوا الْأَبْطَالَ بَعْدَ حَزَازٍ هَمَّعَ النَّوَاحِزِ فِي مَنَاحِ الْمُوحِفِ

وتمركز الأبطال كل في مكانه يدل على ارتفاع الهمة وعلو الشأن والمنزلة الرفيعة وحسن التخطيط والتدبير، فالأبطال وهم يحققون النصر إنما يحمون حمى القبيلة ويحفظون أبناءها ونساءها وشيوخها وكافة ممتلكاتها، فتتجلى الصورة السمعية مع انبعاث الصوت من الأبطال وهم يزفرون في مراتبهم؛ كما تزفر الإبل في مناحها، ليعكس الشاعر الروح القتالية العالية التي تملكها أبناء قبيلته حين القتال والدفاع عن شرف قبيلتهم.

أشرك الهذلي الإبل في صورة المعركة لأنها من أهم ركائز الحروب، فجاءت تحمل الصفات الكريمة، وهي التي شاركته أحلك الظروف وأقساها، يقول أبو جندب (4):

إِذَا أَدْرَكْتَ أَوْلَاهُمْ أَخْرِيَاتِهِمْ حَنَوْتُ لَهُمْ بِالسِّنْدَرِيِّ الْمُوتِرِ
وَطَعْنِ كَرَمِجِ الشَّوْلِ أَمَسَتْ غَوَارِزًا جَوَانِبُهَا تَسْأَلُنِي عَلَى الْمُتَغَبَّرِ

فإذا أحاط به أعداؤه يريدونه، أطلق سهامه الحادة موقعا فيهم الموت، كما هي الإبل الشول التي ترمح وتمنع كل من يحاول أن يستدر ما بقي في ضرعها من اللبن، فالعلاقة منسجمة بين حالة الشاعر الحانق على أعدائه، الهائج المائج، وهو يوقع بهم القتل، وبين حالة الإبل الشول التي ترمح آبية أن يستدر لبنها. كما بين الشاعر وهو يصف حالته وهو يطعن بسرعة وينبعث الدم من مكان الطعن

(1) المكي العلمي، أشعار هذيل، ص 291.

(2) ينظر: الهذليون، الديوان، 55 / 1.

(3) الهذليون، م. ن، 2 / 109؛ الهكوع: البروك للقتال، الهكع: السعال، الحززة: فعل الرئيس في الحرب عند تعبئة الصفوف، الموحف: ميرك الإبل، الناحز: سعال الإبل إذا اشتد.

(4) الهذليون، م. ن، 3 / 93 - 94؛ حنوت: تهيأت للرمي: السندري: القوس، الموتير: المتجه إلى أعلى؛ الشول: الإبل الحوامل التي خفت ألبانها، المتغير: الذي يطلب آخر اللبن، جذبت: رفعت لبنها ومنعته.

بشكل متدفق بحال الإبل التي تأبى على المتغير، فتراها ترمح بسرعة مبتعدة عنه، ففي الصورة مزج واضح بين حالة الشاعر وما أصابه من غضب وحنق - عكسه على الإبل - ، وبين الحركة السريعة في الطعن وتدفق الدم من جهة وهرب الإبل تأبياً على المتغير من جهة أخرى، فالصورة الحركية عكسية فهو يكثر الطعن وتتطلق الدماء من أجساد أعدائه، وهي تكثر الهرب خوف استدرار حليبيها.

وقدّم الشعراء صورة الإبل الجرباء لتوضيح الصورة واستكمالها، فالصورة التي قدمها بعض الشعراء - كصخر الغي ⁽¹⁾ - لجرب الإبل جاءت في ظاهرها ضعيفة ومقززة أحياناً لكنها كانت تخفي وراءها ظاهرة فنية خصبة، وتدل على البطولة والشجاعة في ميدان المعركة ⁽²⁾ عند ساعدة بن جؤية، وزاد في جمالها وروعيتها ما قاله أبو ذؤيب ⁽³⁾:

ثُمَّ إِذَا فَارَقَ الْأَغْمَادَ حُشَوْتُهَا وَصَرَّحَ الْمَوْتُ إِنَّ الْمَوْتَ تَصْرِيحُ
وَصَرَّحَ الْمَوْتُ عَنْ غُلْبِ كَانَهُمْ جُرْبُ يَدَافِعُهَا السَّاقِي مَنَازِيحُ
أَلْفَيْتَهُ لَا يَفْلُ الْقِرْنُ شَوْكَتَهُ وَلَا يَخَالِطُهُ فِي الْبَاسِ تَسْمِيحُ

إذ جعل الشاعر هذا المرض القبيح منطلقاً للتصوير الفني، فالتأس بدلاً من نبذ الجرب باتت تُعدّه قوة معينة تخافه، وتأبى مواجهته لأنه يؤدي إلى الموت، فالإبل لا تخالط البعير الأجرب عند ورود الماء سلامة لنفسها، وكذلك الأعداء الذين يتقون المرثي في المعركة؛ لقوته وشدة فتكه.

ويجد أبو صخر الهذلي ناقته قوية، يستعين بها كلما حزبه أمر ⁽⁴⁾، في حين يشبهها أبو ذؤيب بالصخرة في الضخامة والصلابة وقوة البأس والقدرة على الاحتمال، فهي شديدة صلابة سريعة، إذ يقول ⁽⁵⁾:

فَمَا فَضْلَةٌ مِنْ أَذْرَعَاتِ هَوْتٍ بِهَا مُذَكَّرَةٌ عَنْسٌ كَهَادِيَةِ الضَّحْلِ
تَزَوَّدَهَا مِنْ أَهْلِ بُصْرَى وَغَزَّةٍ عَلَى جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةٍ الذَّيْلِ وَالْكَفْلِ
فَجُنُنَ وَجَاعَتَ بَيْنَهُنَّ وَإِنَّهُ لَيَمْسَحُ ذِفْرَاهَا تَزْغُمُ كَالْفَحْلِ

(1) ينظر: الهذليون ، الديوان ، 70 / 2 .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 184 / 1 .

(3) الهذليون ، م . ن ، 109 / 1 - 110 ، أعماد السيوف : فارقتها حشوتها ، يعني : النصول ، صرح : ظهر وبدأ، الإبل الغلب: الغلاظ الأعناق، جرب: الإبل الجربة، المنازيع : الإبل الجرباء اللواتي يطلبن الماء من مكان بعيد، ألفيته: وجدته، يفل القرن شوكته: لا تكسر قوة الأعداء إرادته، لا يخالطه في البأس تسميح: لا يفكر حين اشتداد البأس والمعركة الهرب والفرار.

(4) ينظر : السكري ، شرح اشعار الهذليين ، 917 / 2 .

(5) الهذليون ، م . س ، 39 / 1 - 41 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، 194 - 195 ؛ فضلة : الخمر ، أذرعَات : بلد بأطراف الشام يجاور عمان ، هوت بها : سارت بها ، مذكرة : الناقة التي خلقتها كخلقة الفحل ، عنس: شديدة صلابة، هادية الضحل: صخرة تكون في بطن الماء يمر الماء عليها رقيقاً ، الضحل : الماء الرقيق ، مرفوعة الذيل والكفل : يريد أن ذيلها وكفلها مرفوعان، رغم أن لا ذيل للناقة وإنما هو مثل، والكفل : رداء يكون على عجز البعير يركب عليه ، جسرة : جسمة ، ذفراها : النائي في القفا من الأذنين ، تزغم: تصيح وتصدر أصواتاً.

وعمد الشاعر وهو يشبه ناقته بالصخرة الصلبة التي تكون في بطن ماء يمر عليها رقيقاً، إلى وصف ناقته وصفاً مادياً ليقدم الصورة مكتملة، فتحدث عن مسح عرق ذفار ناقته بعد طول سفر وإجهاد، وهي تصيح وتزغم كالفحل إيداناً بانتهاء الرحلة من الشام، والوصول إلى الديار. وكأنّي بالشاعر يريد أن يرسم صورته بعد السفر، وما حلّ به من تعب وإرهاق؛ فاتخذ من صورة الناقة نموذجاً عبّر فيه عن حالته. وجعل أبو ذؤيب في الصورة حركة تمثلت في حركة الناقة التي تمضي تحمل الخمر من الشام لا تبالي بالمسافة الطويلة، وصوت تمثل في صياحها إيداناً بانتهاء الرحلة وإن اختها.

وعندما تضيق الدنيا - بالشاعر - بما رحبت، وتحيط به الهموم من كل جانب، يجد في ناقته النديم والمؤنس، إذ "رأى الشعراء في نوقهم وسيلة لتسرية الهموم والآلام، يلونون بكنفها كلما شعروا بالضيق، وكلما كان وقع الحياة في نفوسهم أليماً، وهي وحدها القادرة على نقلهم من حالة الغم والهم والقنوط، إلى الأمل والحياة الآمنة السعيدة" (1)، فهي التي تسري عن أسامة بن الحارث همومه وتخفف من آلامه وهو يقطع الصحراء الشاسعة بها مسرعة (2)، فإذا وصفها بالسرعة والقوة شبهها بالظليم، فيقول أمية بن أبي عائذ (3):

[المتقارب]

فَسَلَّ الهمومَ بِعِيرانَةٍ	مُواشِكَةِ الرَّجُلِ عِـ بَعْدَ انْتِقَالِ
ذُمُولٍ تَزِفُ زَفِيفَ الظَّالِمِ	مِ شَمَّرَ بِالنَّعْفِ وَسَطَ الرِّثَالِ
وَتَرَمَدُ هَمَلَجَةٍ زَعَزَعَا	كَمَا انْخَرَطَ الْحَبْلُ فَوْقَ الْمَحَالِ

وجاءت متعبة مرهقة من طول السفر، بعدما قطعت الصحراء الواسعة، تشتكي الكلال، رغم غلظتها، وضمور جسمها، نتيجة ما حملت من أعباء وأثقال، وما حلّ بها من عطش وجوع وإرهاق. فتجلت بوضوح الصورة الحركية عندما شبه الشاعر ناقته في سرعتها ورجع يديها، ومناقلتها التي تشبه الظليم في سرعته وحركته وتنقله بين الصَّخُور، فالظليم يحسن السير في سرعة تشبه سرعة انخراط الحبل فوق البكرة. فالصورة الحركية التي عرضها أمية بن أبي عائذ مركبة بدأت بحركة الإبل، ثم إلى حركة الظليم التي تشبه الحبل فوق البكرة حين انخراطه في البئر.

(1) أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، 1 / 195 - 196 .

(2) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 2 / 197 .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 174 - 175 ؛ عيرانة : مشبهة بالبعير ، مواشكة : سريعة رجع اليدين ، المناقلة : ضرب من السير ، الزفيف : مداركة المشي ، شمر : سار ، النعف : ما سفل عن الحجر وارتفع من مسيل الوادي ، وسط الرثال : بين أفراس النعام ، ترمد : تمضي سريعاً ، الهملجة : حسن السير في سرعة ، الزعزع : التحرك في السير ، فوق المحال : فوق البكرة .

2. الخيل :

جاء تناول الهذليين لصورة الخيل في ديوان شعرهم قليلاً، بسبب صعوبة البيئة الجغرافية التي عاشوا فيها، ووعورتها وعدم مناسبة هذه البيئة لاقتناء الخيل، واعتمادهم على العدو، كما كانت الخيول من ممتلكات الطبقة الثرية، فالهذليون كما وصفهم الأصمعي " لم تكن لهم خيل" ⁽¹⁾، وهذا لا يعني أن صورة الخيل كانت غائبة عن شعرهم بشكل قاطع، فالهذليون " لم يعرضوا للخيل لأنها لم تكن لها سبيل في حياتهم، ولأن بعضهم أو أغلبهم كان يسبقها " ⁽²⁾.

وصف أبو ذؤيب الهذلي الفرس، فقَدَّمها سريعة يعزُّ على غيره إيقافها، حتى بلغ من سرعتها أنها تكسر الحلق، وتمزق الأديم لشدة عدوها، وقوة بنيتها. فاعتنى بها عناية خاصة فرباها ونماها وجعل اللبن خالصاً لها، حتى اكتنز لحمها، وتماسكت أليافها، واشتدت عضلاتها، فاكتست ثوباً من الشحم واللحم، فإذا ما غمرت فيها الإصبع لم تبلغ العظم، وأنها قد تشقق لحمها عن النسا، وكان ضرعها ذاوياً لأنها لم تحمل، ولم يجر اللبن في ضرعها، مما جعلها قوية شديدة. أما صفاتها المعنوية، فقَدَّمها عزيزة النفس شديدة الأنفة، مرهفة الحس، مطيعة لا تعدو إذا ما عُنِفَتْ وأجبرت، أصيلة مناسبة تجود رغبة لا رهبة، لا تساق بالسياط، فيقول ⁽³⁾:

تَعْدُو بِهِ خَوْصَاءُ يَفْصِمُ جَرِيْهَا	حَلَقَ الرَّحَالَةَ فَهِيَ رِخْوٌ تَمَزَعُ
قَصَرَ الصَّبُوحَ لَهَا فَشَرَجَ لَحْمَهَا	بِالنَّيِّ فَهِيَ تَثْوُخُ فِيهَا الْإِصْبَعُ
مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِي	كَالْقُرْطِ صَاوٍ غَبْرُهُ لَا يُرْضَعُ
تَأْبَى بِدَرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتَكْرَهَتْ	إِلَّا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ

وعاب النقاد على أبي ذؤيب الصورة التي قدَّمها في البيت الثاني، إذ قال: "تثوخ فيها الإصبع"، يقول الأصمعي: " وهذا من أخبث ما تتعت به الخيل، لأن هذه لو عدت ساعة لانقطعت لكثرة شحمها، وإنما توصف الخيل بصلابة اللحم، وأبو ذؤيب لم يكن صاحب خيل" ⁽⁴⁾، كما أخذ الأصمعي على أبي ذؤيب الصورة التي قدَّمها في البيت الرابع، فقال: " وهذا مما لا توصف به الخيل وقد أساء، وإنما أراد بهذا شدة نفسها، إلا أنه كان لا يجيد في صفة الخيل، وظن أن هذا مما توصف به" ⁽⁵⁾. أما وجه

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين، 1 / 35 .

(2) أحمد كمال زكي، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص 222 .

(3) الهذليون، الديوان، 1 / 16؛ أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 166-168؛ الخوصاء: غائرة العين، يفصم: يكسر، حلق الرحالة: حلق حزام السرج، الرخو: الشيء السهل، تمزق: تمر في عدوها مرأً سريعاً؛ قصر الصبوح: حبس اللبن للفرس حتى شرج لحمها فاختلف شحمها بلحمها، تثوخ: تدخل فيه وتغيب فيه، فعنى أن عليها من الشحم واللحم ما لو غمرت بأصبعك فيه لم تبلغ العظم؛ متفلق النسا: برز عرق النسا في فخذيها لما سمت، القاني: الضرع الأحمر وهو يريد أن ضرعها بيس فاسود بعد احمرار فهي ذاوية الضرع لم تحمل زماناً، القرط: يريد الضرع فهو صغير، صاو: يابس، الغير: اللبن، تابى بدرتها: ترفض العدو، الحميم: العرق، يتبضع: يرشح ويسيل .

(4) الهذليون، م. س، 1 / 16 .

(5) السكري، م. س، 1 / 35 .

الإسَاءة فهو وصف الفرس بما توصف به الناقة، فليست الخيل من تحمل على سرعة العدو بالسوط إنما الناقة، وهذا ما أساء لصورة الفرس لدى أبي ذؤيب.

وجاءت صورة الخيل ضمن مشهد المعارك والغزوات التي خاضها الهذليون، حتى عدها أبو كبير الهذلي من أهم العتاد الحربي المادي⁽¹⁾، كما قدمها الشعراء في مشاهد متعددة ومختلفة أحياناً لكنها حافظت لدى أبي ذؤيب على الإطار العام للصورة العالقة في أذهان العرب عن أثر الخيل في المعركة⁽²⁾، وما تدل عليه من دلالات معنوية ومادية من خلال علاقتها الوثيقة بحياة الإنسان الهذلي⁽³⁾.

أما المعطل الهذلي فقدّم الخيل في سرعة جريها وجلدها وقدرتها العالية على تحمل أهوال المعركة⁽⁴⁾، في حين قدمها ساعدة بن جؤية رمزاً للقوة المفضية للنصر المؤزر⁽⁵⁾، واستمراراً للروح القتالية التي تنبعث في المعركة وتقود إلى النصر لدى أبي خراش⁽⁶⁾.

و"اشتهر في وصف الخيل من شعراء هذيل ساعدة بن جؤية، والحق أنه وصفها وصفاً دقيقاً وأجاد فيه"⁽⁷⁾، لكنه وقع في الخطأ ذاته الذي وقع فيه بعض الشعراء، فالفرس عنده ضخم الوسط، ممثلي اللحم، عبل الشوى. لكن النقاد تجاوزوا عن ذلك "لأنه أتبع النظرة المعيبة نظرة صائبة أخرى عندما عبر عن قوة الفرس في الجري، وعن شدة وقع حوافره على الصخور الصلدة والحجارة الصماء"⁽⁸⁾، فرغم امتلاء فرس الشاعر باللحم وضخامة جسمها، إلا أن ذلك لم يعقها في أن تهتز كأنها كأنها جذع في الحدة والرشاقة.

ولأن الخيل والإبل أهم الأدوات الحربية؛ فقد تناولها أبو العيال⁽⁹⁾، وكذلك ساعدة بن جؤية عندما شبه الخيل بالإبل في رمزيتهما الحربية، وما تدلان عليه من خير وفروسيّة وعزة ومجد، فيقول⁽¹⁰⁾:

فَنَاشُوا بِأَرْسَانِ الْجِيَادِ وَقَرَّبُوا	عَنَاجِيَجَهُمْ مَجْنُوبَةً بِالرَّوَاحِلِ
عَلَيَّ وَكَانُوا أَهْلَ عِزٍّ مُّقَدَّمِ	وَمَجْدٍ إِذَا مَا حَوَّضَ الْمَجْدَ نَائِلِي
وَكُلَّ شَمُوسِ الْعَدُوِّ ضَافٍ سَبِيْبُهَا	وَمَنْجَرِدٍ كَالسَّيْدِ نَهْدِ الْمَرَائِلِ

(1) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 110 - 109 / 2 .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 31 - 32 .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 30 .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 47 .

(5) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 185 - 186 .

(6) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 165 .

(7) إسماعيل الننتشة ، أشعار هذيل ، 93 / 1 .

(8) عبد الجواد الطيب ، هذيل في جاهليتها وإسلامها ، ص 95 .

(9) ينظر : الهذليون ، م . س ، 2 / 246 .

(10) الهذليون ، م . س ، 2 / 219 - 220 ؛ ناشوا : تناولوا ، العناجيج : الطوال الأعناق ، مجنوبة : يعني هذه الخيل تجنب إلى الإبل، حوض : حوط ، الشموس : لا يدرك عدوها، سبييها : ناصيتها، ضاف : كثير، المنجرد: الماضي : نهد المراكل : ضخم موضع عقبى الراكب، فهو منتفخ الجنبين .

ففي صورة حسية يصف ساعدة فرسه وصفاً دقيقاً، مبرزاً جسمها وقوتها وعظم هيكلها، فهي طويلة العنق، منجردة، منتقخة الجبين، ذيلها كثيف الشعر كأعالي شجر البردي، ففرس ساعدة " فرس حرب وقتال ونزال، حيث أعدّه للحرب والغارة والفروسيّة كفرس عنترة الذي يتسرل بالدم، وهو ليس كفرس امرئ القيس فرس الصيّد واللّهو، الذي يباكر الوحوش ويقيدها " (1).

ومن الصّور البدويّة عندما شبه أبو العيال فرسه بالصّقر في مباغتتها وسرعتها وانقضاضها على فريستها، فيقول (2):

وَيَحْمِلُهُ جَمُومٌ أَرْ
أَجَشُّ مُقْلَصِ الطَّرْفِ
إِذَا مَا أَحْتَثَّ بِالسَّاقِي
كَمَا يَنْقُضُ مِنْ جَوْ السَّ
يَحِيَّ صَادِقٌ هَدَبٌ
نِ فِي أَحْشَاءِهِ قَبَبٌ
نِ لَمْ يَصْبِرْ لَهُ لَبَبٌ
مَاءِ الْأَجْدَلِ الدَّرَبِ

فأبو العيال وهو يتناول الخيل، قدم صورة حسية ومعنوية ظهرت فيها الحركة والصوت في آن واحد عندما عرض صفات الفرس المادية والمعنوية؛ فهو خشن الصوت عند صهيله، ضامر الطرفين والبطن، صلب طويل العرف، سريع التّقل، نشيط شديد الجري، بل يسابق الصّقر حين الانقضاض على فريسته.

3. حيوانات أليفة أخرى:

لم يحظ الحمار الأهلي بصور شعرية كثيرة لدى الهذليين، كونه حيواناً مغموراً، يُنظر إليه نظرة ازدراء وتحقير، فجاءت صورته سريعة وقصيرة، سلطت الضوء على جانب بسيط من صفاته الحسية، أو لقطة خاطفة من سلوكه أو ما اشتهر به، فلم ينل الاهتمام الذي يستحقه، وتناول المتنخل الهذلي صوت الحمار الأهلي وحركته، فيقول (3):

لَلْقَمَرِ مِنْ كُلِّ فَلَا نَالَهُ غَمْغَمَةٌ يَقْرَعَنَّ كَالْحَنْظَلِ

فجاءت صورة الحمير التي تلحق ببعضها وتسير بسرعة في مكان مستو، وهي تغمغم بالهواء المنبعث من أنفها وفمها، فتصدر أصواتاً تعرف بها الحمير، تشبه حبات الحنظل الجافة اليابسة التي تطفو على وجه الماء لخفتها فتسير مع تيار الماء بسرعة.

(1) إسماعيل الننتشة، أشعار هذيل، 94 / 2.

(2) الهذليون، الديوان، 251 / 2 - 252؛ الجموم: الذي يذهب إليه جري ثم يثوب له جري آخر، الأريحي: الذي تأخذه خفة العطاء، الصادق: الصلب في أمره، الهدب: الطويل العرف؛ الأجي: الذي لصوته جشة، مقلص الطرفين: الذي يشرف عنقه وعجزه، القيب: الخمص والضعف والضمور، احتث بالساقين: نهز بقدمي الفارس، لم يصبر له لبب: يخرج من جلده لشدة جريه ونشاطه، الأجدل: الصقر، الدرب: المتعود والمعتاد.

(3) الهذليون، م. ن، 9 / 2 - 10، القمر: الحمير، غمغمة: صوتها وهي تخرج الهواء من فمها وأنفها، يقزع: يمررن في السير مرّاً سريعاً، الحنظل: الحنظلة اليابسة.

واستمراراً لتحقيق الحمار، لم ترض بعض نساء هذيل امتطاءه فعرضه أمية بن أبي عائذ في صورة منفرة⁽¹⁾. وفي حروب وغارات قبيلة هذيل، رسم العديد من الشعراء صورة الحمار، عندما شبهوا به أعداءهم حين النزال أو خلال المعركة، فجاء المشهد مهيناً ومذلاً لمن يقع تحت سيوف الهذليين، وقد حل به القتل والذبح. فأضفوا على الصورة بعض اللمسات التي تزيدها حيوية وروعة، وتحقيراً وإذلالاً لمن وصفوا بهذه الصورة، يقول حذيفة بن أنس⁽²⁾:

[الطويل]

وَنَحْنُ جَزْرْنَا نَوْفَلًا، فَكَأْتِمَا جَزْرْنَا حِمَارًا يَأْكُلُ الْقَرْفَ أَصْحَرَا
جَزْرْنَا حِمَارًا يَأْكُلُ الْقَرْفَ صَادِرًا تَرَوِّحَ عَنْ رَمٍّ وَأَشْبِعَ غَضُورًا

فلم يفرغ أحد لمقتل سيد بني الدليل، فهو أشبه بالحمار الذي اعتاد على أكل لحاء الشجر، وعشب الغصور الخبيث، فالشاعر وهو يرسم صورة لمشهد الغارة والمواجهة مع بني الدليل وجد في الحمار تشبيهاً يصف فيه زعيمهم. والعرب تأبى ذلك، فالزعيم له من المكانة الرفيعة والمنزلة ما يجعلها تتفانى دفاعاً عنه.

ولم تتل تربية الماشية والضأن منزلة تربية الإبل وامتلاكها، فانسحبت نظرة العرب إلى الإبل والغنم والمعرز على أصحابها، فمنزلة من يمتلك الإبل أعلى اجتماعياً واقتصادياً ممن يمتلك الغنم والضأن، وراعيها الذي أتهمه أبو ذؤيب بالخمول، والإكثار من النوم، المعتمد على كثرة أغنامه، فوجد سعة في الرزق فاطمأن ونام. وقدم الشاعر صورة منفرة لراعي الأغنام الكسول، فللعرب في الجاهلية نظرة سلبية تجاه تربية الأغنام وراعيها⁽³⁾.

واستخدم البريق الهذلي صورة الجدي الضخم للتعبير عن الإنسان الذي لا حيلة له أمام هجرته عن أهله⁽⁴⁾، وقدم حذيفة بن أنس صورة أخرى للضأن في صعوده الأماكن المرتفعة، نشاطاً وحيوية في صورة حركية واضحة، في سياق المواجهة بين الهذليين وأعدائهم في غاراتهم وأيامهم، فيقول⁽⁵⁾:

[الطويل]

فَادْبَرَّ يَحْدُو الضَّأْنَ بِالْمَتْنِ مُصْعِدَا فَلَاقَاهُمَا بَيْنَ الْقَتَائِدِ جُنْدُبْ

(1) ينظر: الهذليون، الديوان، 2 / 193 - 194 .
(2) الهذليون، م. ن.، 3 / 20 ؛ نوفل: سيد بني الدليل، يأكل القرف: يأكل قشر الشجر ولحاءه، أصحر: لونه أبيض يميل إلى الحمرة، رم: موضع، الغصور: أخبث الحشيش .
(3) ينظر: الهذليون، م. ن.، 1 / 43 .
(4) ينظر: الهذليون، م. ن.، 3 / 58 - 59 .
(5) الهذليون، م. ن.، 3 / 23 ؛ المتن: ما ارتفع من الأرض، القتائد: نخيل.

ثم قدّم الشعراء صورة الشاة التي ينقبض خيرها، فإذا حلبت لم تدر، وإن عَصِبَتْ (1) هربت ورمحت، فهي شاة لا تستطيع الإبصار في الهاجرة، كما أنها تأبى الدّر والحلب، فإذا عصبت زينت وهربت، يقول أبو العيال الهذلي (2):

فَلَسَوْفَ تَنْسَاها وَتَعْلَمُ أَنَّها تَبَعٌ لِأَبْيَةِ الْعَصَابِ زَيْون
جَهْرَاءَ لَا تَأَلُو إِذَا هِيَ أَظْهَرَتْ بَصَرًا وَمَا مِنْ عَيْلَةٍ تُغْنِينِي

ولا يرى الشاعر في الشاة خيراً، فهي جهراء لا تحسن الرؤيا، كما أنها لا تدر ولا تغني صاحبها عن حاجته، ولا تعينه على سد رمق أهله، وهذه من صفات من يعتمد الإساءة إلى غيره، فلا هو صانع الخير طوعاً، ولا مقدمه جبراً وقسراً.

ب . الحيوانات المتوحشة :

ومن الحيوانات المتوحشة التي تناولها الهذليون في ديوانهم :

1. الحمار الوحشي:

تعدّ قصة حمار الوحش مع أخته من أكثر الموضوعات الفنية التي تطرق إليها الهذليون في أشعارهم، فأكثرنا من صورها بشكل ملفت للانتباه، إذ وردت صورة الحمار الوحشي وأخته غالباً في الرثاء، وأخذ العبرة والتعزية عندما يرفع الموت سيفه مطيحاً بحياة الأهل والأبناء والأصدقاء، فكان الشاعر الهذلي " يجد في حياة هذا الحيوان وحياة غيره من حيوان الصحراء كالثور والظليم والصقر، فرصة طيبة للتأمل والتفكير في أمور الكون والحياة والموت، وما يعد به الدهر " (3).

كما نال الحمار الوحشي لدى الشعراء الهذليين نصيباً مهماً فأكثرنا من ذكره في أثناء حديثهم عن عدوهم، يقول يوسف خليف: " إن ذكر حمار الوحش في صدد الحديث عن العدو خاصة هذلية " (4). كما صور الهذليون الحياة الصعبة التي يعيشونها متخذين من صورة الحمار الوحشي شاهداً، فحصلهم على الطعام أمر بالغ الصعوبة، والوصول إلى مصادر الغذاء أشد صعوبة في ظل هواجس الإنسان والحمار الوحشي على حد سواء، فلا يقضي الحمار الوحشي وأخته حاجتهم في الحصول على مأكلكم ومشربهم حتى يسدل الليل أستاره بعيداً عن القانصين، وكلاب الصيد الضارية.

(1) يقال : عصبت الناقة يعصبيها عصباً وعصاباً إذا شد فخذيهما أو أدنى منخريها بجبل لتدر (ينظر : اللسان ، مادة : عصب) .
(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 263 ؛ تعلم أنها تبع لأبيّة العصاب زبون : إن حلبت لم تدر وإن عصبت زينت ورمحت ، الزبون : الرمح والجري ، الهجاء : لا تبصر في الهاجرة ، لا تألو : لا تقدر ، العيلة : الفقر والحاجة ، تغنيني : تعينني .
(3) وهب روميه ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص 127 .
(4) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص 220 .

يُعد أبو ذؤيب الهذلي أكثر شعراء هذيل إجادة في تصوير الحمار الوحشي، وهو الذي تحدث عنه كثيراً وأجاد في تسجيل كل حركاته وسلوكياته، يبرز ذلك في عينيته التي رثى فيها أبنائه فوجد فيها العزاء والتسرية، يقول (1):

[الكامل]

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ
صَخْبُ الشَّوَارِبِ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَبْدٌ لَّآلِ أَبِي رَبِيعَةَ مُسْبِعُ
أَكَلَ الْجَمِيمِ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجُ مِثْلُ الْقَنَاءَةِ وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرُعُ
بِقَرَارٍ قِيَعَانٍ سَقَاها وَابِلُ وَاهٍ فَأَتَجَمُّ بِرَهْمَةٍ لَا يُقْلَعُ
فَلِبْثِنَ حَيْنًا يَغْتَلِجُنَ بِرَوْضِهِ فَيَجِدُ حَيْنًا فِي الْعِلَاجِ وَيَشْمَعُ

ويتناول الشاعر الحيوان وصراعه مع الموت ليصور صراع أبنائه معه، وانتصار الموت في الحالتين، معزياً نفسه، فالدنيا لا تبقى على حالها، والدَّهر يعطي بيد ويستعيد بأخرى. لقد صور الشاعر حمار الوحش وصراعه تصويراً رائعاً، وألحق به الأتْن التي كان يقودها إلى موطن الخير حيث الماء والكلاء، فقدّمه قوياً نشيطاً مقبلاً على الحياة، حريصاً على استكمال عناصرها عبر التزاوج مع الأتْن ليجمع كل ما تتمناه النفس، الوفرة في الغذاء، والأمن في السَّرب، والسكينة مع الشريك، لكن الموت كان يترصده مع أتنه (2)، يقول أبو ذؤيب (3):

حَتَّى إِذَا جَزَرَتْ مِيَاهُ رُزُونِهِ وَبِأَيِّ حِينٍ مِلَاوَةٌ تَتَقَطَّعُ
ذَكَرَ الْوُرُودَ بِهَا وَشَاقَى أَمْرَهُ شَوْمٌ وَأَقْبَلَ حَيْنُهُ يَتَّبِعُ
فَكَأَنَّهَا بِالْجَزَعِ بَيْنَ يُنَابِعِ وَأَوَّلَاتِ ذِي الْعَرْجَاءِ نَهَبٌ مُجْمَعُ
وَكَأَنَّهِنَّ رِيَابَةٌ وَكَأَنَّهُ يَسَرُّ يُفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ
وَكَأَنَّمَا هُوَ مَدُوسٌ مُتَقَلِّبٌ فِي الْكَفِّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَضْلَعُ

فما أن ينقطع الماء ويجف الزَّبيع، حتى ينطلق بأتنه إلى مورد آخر أكثر ماءً، وما علم أنه يذهب إلى حتفه ونهايته بأرجله، فحث أتنه على التَّوجُّه إلى المورد الجديد كثير الماء، فكأنها وهي تسير مجتمعة

(1) الهذليون، الديوان، 1/ 4 - 5؛ أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 146 - 148؛ الحدثان: المصائب والبلايا، الجون: الأبيض والأسود، السراة: أعلى كل شيء والمراد أعالي الجبال والهضاب، الجدائد: جمع جدود وهي الأتان السمينية التي خفَّ لبنها، الصخب: شديد الصوت، الشوارب: عروق في الحلق، والمراد أنه كثير النقيق، أبو ربيعة: رجل من بني شيبان، المسبع: المهمل الذي لا يعمل، الجميم: النبات أول خروجه من الأرض، السَمَحَج: الأتان الطويلة دون ارتفاع في السماء، القنأة: الرمح، أزعلته: نشطته، الأمرع: جمع مرع وهو الخصب، القرار: مكان استقرار الماء، القيعان: الأرض السهلة المطمئنة، الوابل: المطر الشديد، أجم: أقام وثبت ودام، البرهة: المدة الطويلة من الزمن، يقطع: ينقطع.

(2) ينظر: نورة الشملان، أبو ذؤيب الهذلي: حياته وشعره، ص 57.

(3) الهذليون، م. س، 1/ 5 - 6، أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 149 - 153؛ جزرت: نقصت، الرزون: جمع رزن وهو الموضع الغليظ المنخفض، الملاوة: الزمن الطويل من الدهر، تنقطع: تنقطع، الورود: الذهاب إلى منابع المياه ومخازنها، شاقى: غالب، الشؤم: النحس، الحين: الهلاك والدمار، يتبع: يظهر ويحيى قليلاً قليلاً، افتهن: طردهن فنونا من الطرد بمعنى جرى بهن أنواعاً من الجري، السواء: وسط الجبل أو الأكمة، بثر: بمعنى كثير، عانده: عارضه، المهيع: البين الواضح الواسع، الجزع: منعطف الوادي، وينابيع: اسم موضع، العرجاء: أكمة أو هضبة، الرابية: الجلدة التي تجمع قذاح الميسر والمقصود: مجموعة من القذاح أنفسها، اليسر: صاحب الميسر الذي يضرب بالقذاح، يفيض: يرسل ويدفع، يصدع: يحكم ويفرق ويميز بينها، المدوس: الحجر الذي يجلو به الصيقل السيوف، متقلب: متحرك، الأضلع: الأصلب الأغلظ.

أشبهه بأبل انتهبت وضم بعضها إلى بعض، وعندما تنطلق كأنها أقذاح جمعها صاحب قذاح الميسر ثم غطاها بخرقه ثم نثرها. أما الحمار الوحشي فهو في صلابته وشدته أشبه بالحجر الذي يصقل السيوف، بل هو أغلظ وأشد، وتستمر الصورة الحركية عبر رحلة الذهاب إلى المورد الجديد عبر الأودية، حتى وصلن المورد مع آخر الليل، يقول أبو ذؤيب (1):

فَشَرَعْنَ فِي حَجَرَاتٍ عَذْبٍ بَارِدٍ	حَصَبِ الْبِطَاحِ تَغِيبُ فِيهِ الْأَكْرَعُ
فَشَرِبْنَ ثُمَّ سَمِعْنَ حَسًّا دُونَهُ	شَرَفُ الْحِجَابِ، وَرَيْبَ قَرَعٍ يُقْرَعُ
وَنَمِيمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ	فِي كَفِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَقْطَعُ
فَنَكِرْزُهُ فَنَفَرْنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ	سَطْعَاءُ هَادِيَةٍ وَهَادٍ جُرْشُعُ
فَرَمَى فَأَنْفَذَ مِنْ نَجُودٍ عَائِطٍ	سَهْمًا فَخَرَّ وَرِيْشُهُ مُتَصَمِّعُ

ويصف الشاعر الأتْن وورودها الماء، وقد مددن رقابهن إليه يتلذذن في شربه، وما إن ملأن أجوافهن من الماء، وفي صورة صوتية سمعية أحس الحمار وأنته بصوت غريب يقترب منهن، فأخذن يلتفتن بعدما رفعن رؤوسهن من الماء، فوجدن صائداً يتربص بهن وقد حمل أدوات صيده من النبال والسهام الكثيرة، ثم ينتقل الشاعر إلى صورة حركية عندما رسم صورة الأتْن وقد فزعن وخفن وهربن واحتمين بالفحل والتصقن به، فرمى الصائد نباله فأصاب إحدى الأتْن الجريئة فخرت على الأرض صريعة. ويحسن الصائد العمل وهو يرجع يده وراء ظهره ليتناول سهماً بعد الآخر، ثم يطلقه على الأتْن في خواصرها فتخترق أجسامها وتستقر في أحشائها، فكانت بين مصروعة مقتولة وبين مجروحة هاربة يتحرك فيها النفس لكنها تعاني من آلام الموت، فكانت لكثرة السهام والنبال أن الأتْن تعثرت فيها، ثم يرسم صورة لونية عندما صور الدماء التي تسيل من جسمها كأنها برود حمراء مخططة، فيقول أبو ذؤيب (2):

فَبَدَأَ لَهُ أَقْرَابُ هَذَا رَائِغًا	عَجَلًا فَعِيْثٌ فِي الْكِنَانَةِ يُرْجَعُ
فَرَمَى فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مِطْحَرًا	بِالْكُشْحِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ
فَأَبْدَهْنَ حُتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ	بِذِمَائِهِ أَوْ بَارِكُ مُتَجَجِّعُ
يَعْثُرْنَ فِي حَدِّ الظُّبَاتِ كَأَنَّمَا	كُسِيَتْ بُرُودٌ "بَنِي تَزِيدٍ" الْأَذْرُعُ

(1) الهذليون، الديوان، 1/ 7 - 8، أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 154 - 156؛ شرعن: قدمن رؤوسهن للشرب، الحجرات: جمع حجرة وهي الناصية، حصب البطاح: نقي الماء وعذبه، الكراع: قوائم الأتْن، الحس: الصوت، شرف الحجاب: ما ارتفع من حجاب الصائد، القرع: صوت الوتر، الريب: المخيف، النميمة: همهمة الصياد، المتلبب: المتحزم بثوبه ليكون خفيف الحركة، الجشء: القضيبي، الأجش: من في صوته خشونة، الأقطع: النصال، نكرنه: خفنه، نفرن: وثبن في فزع، امترست به: احتكت بالصائد ولامسته، السطعاء: طويلة العنق، هادية: متقدمة، الجرشع: منتفخة الجنبين، النجود: الأتان الطويلة على وجه الأرض، العائط: لا تحمل وليست بعافر، ريشه متصمغ: متماسك من تجمد الدم عليه.

(2) الهذليون، م. س، 1/ 7 - 8، أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 157 - 159؛ الأقرباب: جمع قرب وهو الخاصرة، رائغاً: هارباً، عيْث في الكنانة: أدخل يده في صنف السهام خلف ظهره، يرجع: يردها مرة أخرى وأخرى، فالحق صاعدياً: رسمي سهماً مرعفاً من سهام صعدة في اليمن، مطحراً: ملتصق ريشة السهم، الكشح: ما بين الخاصرة والضلع الخلفي للفريسة، أبدهن: قتلهن وأبادهن، الحتوف: جمع حتف وهو الموت، الذماء: بقية النفس، المتجعجع: المصروع الملتصق بالأرض، الطبات: أطراف النصل إلى أسفل، البرود: جمع برد وهو الثوب المعلم، بنو تيزيد: قوم من قضاة، الأذرع: أيدي الأتْن.

وكان الظلم الاجتماعي أحد أسباب التشرد والانبثات عن القبيلة، فعاش العديد من أبناء هذيل معزولاً منفرداً، فثبات الأحوال من المحال، وتقلب الأيام سنة كونية، فوجد أسامة بن الحارث ضالته في تصوير ما يعانيه من ظلم التشرد وآلامه، وفي صورة حركية اعتمدت المطاردة تناول صورة حمار الوحش الذي طردته الخيل عن أثنه ظلماً وعدواناً، فيقول (1):

فوالله لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ طَرِيدٌ بِأَوْطَانِ الْعَلَايَةِ فَارِدٌ
فَلَاهُ عَنِ الْآلَافِ فِي كُلِّ مَسْكَنٍ إِلَى لَحَقِ الْأَوْزَارِ خَيْلٌ قَوَائِدُ

إن صورة الحمار الوحشي الباحث عن أثنه هي ذاتها صورة الإنسان الذي لا ينفك بحثاً وراء المرأة، فلديها يجد المودة والسكينة والاستقرار والأنس، فهو لا يعيش منعزلاً عن حاجته الجسمية والاجتماعية. ومهما طال الفراق والاعتراب بين الحمار وأثنه، إلا أن حميمية العلاقة وثباتها تظل قائمة بين الطرفين يحرص كل منهما على الحفاظ عليها، فهي علاقة ورابطة تكاملية لا يستغنى أحد الطرفين عن الآخر.

وفي صورة حركية مستمرة رسم أمية بن أبي عائذ علاقة الحمار الوحشي بأثنه القائمة على التواصل القائم على حركة دائمة من المد والجزر في العلاقة، فيقول (2):

إِذَا غَرِبَ عَنْهُمْ ارْتَفَع ——— نَ أَرْضاً وَيَغْتَالُهَا بِاِغْتِيَالِ
يَجِيئُ عَلَيْهِنَّ جِيَّاشُهُ وَهُنَّ جَوَافِلُ مِنْهُ جَوَالِ

فكأن الشاعر من خلال صورة عدو الحمار الوحشي المنقطع وراء أثنه يرسم طبيعة العلاقة بينه وبينها، فعلاقته بأثنه تتراوح بين بعد وقرب وحميمة وجفاف. وتستمر الرحلة بكل ما فيها من شقاء وإرهاق، وترقب وتحفز، إلى أن يصل الحمار بأثنه إلى مورد الماء رغم ما اكتنف الرحلة من مهالك وأخطار، ويختتم أمية بن أبي عائذ الرحلة واصفاً الصائد في صورة معنوية مقبلة تحمل في طياتها بعداً نفسياً، وحكماً اجتماعياً بحقه، فيقول (3):

فَلَمَّا وَرَدَنَ صَدْرَنَ النَّقِيلَ كَأَوْبِ مَرَامِي غَوِيٍّ مُغَالِي
فَأَسْلَكَهَا مَرَصِداً حَافِظاً بِهِ ابْنُ الدَّجِيِّ لَاصِقاً كَالطَّحَالِ
مُقِيَّتاً مُعِيَّداً لِأَكْمَلِ الْقَنِيبِ صِ ذَا فَاقَةٍ مُلْحَمًا لِلْعِيَالِ

ويقدم الشاعر مورد الماء رمزاً للتضاد والتناقض، فالحمار الوحشي يقودها إلى حتفها، وهي تعتقد أنه يقودها إلى الحياة والاسترخاء.

(1) الهذليون ، الديوان ، 202 / 2 - 203 ، العلاية : اسم موضع، الفارد: الممتلئ من الحمير، فلاه: نحاه، لحق الأوزار : لحق بالملاجي، خيل قوائد : فالخيل التي نحته ألزمته الملاجي.

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 180 - 182؛ غربه : حدثه ونشاطه، يغتالها: يدركها، جوافل: جمع جافل وهو الهارب.

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 182 - 184؛ النقيل : المناقلة في السير ، أوب: رجوع ، المرامي : السهام ، مغالي : الذي يغالي أيهما أبعد سهماً، فأسلكها: جعلها تسلك طريقاً إلى مرصده ، ابن الدجي : اسم موضع يتوارى فيه الصائد، لاصقاً كالطحال : ملتصق في قترته كما لصق الطحال بالجنب ؛ مقيت : مقتدر ، معيد : متعود ومعتاد ، ملحم : يطعم عياله اللحم .

2. الثور الوحشي وبقرته:

أمام مصائب الحياة ودواهيها؛ وجد الهذليون متنفساً لهمومهم، وتخفيفاً لمصائبهم عبر الحديث عن الثور الوحشي الذي بات رمزاً لكل المصائب والابتلاءات، فاتجه إلى وصفه معظم الشعراء الهذليين متخذين منه أنموذجاً للقوة والعزة والكرامة، ورمزاً للمجد والبطولة، يقول أبو ذؤيب⁽¹⁾:

[الكامل]

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ	شَبَّبَ أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ مَرْوَعُ
شَعَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ فَوَادَهُ	فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ الْمُصَدِّقَ يَفْزَعُ
وَيَعْوِذُ بِالْأَرْضِ إِذَا مَا شَفَّهَ	قَطَرَ وَرَاحَتَهُ بَلِيلَ زَعَزَعُ
يَرْمِي بَعَيْنِيهِ الْغُيُوبَ وَطَرْفَهُ	مُغْضٍ، يُصَدِّقُ طَرْفَهُ مَا يَسْمَعُ
فَغَدَا يُشْرِقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ	أُولَى سَوَابِقِهَا قَرِيْبًا تُوزَعُ
فَاهْتَا جَ مِنْ فَرْعٍ وَسَدَّ فُرُوجَهُ	غُبْرَ ضَوَارٍ: وَافِيَانٍ وَأَجْدَعُ

ويتحدث الشاعر عن تقلب الدهر وتوالي المصائب، في صورة كاملة للثور الوحشي اشتملت على الحركة والصوت واللون فيقدمه خائفاً مذعوراً لا يشعر بالأمن والطمأنينة؛ فالكلاب الضارية أقضت مضجعه بعد أن كان آمناً في مرعاه، فأصبح يخاف من طلوع شمس الصباح التي ينطلق الصائدون معها بحثاً عن صيد، فنجده يحتمي بشجرة الأرضي كلما حزنه أمر سواء أكان مطراً أم ريحاً باردة، أم شعر بحركة صائد، فهو يرقب مقدم أعدائه، وسمعه مصغ بكل حذر وتوجس، يصدق ما يقع بصره عليه من إحساس بالخوف والخطر، ويتجنب كل خطر يتهدده برفع حالة الإحساس السمعى والبصرى لديه. وما أن يجف ظهره مما علاه من الندى، حتى تجتمع كلاب الصيد الغبر مع بعضها لتتطلق وراءه تريد صيده وافتراسه، وتتملكه حالة من الهيجان والفرع؛ فيملاً ما بين قوائمه بالعدو الشديد الذي لم يدع انفراجاً بينها لسرعة حركتها، وتدخل الكلاب - التي قطعت آذان بعضها - بين قوائمه، وأنته من جميع وجوهه، حتى لم يجد له وجهاً ينفذ منه.

وتحتدم المعركة بين الثور الوحشي والكلاب الضارية، فلا خيار لها سوى الإيقاع بالثور الوحشي فريسة. أما هو فيعاني من قلق وخوف على مصيره الذي بات مهدداً، فلم يعد يملك سوى البحث عن خطط للنجاة بالنفس سواء بالفرار من المواجهة الذي قد يفضي إلى النجاة، أو بالمواجهة الفعلية التي قد

(1) الهذليون ، الديوان ، 10 / 1 - 12 ، الشيب الثور المسن ، أفزته : طردته ، الضاريات : المتعودات على الصيد ، الصبح المصدق : المضيء ، الأرضي : شجر ينبت بالرمل طوله قدر قامته ورائحته طيبة ، شفه : جهده ، راحته : أصابته ريح ، بليل : ريح شمالية باردة تنضح بالماء ، زعزع : ريح شديدة ، الغيوب : الموضع الذي لا يرى ما وراءه ، توزع : تكف ليجمع بعضها إلى بعض ، الفروج : ما بين القوائم ، ضوار : قد ضربت وتعودت على الصيد .

تفضي إلى الموت والهلاك، ولكن ما مساحة النّجاة النّاتجة عن الفرار وقد بدأت المواجهة الفعلية؟، يقول أبو ذؤيب (1):

يَنْهَشْنَهُ وَيَذْبُحْنَهُ وَيَحْتَمِي عَبْلُ الشَّوَى بِالطَّرَتَيْنِ مُوَلِّعُ
فَنَجَّا لَهَا بِمَذْلَقَيْنِ كَأَنَّمَا بِهِمَا مِنَ النَّضْحِ الْمَجْدَحِ أَيْدَعُ
فَكَأَنَّ سَفُودَيْنِ لَمَّا يُفْتَرَا عَجَلًا لَهُ بِشَوَاءٍ شَرِبَ يُنْزَعُ
فَصَرَعْنَاهُ تَحْتَ الْغُبَارِ وَجَنَّبُهُ مُتَتَرِّبٌ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
حَتَّى إِذَا ارْتَدَّتْ وَأَقْصَدَ عَصْبُهُ مِنْهَا وَقَامَ شَرِيدُهَا يَتَضَرَّعُ

وفي سياق صورة حسيّة ماديّة - وُصِفَ فيها جسم الثّور الوحشي ولون دماء الكلاب على قرني الثّور ورائحة الشّواء المنبعثة من سفودي الشّواء - ؛ عرض الشّاعر الكلاب تنهش أطرافه بأسنانها الحادة، وهو يحول دون وصولها إليه بقوائمه الغليظة، وأمام تكالبها، وكثرتها التي اضطرتته إلى المواجهة الفعلية، استدار وواجهها وجهاً لوجه، ثم بدأ هجومه عليهن مستخدماً قرنيه الصّليبين الحادّين الأملسين، وأنزل بها الطّعن والقتل حتى باتا ملطخين بالدماء التي التصقت به حتى كأنما هي الزّعفران الأحمر، وأخذ يُعْمَلُ قرنيه في أجوافها تنكيلاً، كأنهما سفودين جديدين لم يشو بهما، ولم تلتصق بهما رائحة اللحم المشوي. وجاءت صورة القرون الملطخة بالدم، الخارجة من بطون الكلاب أشبه بصورة حديدتي الشّواء حين خروجها من الثّور حمراء اللّون، ملتهبة، وهي صورة فيها تناقض مركب بين الشّكل واللّون، مزجت بين إشراق اللّون وبياضه الذي يعطي جمالاً وبين الدّم والنّار، وفيها فزع وألم.

وأمام حالة التّقهر التي ألّمت بالكلاب يتدخل الصّائد - في مشهد المعركة الأخير - ليدفع عمّا تبقى من كلابه الأذى، ولينتقم من الثّور الذي أفسد عليه خطته، ويستكمل أبو ذؤيب الصّورة قائلاً (2):

فَرَمَى لِيَنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى لَهُ سَهْمٌ فَأَنْفَذَ طَرَّتِيَهُ الْمِنْزَعُ
فَكَبَّأَ كَمَا يَكْبُو فَنِيَقُ تَارِزُ بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ

ويتدخل الصّائد لينقذ ما تبقى من كلابه الهاربة من الثّور، فيطلق سهامه الدّقيقة، لتخترق جنبي الثّور الوحشي، وفي صورة حركيّة واضحة يسقط الثّور متهاكاً على الأرض، كأنه فحل إبل يابس هوى على الأرض من مكان عالٍ، فتتبعث الأغبرة من الأرض من حوله.

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 12 - 14 ، ينهش : تناول اللحم بمقدمة الأسنان، يذبهن : يدفعهن ويردهن ، يحتمي: يمتنع، عبل الشوى: غليظ القوائم، الطرّتان : خطان يفصلان بين الجنب والبطن ، مولع فيه ألوان مختلفة، نحا : تحرف واستدار وتهاوى، بمذلقين : بقرنين محددين، النضج المجدح: الدّم الي حركه الثور بقرنه في أجواف الكلاب، الأيدع : الزعفران وهو صمغ أحمر؛ السفودين : السفود هي حديدة معقوفة يشوى بها اللحم ، لما يقترا : لم يشو بهما ولم يكن لهما قنار ، القنار : رائحة اللحم المشوي، ارتدت الكلاب: رجعت ، أقصد عصبه : قتل مجموعة من الكلاب، شريدها : ما بقي منها ، يتضرع: يتصاغر ويتضاعف.
(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 14 - 15 ، فرها : بقيتها ، الفنيق : الفحل من الإبل ، تارز : يابس ، أبرع : أعظم .

وفي سياق متصل، جاءت صورة نهاية الثور الوحشي لدى أبي ذؤيب في داليته مختلفة تماماً في نهايتها عن الصورة التي وردت في عينيته، إذ كانت الكلاب هي التي كبت وكساها الدم بلونه الأحمر؛ لشدة ما لاقت من الثور الوحشي في معركتها معه التي انتهت بانتصاره، فيقول (1):

[البسيط]

غَادَرَهَا وَهِيَ تَكْبُو تَحْتَ كَلْكَلِهِ يَكْسُو النُّحُورَ بَوْرِدٍ خَلْفَهُ الزَّبْدُ
حَتَّى إِذَا أَمْنَتْهُ كَانَ حَيْنُئِذٍ حُرّاً صَبُوراً فَنِعْمَ الصَّابِرُ النَّجْدُ

وعودته إلى قطيعه منتصراً فرحاً بإنجازه، فبات يمثل السلطة العليا التي توفر الأمن والاستقرار، وصار رمزاً للقوة التي تحتمل كف القدر وتحتمل أذى الآخرين، وقد عبر الشعراء عن كف القدر بتلك الرياح العاتية التي كانت تلفحه، وعبروا عن أذى الآخرين أو القوة المضادة بالصائد والكلاب (2)، فما الصائد وكلابه إلا وسيلة لإحداث الهزيمة بالثور الوحشي، بل هي مصائب الدنيا التي تحل بالإنسان، فحين تخلي الدنيا بينه وبين المصائب، أو بينه وبين الصائد وكلابه، فإنه ينتصر عليها بكل يسر وسهولة.

وقدّم ربيعة بن الكوند البقر الوحشي ضمن مشهد الليل وقد انتابتها حالة من الذعر والخوف (3)، بينما عكست صورة البقرة الوحشية عند عمرو بن الداخل حالتها النفسية، وما عرف عنها من تخوف وتوجس وفرع، في حركتها وأنفاسها وهي تبحث عن ملجأ هرباً من الصائد الذي يترصدها بأسهمه الدقيقة الحادة، فتضيق بها السبل فتحشر بين جبلين، فيتمكن منها الصائد. واهتم الشاعر بالتفاصيل، فأبرز صوت نشيج البقرة، وصورة الصائد الذي قدّمه في أسوأ صوره المادية والمعنوية، فهو غبي لا يجيد الصيد، حقير الثياب، مغبر الوجه قبيح المنظر، ثم يصف السهام التي شبهها بمتن الذئب استواءً وقصرًا، وكالأفعى طولاً دون إعجاج، فقال (4):

[الوافر]

وَهَادِيَةٌ تَوَجَّسُ كُلَّ غَيْبٍ لَهَا نَفْسٌ إِذَا سَامَتْ نَشِيجُ
تُصِيخُ إِلَى دَوِيِّ الْأَرْضِ تَهْوِي بِمَسْمَعِهَا كَمَا نَطَفَ الشَّجِيجُ
أَتِيحَ لَهَا أُغْيِرُ ذُو حَشِيفٍ غَبِيٌّ فِي نَجَاشَتِهِ زُلُوجُ

فمحبوبته التي تسبق النساء جمالاً وحياءً تشبه البقرة الوحشية التي تتقدم قطعاً من الأبقار، في فرعها وتوجسها، ففي صورة سمعية واضحة دقيقة يسمع الشاعر صوت أنفاس المحبوبة التي تشبه البقرة الوحشية كأنه نشيج ينقلع من جوفها قلعا، تصيخ السمع حذراً مخافة أن تؤخذ على حين غرة. فالمحبوبة لجمالها وحسنها تسير وقد استيقظت جميع حواسها، تحتمي من نظرات الناس، لأنها تعلم أن فيها ما

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 128 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 90 ؛ الكلل: صدر الثور، الورد: الدم ، خلفه الزبد: نفخ الجرح بالزبد فجاش به، حرأ: كريماً عزيزاً ، النجد: الشجاع ذو النجدة.

(2) نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص 173 .

(3) ينظر : السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 656 .

(4) الهذليون ، م . س ، 3 / 99 - 100 ؛ هادية : بقرة وحشية تتقدم الأبقار، توجس: تسمع على ذعر، سامت : سرحت، النشيج: انتحاب صدرها وهو صوت شبيه بالنفس ، تصيخ : تصغي وتسمع، ذو حشيف : ثوبه بال، النجش : حوش الصيد، زلوج : يخنقي بسرعة

يجذب عيونهم، فيرمقونها بنظرات العجب والانبهار، فتجدها حريصة لا تبدي ليناً في حركة أو سلوك، عصية على من يترصدها بسوء.

وعمد الهذليون في سياق تقديم صورة الثور الوحشي إلى رسم صورة حسية له، اشتملت على اللون والملبس، مبرزين سماته وصفاته المادية والمعنوية، عندما وصف ساعدة بن جؤية هيئته وشكل جسمه، فقال (1):

وَلَا أَسْفَعُ الْخَدَيْنِ طَاوٍ كَأَنَّهُ إِذَا مَا غَدَا فِي الصُّبْحِ عَضْبٌ مُهْنَدٌ
كَأَنَّ قَرَاهُ مُكْتَسٍ رَازِقِيَّةً جَدِيداً بِهَا رَقْمٌ مِنَ الْخَالِ أَرَبْدٌ

فالثور أسود الخدين، صلب قوي كأنه حسام مهند، وجسمه أبيض فيه خطوط سود، كالبرود الحريرية الناعمة. ويستكمل بعض الشعراء وصف الثور الوحشي المادي، فيقول أمية ابن أبي عائذ (2):

[المتقارب]

هَجَانِ السَّرَاةِ تَرَى لَوْنَهُ كَقُبْطِيَّةِ الصَّوْنِ بَعْدَ الصَّقَالِ
حَدِيدِ الْقَتَاتَيْنِ عِبِلِ الشَّوَى لَهَا قِي تَلَأْوُهُ كَالْهَلَالِ

فثور أمية أبيض الظهر كثوب قبطي مصقول حديث العهد، صلب القرنين، غليظ القوائم، أسود العينين، أخمص البطن، وهو يكرر ذات الأوصاف التي قدمها ساعدة بن جؤية.

3. الوعل :

جاءت معظم صور الوعل ضمن تسجيل مناظر الصيد والصائد، وأظهرت حالة القلق النفسي الذي عاناه الإنسان الهذلي في مواجهة صروف الدهر، فالشعراء لم يعتنوا كثيراً بوصف دقائق شكل الحيوان، بل جسدوا حالات الإنسان في قوته ومرضه، وشبابه وشيخوخته.

فجاء الوعل مُسنّاً، طال عمره حتى أشرف قرنه وتنتى، وهو يرعى في أرض منبسطة تحت السحاب الرقيق، ويبيت منقبضاً في كناس مستتراً بين الشجر يلتمس الأمن والدفع، كلما توجس من

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 242؛ أسفع : حمرة إلى سواد ، الطاوي: الخميص البطن، عضب : قاطع، المهند : السيف؛ رزافي: أبيض فيه خطوط سود، أريد : ليس بصافي اللون ، الخال : برود خضر فيها خطوط.
(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 176؛ هجان السراة : الثور الوحشي الأبيض الظهر، قبطي : ثوب ينسب إلى القبط، الصون : مصان، حديد القتاتين : حديد القرنين، عبل الشوى: غليظ القوائم، لهاق : أبيض.

حركة صائد يترصده، كرجل عجوز عقه بنوه فبات وحيداً ذليلاً يلتمس الأمن خلف الصخور،
فيقول صخر الغي (1):
[الطويل]

فَعَيْنِي لَا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ فَادِرٌ بَتِيهُورَةٍ تَحْتَ الطَّخَافِ الْعَصَائِبِ
تَمَلَّى بِهَا طُولَ الْحَيَاةِ فَقَرْنُهُ لَهُ حَيْدٌ أَشْرَافُهَا كَالرَّوَابِجِ
يَبِيتُ إِذَا مَا آنَسَ اللَّيْلُ كَانِسًا مَبِيتَ الْغَرِيبِ ذِي الْكِسَاءِ الْمُحَارِبِ
مَبِيتَ الْكَبِيرِ يَشْتَكِي غَيْرَ مُعْتَبٍ شَفِيفَ عُقُوقٍ مِنْ بَنِيهِ الْأَقَارِبِ

وما أشبه صورة الوعل بالكهل الذي أمسى عبثاً على أبنائه وأقاربه، حتى بات يشعر بغربة معهم، فتراه يفضل الموت على حياة ملوها الذل والهوان.

وفي معرض الشكوى من الهم، يرسم ساعدة بن جؤية صورة الوعل، وهو يرعى بين الشجر، وأحاطت به آبار الماء، وقد اكتنفته حالة من الفزع والتّرقب، فيقول (2):
[الكامل]

تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ ذُو حَيْدٍ أَدْفَى صَلُودٍ مِنَ الْأَوْعَالِ ذُو خَدَمٍ
يَأْوِي إِلَى مُشْمَخِرَاتٍ مُصْعَدَةٍ شُمٌّ بِهِنَّ فُرُوعِ الْقَانِ وَالنَّشَمِ
مِنْ فَوْقِهِ شَعْفٌ قَرٌّ وَأَسْفَلُهُ جِيٌّ تَنْطِقُ بِالظَّيَّانِ وَالْعَتَمِ
مُوكَّلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَنْظُرُهَا مِنَ الْمَغَارِبِ مَخْطُوفُ الْحَشَا زَرَمٍ

وغاص ساعدة في أعماق الوعل، فقدّمه متوجساً قلقاً نافرماً من كل الحيوانات حتى بات يظن شجر الصّوم - الذي يشبه الإنسان - إنساناً يريد الإيقاع به، فالتجأ إلى أجمة يرقبها خشية منها على نفسه، وفي هذا تشخيص يدل على الدقة في التأمّل، وميل إلى النزعة الحسيّة وشدة التفحص التي امتلكها ساعدة عندما وصف الوعل، فأكسب الوصف قوة وتشويقاً .

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 52 - 53 ؛ الفادر: الوعل المسن، التيهورة: الأرض الرملية السهلة الممتدة، الطخاف: الغيم الرقيق، العصائب: المتقطعة، يقول الشاعر: أن الوعل المسن متوحش في الرمل لا يصل إليه شيء، وهو في موضع مخصب أصابه مطر؛ تملّى: تمتع بالعيش في هذه الأرض، لقرونه حيد: في قرنه دوائر وعقد، أشراف قرونها: أطرافها، الروابج: مفاصل أصول الأصابع التي تلي الأنامل، شيه ما نتأ من قرنه بما نتأ من أصول الأصابع إذا ضمت الكف (اللسان: مادة رجب)؛ يبيت هذا الوعل كانساً إذا أبصر الليل في كناس، كمبيت رجل عليه كساؤه فعادى أهله فتحنى عنهم ، يبيت منقبضاً متتحياً ؛ فهو لا يطلب رضاه " غير معتب " ، يشتكي ألم القطيعة " شفيف عقوق " .

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 193 - 195 ؛ ذو حيد : وعل قرونه ملتوية، أدفى: في قرونه حذب فقرناه منحنيان إلى ظهره، صلود: يضرب الصخرة بقوائمه فيصدر لذلك صوتاً ، ذو خدم : في قوائمه بياض، والبياض أغلب من السواد ، بخلاف الأعصم الذي فيه اللون الأبيض أقل من الأسود؛ المشمخرات: المناطق المرتفعة، مصعدة: عالية، القان والنشم: أشجار تنمو في جبال تهامة ؛ الشعف: رؤوس الجبال، القر: البرد، الجي: مناقع الماء وجفارها ، الظيان والعتم: شجر، فالوعول يعيش في جبال مرتفعة غنية بشجر القان والنشم، فمن فوقه رؤوس الجبال الباردة، ومن أسفله جفار الماء المحاطة بشجر الظيان والعتم ؛ شدوف الصوم : شخوص شجر يشبه الناس، فالوعل يرقبه خشية أن يكون أناساً، المغارب: أماكن يتوارى فيها الوعل، فالوعل مخطوف الحشا: مفزوع خائف، زرم: ينقطع بوله قبل تمامه خوفاً .

ويستكمل الشاعر الصورة بنظرة تشاؤمية، فرغم إقامة الوعل في قمة الجبل يعترضه صائد كان يترصده طوال الليل رغم ما توخاه من الحذر، فما أن يميل ظل النهار إلى الزوال، حتى يرميه الصائد بسهم يخترق صدره ويخرج من الشق الآخر، فيقول⁽¹⁾:

حَتَّى أَتِيحَ لَهُ رَامٍ بِمَجْدَلَةٍ جَشْءٍ وَبَيْضٍ نَوَاحِيهِنَّ كَالسَّجَمِ
فَظَلَّ يَرْقُبُهُ حَتَّى إِذَا دَمَسَتْ ذَاتُ الْعِشَاءِ بِأَسْدَافٍ مِنَ الْغَسَمِ
ثُمَّ يَنْوُشُ إِذَا آدَ النَّهَارُ لَهُ بَعْدَ التَّرْقُبِ مِنْ نَيْمٍ وَمِنْ كَتَمِ
دَلَى يَدِيهِ لَهُ سَيْرًا فَأَلْزَمَهُ نَفَّاحَةً غَيْرَ إِنْبَاءٍ وَلَا شَرَمِ
فَرَاغَ مِنْهُ بِجَنْبِ الرِّيدِ ثُمَّ كَبَا عَلَى نَضِيٍّ خِلَالَ الصَّدْرِ مُنْحَطِمِ

لم يجد ساعدة أفضل من الوعل عندما اتخذها رمزاً للمنعة والصمود أمام المحن والموت، مستعيناً بالزمان والمكان ليضيفان رمزية على الوعل، برز ذلك عندما افتتح حديثه عنه بقوله: " تالله يبقى على الأيام "، فالزمان وتقلباته، والأيام وتداولها لا زالت راهنة في نفس الشاعر " وبما أن الشاعر فنان يستطيع أن يجسد رؤيته الداخلية، وشعوره الدفين على ما أمامه من موجودات ومظاهر، فقد أهدها هذا التأمل إلى ملاحظة مظاهر الخلود، والاستمرار والتتابع، ومن ثم وجد فيها الزمن وخلوده، ومدى قصر حياته هو بالنسبة إلى ذلك الزمن أو الخلود"⁽²⁾. فتكرار كلمة " الدهر " أو " الأيام " أو " الحدثان " إنما تدل على نفسية قلقة مضطربة في محيط ثابت لا يستطيع له الشاعر مقاومة أو دحراً، إلا الاستسلام له.

واستمراراً لمشهد الصيد يرسم ساعدة مرة أخرى صورة الوعل وهو يرثي ابنه، فالأيام لا تبقى على انسيابها وهدوئها، فتقلب الدنيا وفقدان الأحبة سنة كونية، فالوعل المتوحش يفاجأ بالصائد وهو يرمى آمناً، وتخترق سهام الصائد جوفه وترديه قتيلاً، يقول ساعدة⁽³⁾:

[الطويل]

أَرَى الدَّهْرَ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَبُودُ بِأَطْرَافِ الْمَنَاعَةِ جَلْعُدُ
تَحَوَّلَ لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ كَأَنَّهُ بِشَفَّانٍ رِيحٍ مُقْلِعِ الْوَيْلِ يَصْرُدُ
تَحَوَّلَ فَشَعْرِيرَاتُهُ دُونَ لَوْنِهِ فَرَائِصُهُ مِنْ خَيْفَةِ الْمَوْتِ تُرْعَدُ
وَشَفَّتْ مَقَاطِيعُ الرُّمَامَةِ فُؤَادَهُ إِذَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ الْمَغْرَدَ يَصْلُدُ

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 195 - 197 ؛ يرقبه : يترصده ويتابعه ، دمست : التبيست الظلمة ، أسداف : الظلمة ، الغسم : اختلاط الظلمة وهو غبس الليل وسواده ؛ ينوش : يتناول ويأكل ، آد النهار : مال للزوال ، فإذا آد الظل أكل حينها مستغلاً غفلة الناس حين يميل الظل، والنيم والكتم : شجر، دلى يديه : رماه من فوقه ، سيراً : وهو يمشي ، فألزمه : أصابه مباشرة فنفج بالدم ، غير إنباء: لم ينب سهمه، لا شرم : لم يجرح جلده ولكنه نفذ حتى خرج من الشق الآخر ؛ فراغ منه : فابتعد عنه هارباً والسهم فيه، الريد : حرف من حروف الجبل ، النضي : سهم بغير ريش ، خلال الصدر ك دخل بين أطباق الضلوع .

(2) صلاح عبد الحافظ ، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، ص 6 .

(3) الهذليون ، م . س ، 1 / 240 - 242 ؛ الأبود : الأبد وهو المتوحش يريد الوعل ، المناعة : اسم جبل ، الجلعُد : الغليظ ؛ تحول لوناً: يقشعر فيخرج باطن شعرته فيجئ لون غير لونه ثم يسكن فيعود لونه الأول ، شفان ريح مقلع الويل : الريح الباردة ، الصرد : أشد البرد ؛ الفريضة : المضيغة التي تحت الكتف ؛ شفت : أدت ، مقاطيع الرماة : سهامهم ذات النصل العريض، الصوت المغرد : الصوت المنبعث من ضرب الوعل أرجله بالصخر ، يصلد : يضرب الصخرة بيده فيسمع لها صوتاً ؛ خال : أنفذ السهم فيه، صويب : صائب ، معرد : منطلق من مكان بعيد .

فَجَالَ وَخَالَ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ بِهِ وَقَدْ خَلَّهٗ سَهْمٌ صَوِيبٌ مُعَرِّدٌ

وجاء الوعل عند ساعدة في هذه الصورة جباناً خائفاً مرتعداً، عركته نواذب الدهر فبات خائفاً يتقلب لونه لسماعه صوتاً خفيفاً - فهو يفرع من أقل الأشياء خطورة - ويرتعد فزعاً حين يصل إلى أذنيه صوت السهم وحركة الرماة.

وأبدع ساعدة عندما وظف اللون في صورته، فالريح الباردة تجعل الوعل يقشعر، فيخرج باطن شعره، فيجيء لون غير لونه، ثم يسكن فيعود لونه الأول، وكأنه يريد أن يشير إلى تبدل الحال، وإنقلاب الزمن، فهذا الأمان أو الاطمئنان الذي عاشه الوعل كان في الوقت ذاته قوة مدمرة لحياته وخطراً جسيماً يحيق به، فامتقاع اللون، والشعور بالريبة والقلق، وتقلب الأحوال، والفرائص المرتعدة إنما هي إرهاصات انهيار ودمار، فالهدوء النسبي الذي عاشه الوعل إنما كان أداة الدهر في طمأنته في طريقه نحو الاغتيال المفاجئ على يد الصائد .

كما وظف الصوت عندما أسمعنا الشاعر صوت حوافر الوعل وهي تصطدم بالصخر فيسمع لذلك رنة ونغمة، تعبيراً منه عن سخطه وغضبه، وتحديه لأعدائه. أما الحركة فتجلت في حركة شعر الوعل فيتغير لونه، ثم يعود إلى لونه السابق بعد السكون، وحركة قوائم الوعل وهي تضرب الصخر، أو حركته التأنية بعد أن أصيب بالسهم في وقت كان لا يتوقعه، وحركة السهم -عريض النصل- وهو ينفذ في فؤاده.

4. الظبي :

شغف الشعراء بالظبية لجمالها وخفتها، وجاءت أغلب الصور في غرض التسيب والغزل، بهدف إظهار جمال المحبوبة في صورة مثالية، فالمشترك في الصفات بين المرأة والظبي جعل الشعراء، يشبهون محبوباتهم بها، فشبّه أبو ذؤيب حبيبته⁽¹⁾ - في تلفتها - ظبية ذات خشف تقود صغيرها، وهي تتناول ثمر الأراك، وتجذب غصونه بفمها، فأكثر التلفت إلى خشفها حذراً عليه، وجعلها منفردة عن قطيعها تمييزاً، لأنها تتفرد في جمالها وروعته، فهي تختلف عن بقية القطيع، كما أن الشاعر يصف اختلاف الألوان في مخط جنبي الظبية، وأنها ترعى في أكمة دانية الثمار متدلية الأغصان، فاكتفت بالرطب عن الماء خلال شهري ربيع الأول والآخر في تلك الأكمة حتى جرت فيها السمّة بعد الهزال، ورقّت أبوالها بعد خثورة وغلظ، من طول ما رعت الرطب، ولم ترع اليابس الذي يهزل الأجسام ويغلظ الأبوال. فالصورة مجردة تظهر ظبية مع ولدها في محيط خصب، ترتعي الأراك زمناً طويلاً، فتشيع المودة والحميمية بين الظبية وولدها، فكانت هذه العلاقة تتجسد بشكل كامل ما بين الشاعر ومحبوبته، فإذا كانت الظبية تحنو على صغيرها، فإن محبوبة الشاعر تظهر قدراً من المودة تجاه الشاعر، فقيل: "

(1) ينظر: الهذليون، الديوان، 1 / 35 - 36 .

تعرض الغزالة في شعر أبي ذؤيب مرتبطة بالمرأة، فأم عمرو أحسن عند أبي ذؤيب من غزالة مطلق موشحة بالعلاية، تنوش ثمر الأراك في أكمة دانية الغصون، فيسود الثمر فاها⁽¹⁾، يقول أبو ذؤيب⁽²⁾:

فَمَا أُمُّ خَشْفٍ بِالْعَلَايَةِ شَادِنٍ تَنْوُشُ الْبَرِيرَ حَيْثُ نَالَ اهْتِصَارُهَا
مَوْلَعَةً بِالطَّرَتَيْنِ دَنَا لَهَا جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا
بِهِ أَبْلَتْ شَهْرِي رَبِيعٍ كِلَيْهِمَا فَقَدْ مَارَ فِيهَا نَسْوُهَا وَاقْتِرَارُهَا
وَسَوْدَ مَاءِ الْمَرْدِ فَاهَا فَلُونُهُ كَلَوْنَ النَّوُورِ فَهِيَ أَدْمَاءُ سَارُهَا

ورسم الشعراء الهذليون الظبية في صورة حسيّة أبرزت صفاتها الجسميّة، فهي عند ساعدة بن جؤية⁽³⁾ طويلة العنق، عيناها واسعة سوداء، وجسمها أبيض اللون مشرق، وجسمها ممثلي⁽⁴⁾. أما محبوبة عمرو بن الداخل، فجاءت كالظبية في حور عينيها وجمال مقلتيها، ولين عظامها ورشاققتها وروعة جيدها، وإشراق فمها، ووضوح أسنانها إذا ضحكت، وفي حنوها على صغيرها، وطوافها عليه، وتعهدا له⁽⁵⁾.

وغير بعيد عن الوصف المادي للظبية التي شبه المُنْتَخِلَ المرأة بها⁽⁶⁾، اهتم الهذليون بإبراز اللون باعتباره ميزة جماليّة ثابتة استطاعوا أن يسلطوا عليها الضوء، فدلت على قريهم من البعد المادي للحيوان في ديارهم، يقول أبو ذؤيب⁽⁷⁾:

كَأَنَّ ابْنَةَ السَّهْمِيِّ يَوْمَ لَقِيْتُهَا مُوشحةً بِالطَّرَتَيْنِ هَمِيحُ
بِأَسْفَلِ "ذَاتِ الدَّبْرِ" أَفْرَدَ خَشْفُهَا فَقَدْ وَلِهَتْ يَوْمَيْنِ فَهِيَ خَلُوجُ

فمحبوبته الشاعر أشبه بظبية موشحة بالبياض، ولها على جنبها خطان يفصلان لون البطن عن بقية جسمها، فالمحبة في دلالتها ودلعا أشبه بالظبية في تمايلها ورقتها ونعومتها.

(1) نصرت عبد الرحمن ، الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب ، ص 62 .
(2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 22 - 24 ؛ الخشف : الظبي أول مشيه، العلاية : اسم موضع ، شادن : ظبية قوي لحمها منفردة عن القطيع، نوش البرير: تتناول وتاكل ثمر الأراك ، نال اهتصارها : تجذبه ؛ مولعة : ملونة، الطرتان : حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن ، جنى أكمة: ما تجنيه ، يصفو عليها قصارها : كل قصير من أغصان شجرة الأيك فهو سابغ لها سهل تتناولها له؛ به أبليت: بهذا الثمر اكتفت بالرطب عن الماء، شهري ربيع : شهري ربيع الأول وربيع الآخرة ، مار فيها : جرى فيها نسوها وظهر سمنها وبدانتها، الاقترار : نهاية وغاية السمن ؛ سود ماء المرد فاها : أحال ماء ثمر البرير الغض فاه الظبية أسوداً ، كلون النور: جعله كلون دخان الشحم الذي يستخدم حين الوشم ، فهي أدماء : فالظبية بيضاء تعلو جدها غيرة .

(3) ينظر: الهذليون ، م . ن ، 1 / 168 - 170 .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 211 - 212 .

(5) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 98 - 99 .

(6) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 4 .

(7) الهذليون ، م . ن ، 1 / 59 - 60 ؛ الموشحة : يقصد الظبية الموشحة بالبياض، الطرتان : الخطان عند الجنين ، وهما خطان يفصلان لون البطن عن لون الظهر ، هميج : ضعيفة النفس ؛ ذات الدبر : اسم موضع ، ولهت : ذهب عقلها على ولدها ، الخلوج : التي انتزع ولدها منها .

ت. الحيوانات الضارية :

ومن الحيوانات الضارية التي تناولها الهذليون في ديوان شعرهم:

1. الذئب :

تناول الهذليون صورة الذئب في سياق الحديث عن السرعة في العدو والظفر بالفريسة، والضراوة حين الانقضاض على الغنم، يقول ساعدة بن جؤية⁽¹⁾:

وَكُلَّ شَمُوسِ الْعَدُوِّ ضَافٍ سَبِيحُهَا وَمَنْجَرِدٍ كَالسَّيْدِ نَهْدِ الْمَرَائِلِ

إن انتفاخ الجنين وامتلاء الجسم صفات تكسب الذئب القوة والمرونة، وتعينه على سرعة القنص، وهذه صفات اتصفت بها فرس الشاعر التي شبهها بالذئب حين تحقق الغلبة والنصر. واقترب الهذليون - على قلة ما قدموه - من الشعراء الصعاليك في رسم صورة الذئب المعنوية والمادية؛ فقدّموه ضارياً جائعاً، خاوي البطن، يسير في الدروب الضيقة باحثاً عن صيد كالأخلف تارة، وكالمقبل تارة أخرى.

وقد بلغ من جرأة صاحب أبي كبير أنه أتى مورداً لا تردّه إلا الذئاب النحيلة السريعة في مشيتها، تشرب كما تشرب الحيات، وتسلّك المسالك الضيقة جداً، وتمشي على حرفٍ كما يمشي الأخلف، وهي تعوي حول مورد الماء جوعاً وظمأً، فهي أكثر شراسة وضراوة، فقال⁽²⁾:

[الكامل]

وَلَقَدْ وَرَدَتِ الْمَاءَ لَمْ يَشْرَبْ بِهِ
إِلَّا عَوَاسِلَ كَالْمِرَاطِ مُعِيدَةٍ
يَنْسُلْنَ فِي طُرُقٍ سَبَاسِبَ حَوْلَهُ
تَعْوِي الذَّئَابُ مِنَ الْمَجَاعَةِ حَوْلَهُ
زَقَبٌ يَظَلُّ الذَّئْبُ يَتَّبِعُ ظِلَّهُ
بَيْنَ الرَّبِيعِ إِلَى شُهُورِ الصَّيْفِ
بِالْإِيلِ مَوْرِدِ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفِ
كَقِدَاحِ نَبْلِ مُحَبَّرٍ لَمْ تُرْصَفِ
إِهْلَالِ رَكْبِ الْيَامِنِ الْمُتَطَوِّفِ
مِنْ ضَيْقِ مَوْرِدِهِ اسْتِنَانِ الْأَخْلَفِ

رسم أبو كبير صورة الذئب فجاءت متحركة عندما تتبعه تتبعاً دقيقاً، خاصة عندما شبه مشيته في الطّرق الضيقة قاصداً مورد الماء بالأخلف الذي يمشي بحذر شديد خشية التعثر، وهذه إشارة تدل بكل

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 220 ، شمس : لا يدرك عدوها ، سببها : ناصيتها ، ضاف : كثير ، المنجرد : الماضي ، نهدي المراكل: ضخم موضع عقبي الراكب، فأراد : أنه منتفخ الجنين .

(2) الهذليون، م . ن ، 2 / 105 - 106 ؛ العواسل : الذئاب التي تضطرب في عدوها فتسير سيراً سريعاً وتهز رأسها، كالمِرَاط: كالنبيل المتمطرة الريش، المعيدة: المشبعة بالماء ، اليم المتغضف : الحية المنطوية المتنتبهة ؛ ينسلن: يسرن، في طرق سباسب: في طرق مستوية ممتدة ، كقِدَاحِ نَبْلِ مُحَبَّرٍ لم ترصف: طرق ممتدة كالسهام المستقيمة؛ إهلال ركب اليامن المتطوف: ظهور الركب القادم من اليمين بعد طول تطواف ؛ الزقب : الضيق فيمر فيه الذئب على شق أو حرف لضيقه، الاستنان: العدو والجري ، الأخلف : العسر المخالف المعوج ، فلضيق هذا الطريق يمشي الذئب فيه على حرف كما يمشي الأخلف إذا مشى .

وضوح على معرفة الشاعر بالكثير من أمور الذئاب وأحوالها وطبائعها ... فجاءت صورته متحركة نابضة بالحياة، وقدم إشارات عن طبيعة الذئاب " تدل على شرستها وشدة افتراسها، فهي تعسل في مشيها أي يضطرب ذنبها ورأسها في مشيها، وهي مشية فيها تحد وتبختر...، وقوله كالمراط يعني نبالاً تمرط ريشها، والتشبيه هنا في انطلاق النبال وهي تعسل في سيرها " (1).

وقدم أبو ذؤيب الهذلي أوصافاً دقيقة للذئب، لا يعرضها إلا من كان قريباً منه؛ يرقبه ويرصد سلوكه عند الاختباء أو الهجوم، فهو يشبه عبد الله بن الزبير بالذئب، محدثاً أم سفيان: إن استبدلت، فمثل هذا الصاحب، أي صاحب صدق، ويقول (2):

فَصَاحِبٌ صِدْقٍ كَسِيدِ الضَّرَا	عِ يَنْهَضُ فِي الْغَزْوِ نَهْضًا نَجِيحًا
وَشَيْكَ الْفُصُولِ بَعِيدِ الْقَفْوِ	لِإِلَّا مُشَاحاً بِهِ أَوْ مُشِيحًا
تَرِيْعُ الْغَزَاةُ وَمَا إِنْ يَرِيْـ	عُ مُضْطَمراً طَرَّتَاهُ طَلِيحًا
كَسَيْفِ الْمُرَادِيِّ لَا نَاكِلاً	جَبَاناً وَلَا جَيْدِرياً قَبِيحًا
قَدْ أَبْقَى لَكَ الْآيْنُ مِنْ جِسْمِهِ	نَوَاشِرَ سَيْدٍ وَوَجْهًا صَبِيحًا

فعبد الله بن الزبير يشبه سيد الضراء حرصاً وحذراً وخبتاً، فأخبت ما تكون الذئاب سيد الضراء، كما رسم نواشر يديه العارية، مشبهاً بها سواعد الرجل القوية البادية.

وجاءت صورة الذئب خاطفة، سريعة كما عند ساعدة والمُتَخَلِّ (3)، والأعلم (4)، وأبي كبير الهذلي (5)، وأبي خراش (6)، وأسامة بن الحارث (7)، وعمرو بن الداخل (8)، وجنوب الهذلي (9)، تحكي سطوة السرحان إذا حمل على فريسته، أو خوف الهذليين أن يقتلوا فيرموا في الصحراء طعاماً للذئاب الجائعة، أو تحكي طبيعة تَلَفَّتْهَا إذا فزعت من أعدائها، أو شكل جسمها فهي سرحان طويلة سرحوب، أو الأرض خالية مقفرة إلا من الذئاب الجائعة، أو استواء متنها عندما شبهوا السهام بها، أو صوتها وهو ينذر بوقوع الشر وحلول المأساة التي لا تنتهي، وهي صور مصغرة لصفات عرفت بها الذئاب، واشتهرت بها على امتداد صحراء الجزيرة العربية .

(1) محمد الحسن الأمين ، الصورة البيانية في شعر الهذليين ، ص 113 .
 (2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 134 - 135 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، 59 - 60 ؛ السيد : الذئب، الضراء: ما وارك من الشجر، نهضاً نجيحاً : ظفراً سريعاً، أي ذئب اعتاد الاختباء وراء الشجر، ويوصف الذئب بأنه يألف الضراء ويربض تحته؛ وشيك الفصول : سريع الغزو ، بعيد القفول : بطيء القفول لا يسرع الانصراف، إلا مشاحاً : إلا مضطراً أو مدفوعاً ، مشيحاً : مبادراً ومندفعاً فهو لا يرجع حتى ينتقم أو يغنم ؛ تريع الغزاة وما أن يرجع : يرجع الغزاة إلى أهلهم وهو لا يرجع ، مضطمر : خميص البطن من شدة الهزال، طرته : كشاه ، طليحاً : مصاباً بالإعياء ؛ كسيف المرادي ، كالسيف اليماني مضاءً ، ناكل : جبان ، الجيدري: القصير ؛ الأين : الإعياء ، النواشر: عصب باطن الذراع ، فهو شديد البطش قوي اليد كيد الذئب ، فنواشره عارية كنواشر الذئب ، ويستحب في الرجال أن تكون نواشرهم بادية .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 25 .
 (4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 79 .
 (5) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 98 .
 (6) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 161 .
 (7) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 199 .
 (8) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 101 .
 (9) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 125 .

2. الضَّبَع :

حازت صورة الضَّبَع في شعر الهذليين جزءاً بارزاً من ديوان شعرهم، فأجادوا في وصفها ووصفوها وصفاً دقيقاً. فالهذليون والصعاليك من أكثر الشعراء حديثاً عن الضَّبَع⁽¹⁾، بحكم علاقة التشابه الوثيقة بينهما في التشرد، ولأن معظمهم كان يموت في عراء الصحراء، فتصبح جثثهم جيفاً تنهشها حيوانات اعتادت أكل الأشلاء⁽²⁾. والضَّباع من أكثر الحيوانات ولعاً بجيف الموتى ونيش القبور⁽³⁾، فاقترنت صورتها بصورة الخوف والفرع من الموت، "فالشاعر يصف الضَّبَع بشكل حسي، ويصورها، إلا أنه يقصد من وراء ذلك إظهار صورة الموت، وتخيل حال الإنسان ومصير هذا الجسد الفاني بعد انتهاء الحياة"⁽⁴⁾.

فحبيب الأعم وهو يصف فراره مع صاحبه من مغامرة لهما عندما وقعا في مأزق حرج والقوم يطاردونهما، يعتذر عن فراره مبرراً ذلك بخشيته من أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للضَّباع، ويشبه جلود جراء الضَّبَع بثياب الرهبان السود، وأذناها بالمغارف لقصرها وعرضها، كما وصف انتفاخ بطونها وفعلاها بالفريسة، عندما تنزع جلدها نزاعاً شديداً مثلما يفعل الحداد ببطائن الجفون البالية، فيقول⁽⁵⁾:

[مجزوء الكامل]

وَتَجَرُّ مُجْرِيَةً لَهَا	لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبِ
سُودٍ سَحَالِيلٍ كَأَنَّ	جُلُودَهُنَّ ثِيَابَ رَاهِبِ
آذَانُهُنَّ إِذَا اخْتَضَرَّ	نَ فَرِيَسَةً مِثْلَ الْمَذَانِبِ
يَنْزَعْنَ جِلْدَ الْمَرَّةِ نَزْ	عَ الْفَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ

ورغم أن الصورة سريعة وقصيرة، إلا أنها جاءت جميلة رائعة دقيقة الوصف، وبيّنت قدرة الشاعر على الملاحظة الدقيقة، وقدرته الفائقة على اختيار الألفاظ والمعاني الواضحة، وبرزت في الصورة الحركية عندما تنزع الضَّباع جلود الفريسة، وفي الصورة اللونية عندما عرض لون الضباع الكبيرة وميزها عن الجراء الصغيرة، إذ شبه جلود جراء الضَّبَع بثياب الرهبان، وكانت الصورة السابقة تحكي قصة الفرع من الموت على أيدي الأعداء، وترتبط بإلقاء الجسد للحيوانات الضارية خاصة الضَّباع. فالشاعر "تعمد تصوير الأجراء مع الفريسة في صورة ساخرة وفكها، يكون فيها تبرير لهربه خشية أن يكون فريسة، وتكون هذه حاله..."⁽⁶⁾.

(1) ينظر : نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 128 .

(2) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 13 / 2 .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 150 / 2 .

(4) ميساء قتلان ، شعر ساعدة بن جؤية ، ص 58 .

(5) الهذليون ، م . ن ، 80 - 79 / 2 ؛ سحليل : جمع سحلال أو سحليل وهي عظيمة البطون والشاعر يريد الضَّباع المنتفخة البطون، فلون جلود الضَّباع المنتفخة البطون كثياب الرهبان السوداء ؛ احتضرن فريسة: أحطن بها، المذانب: المغارف ؛ المذاهب: هي بطائن مذهبة تغشى أجفان السيوف تنقش بالذهب وغيره ، القين : الحداد.

(6) محمد الحسن الأمين ، الصورة البيانية في شعر الهذليين ، ص 118 .

أما ساعدة بن جؤية فيتخيل نفسه وحيداً، تنبش الضبع رفاته، فجاءت صورتها متحركة، تمشي في الليل هادئة بطيئة مثقلة، فكان مشيها ليلاً كالرجل الأقبل يلتفت هنا وهناك، فيقول واصفاً ضبعاً وقد زارت قبر ميت⁽¹⁾:

إِذَا مَا زَارَ مُجَنَّاةً عَلَيْهَا ثَقَالُ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ الْقَطِيطُ
وَعُودِرَ ثَاوِيَةً وَأَتَاوَيْتَهُ مُدْرَعَةً أَمِيرَةً لَهَا فِلِيلُ
لَهَا خُفَّانِ قَدْ ثَلَبَا وَرَأْسُ كِرَاسِ الْعِيسَى شَهْبَرَةً تَوُولُ

فالضبع لدى ساعدة جشعة لا تترك صيدها، ولا تتأخر في حفر القبور ونبشها بحثاً عن طعامها المتمثل في جثث الموتى، وهذا ما جعل صورتها منفرة، فالميت المدفون تحت التراب لم يسلم من شرورها.

3. الأسد :

وردت صورة الأسد في معرض رثاء الأبناء، فيرثي ساعدة بن جؤية ابنه، ويقدم الأسد مختبئاً في أجمة بمنطقة مليئة بشجر الأراك والأثل، محاطاً بأشباله، حتى كأنه في خيمة تلفه وصغاره، فيقول ساعدة⁽²⁾ :

فَمَا خَادِرٍ مِنْ أَسَدٍ حَلِيَّةٍ جَنَّهُ وَأَشْبَلَهُ ضَافٍ مِنَ الْغِيلِ أَحْصَدُ
أَرَاكَ وَأَثْلٌ قَدْ تَحَنَّتْ فُرُوعُهُ قِصَارٌ وَأُسْلُوبٌ طَوَالٌ مُحَدَّدُ
يَقْصِمُ أَعْنَاقَ الْمَخَاضِ كَأَنَّمَا بِمَفْرَجٍ لَحْيِيهِ الزَّجَاجُ الْمُوتَدُ

فكأن الشاعر يريد من خلال صورة حماية الأسد لصغاره في مكان آمن إسقاط هذه الصفة عليه، مستعيناً بمكانته في قومه وما اتصف به من شجاعة وبأس. فالأسد يرقب الطريق يتربص بالزراعة وأغنامهم كي ينقض عليها، فيقصم أعناقها بأنيايه التي تشبه الزجاج الحادة فيؤمن طعامه وطعام صغاره. والصورة التي قدمها " ساعدة " للأسد إنما تعكس حالة من القوة والبطش كانت سائدة في البيئة البدوية كان يمتلكها الشاعر وهو يرثي ابنه، " فالمشهد يعدل من صورة إنسانية، وهي موت المرثي إلى صورة الأسد التي تكشف بعض القيم التي آمن بها وسط هذا العالم البدوي ... وبهذا تتبع صفة المشهد من روح البادية العارمة بالحيوية، وتنثني إلى نفس ساعدة من جديد لتخلص إلى شكل بديع ليس كالأصل وإن كان منه، وهذه إحدى صفات الشعراء العظماء " ⁽³⁾ .

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 215 ؛ مخبأة : القبر ، القطيل : المقطوع ، مزرعة : يعني ضبعاً بيديها آثار ، الفليل : الشعر والوبر ، الشهيرة : الناقة التي قد أسنت، تؤول : التي تمشي مثقلة .

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 238 ؛ خادر : الذي اتخذ الغيضة خدراً ، أحصد : الغليظ الكثيف ، الغيل : ما كثف من الشجر؛ تحنت فروع : تنثنت ، أسلوب : طريقة واحدة أي متشابهة، يقصم : يكسر ، مفرج لحبيه : منفذ لحبيه يريد فاه، الموتد : الرماح قد وتدنت، يريد أن يقول كان زجاج الرماح في أنيايه .

(3) حسين جمعة ، الحيوان في الشعر الجاهلي ، ص 92 .

أما بدر بن عامر فعرض في صورة حسيّة وصوتيّة مفزعة أسداً تخاف حسه بقية الأسد، وتخشى جولته وصولته، إذ يحيط عنقه شعر ممهون منفوش، ولزئيره صوت يوقع في القلوب الفرع والزهبة، ويمتلك قدرة فائقة على طحن فرائسه، كما تطحن الرّحى دقيقتها، فيقول (1) :

[الكامل]

أَسَدٌ تَفِرُّ الْأَسَدُ مِنْ عُرَوَائِهِ بِعَوَارِضِ الرَّجَازِ أَوْ بِغُيُونِ
وَيَجْرُ هُدَابُ الْفَلِيلِ كَأَنَّهُ هُدَابُ خَمْلَةٍ قُرْطُفٍ مَمْهُونِ
وَلِصَوْتِهِ زَجَلٌ إِذَا آنَسْتَهُ جَرَى الرَّحَى بِجَرِينِهَا الْمَطْحُونِ

وعيزي مالك بن خالد امرأة فقدت أولادها، فيرسم صورة الأسد، وقد أحاطت به جراؤه. فأسد مالك جاء في ميدان القتال لا يبالي بصياد على فرس، أو حيوان ذي قرون حادة، فهو ليث ضخم غليظ، متقدم في بأسه، ووقور مرزوق هادئ صعب المراس، مخالفه طويلة، جريء، شديد، فمه واسع، يقول (2) :

[البسيط]

يَا مَيَّ لَا يُعْجِزُ الْأَيَّامَ مُجْتَرِيٌّ فِي حَوْمَةِ الْمَوْتِ رَزَامٌ وَفَرَّاسُ
لَيْثٌ هَزْبَرٌ مُدِلٌّ عِنْدَ خَيْسَتِهِ بِالرَّقْمَتَيْنِ لَهُ أَجْرٌ وَأَعْرَاسُ
أَحْمَى الصَّرِيمَةِ أَحْدَانُ الرَّجَالِ، لَهُ صَيْدٌ وَمُسْتَمِعٌ بِاللَّيْلِ هَجَاسُ
صَغْبُ الْبَدِيهَةِ مَشْبُوبٌ أَظْفَرُهُ مُوَاتِبٌ أَهْرَتْ الشَّدَقَيْنِ هِرْمَاسُ

فعمد مالك الخناعي إلى تقديم الأسد في صورة مادية ومعنوية. كذلك ذهب حذيفة بن أنس إلى رسم صورة الأسد، عندما وصف قومه بالقوة والضراوة في القتال، فهم إن نالهم من أعدائهم مصاب لم يمنعم ذلك من البأس والشدة في المقاومة، فيقول (3) :

[الطويل]

بَنُو الْحَرْبِ أَرْضَعْنَا بِهَا مَقْمَطَرَةً فَمَنْ يُلْقَ مِنْنَا يُلْقَ سَيْدٌ مُدْرَبٌ
فُرَافِرَةٌ أَظْفَارُهُ مِثْلُ نَابِهِ وَإِنْ يُشَوِ نَابُ اللَّيْثِ لَا يُشَوِ مِخْلَبٌ

كما استخدم الهذليون صورة الأسد في بيان وحشة الديار بعد رحيل الأهل والأحبة، فباتت الديار لدى ساعدة بن جؤية (4)، وأبي ذؤيب موحشة، إلا من السباع الخبيثة التي تعيش بعيدة

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 257 - 258 ؛ عروائه : حسه ، العوارض النواحي ، الرجاز والعيون : مواضع ؛ الهداب : الشعر المتدلي ، الفليل : الشعر المجتمع ، الخملة : الثوب الذي له خمل ، ممهون : منفوش ؛ زجل : صوت مرتفع حاد ، أنسته : اقتربت منه ، جرى الرّحى بجريتها المطحون : هذا الأسد يجز الرجال قد قتلهم كما تجر هذه الرّحى طحينها .

(2) الهذليون ، م . ن ، 3 / 4 - 5 ؛ مجترئ : الأسد ، رزام : كل ما يبرك على فريسته ، فرّاس : الصائد ؛ الهزير : الغليظ ، مدل : الذي ينقض على فريسته ، خيسته : الأجمة التي يربض فيها ، الرقمتان : موضع بالقرب من المدينة المنورة ، أجر : جمع جراء وهي صغار الأسد ، أعراس : إناث الأسد ؛ أحدان الرجال : الأوحده والمنفرد الذي ليس غيره ، له صيد : مرزوق ، هجاس : يستمع كأنه يهجم ؛ صعب البديهة : مبادته شديدة ، البديهة : المعالجة ، مشبوب أظفاره : أظافره قوية ، مواتب : جريء ، أهرت الشدقين : واسع الفم ، هرماس : شديد الأنياب عريضها .

(3) الهذليون ، م . ن ، 3 / 25 ؛ المقمطرة : الكالحة الشنيعة إذا تهيأت للشر ، السيد : الأسد في كلام هذيل ، المدرب : الضاري ؛ فرافرة : يقطع ويمزق كل شيء ، أظفاره مثل أنيابه قوية صلبة ، إن يشو ناب الليث لا يشو مخلب : إن أصاب الوهن الناب لا يصاب المخلب به ، فهو قوي ضار لا تلين له قناته .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 237 .

عن قطيعها⁽¹⁾، وأبرزوا قوة نابيه وشدته وقدرته على طرح فريسته⁽²⁾، وجاءت المصائب والدواهي ثقيلة لا تنزعج كالأسد الرابض⁽³⁾. كما جاءت صورة الأسد خاطفة تحكي مشهداً لم يتجاوز البيت الواحد عند أبي المثلث⁽⁴⁾، وجنادة بن عامر⁽⁵⁾، والبريق⁽⁶⁾، وجنوب الهذلية⁽⁷⁾.

ث. الطيور :

تحتل الطيور بأنواعها المختلفة مكاناً مهماً في شعر الهذليين، عندما عبر الشعراء عن أنماط حياتهم المختلفة من خلال تعدد صورها الفنية، التي أماطت اللثام عن طبيعة سلوكياتهم، وما تعلق بها من طبائع خاصة وعامة. وقد قسّمتُ الطيور إلى: طيور أليفة، ومتوحشة: لا تألف الناس، ولا تعتمد في غذائها على اقتراس غيرها، وجارحة: لا تألف الناس وتعتمد في غذائها على لحم غيرها.

1. الطيور الأليفة :

كانت الحمامة رمزاً لفقد الأجزاء، فعلاقتها بالحزن قديمة قدم الأسطورة. ولأن علاقة الحمامة دافئة تجاه ذكرها وفراخها، وكان صوتها شجياً⁽⁸⁾ يبعث في النفس المشاعر والأحاسيس؛ أبدع صخر الغي في رسم صورة الحمامة⁽⁹⁾ راثياً ولده تليداً، فأفصح عن ألمه العميق ومشاعره الحزينة، وتحدث عما آلت إليه حالته من سهد وأرق وقلق، وقناعته بحتمية المنايا، وعبر عن مصابه في ولده، وألمه العميق عندما انتهى إلى قبر لا خروج منه، فقال⁽¹⁰⁾:

[الوافر]

لَقَدْ أَجْرَى لِمَصْرَعِهِ تَلِيدٌ وَسَاقَتُهُ الْمَنِيَّةُ مِنْ أَذَامَا
إِلَى جَدَثٍ بِجَنْبِ الْجَوِّ رَاسٍ بِهِ مَا حَلَّ ثُمَّ بِهِ أَقَامَا

[الوافر]

وَمَا إِنَّ صَوْتَ نَائِحَةٍ بَلِيلٍ بِسَبَلٍّ لَا تَنَامُ مَعَ الْهُجُودِ
تَجْهَنَّا غَادِيَيْنِ فَسَاءَ لَتَنِي بِوَاحِدَةٍ وَأَسْأَلُ عَنْ تَلِيدِي

ويستأنس صخر الغي بمصاحب الحمامة، فيقول⁽¹¹⁾:

(1) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 45 / 1 .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 110 .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 202 .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 231 ، و 2 / 239 .

(5) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 31 .

(6) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 63 .

(7) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 3 / 121 .

(8) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 114 .

(9) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 62 - 66 .

(10) الهذليون ، م . ن ، 2 / 62 ؛ أدام : أشهر أودية مكة ، جدث: القبر، الجو: اسم موضع ، راس : مقيم .

(11) الهذليون ، م . ن ، 2 / 67 ؛ سبلل: اسم موضع ، تجهنا : تواجها ، بواحدتها : فرخها ، بان : ذهب وفقد ، العمر الجديد: كل يوم جديد .

فَقُلْتُ لَهَا فَأَمَّا سَاقُ حُرٍ فَبَانَ مَعَ الْأَوَائِلِ مِنْ ثُمُودٍ
وَقَالَتْ لَنْ تَرَى أَبَدًا تَلِيدًا بَعَيْنِكَ آخِرَ الْعُمَرِ الْجَدِيدِ
مِلَانَا رَدَّ صَاحِبَهُ بِيَّاسٍ وَتَأْنِيْبٍ وَوَجْدَانٍ بَعِيدِ

ففي صورة صوتية تجلى فيها الحوار بدا الشاعر حائراً يلتمس السلوى مع الحمامة، فيسأل كل واحد منهما الآخر عما فقد، ليقنعا بعضهما أن لا عودة لمن طوته الأيام، فلا عودة لفرخ الحمامة، ولا عودة ولا لقاء للشاعر مع ولده، فكأنه يقنع نفسه بحتمية الموت والفراق، وحتمية لقاء آخر أخروي بإسقاط حالته الوجدانية وقناعاته على حالة الحمامة.

وجاءت صورة الحمامة سريعة وجزئية في ديوان الهذليين، فيشبهه البريق الخناعي الحمامة ونوحها على غصن شجرة وهي تتمايل، بالسكران النشوان⁽¹⁾، وشبه ساعدة بن جؤية الحمام بالرماد المتبقي الملبد بماء المطر، حتى صار جائماً لا يتحرك أو يتطاير بفعل الريح⁽²⁾، وأبرز أبو كبير الهذلي لون الحمام الورق القادر على الطيران، وإرتقاء الأماكن العالية التي لا يصل إليها إنسان⁽³⁾.

ولم يكثر الهذليون من ذكر الديك، وجاء ذكره محصوراً في ميزة امتاز بها وتناقلتها العرب، إذ ضرب بعينه الصفاء والنقاء، فشبه الشعراء الشراب بعين الديك صفاءً، إذ ورد ذكره في الحديث عن الخمرة أو معاقرتها، يقول أبو ذؤيب الهذلي⁽⁴⁾ :

وَمَا إِنْ فَضْلَةٌ مِنْ "أَذْرَعَاتٍ" كَعَيْنِ الدِّيكِ أَحْصَنَهَا الصُّرُوحُ
ويقول المتنخل⁽⁵⁾ :

مُشْعَشَعَةٌ كَعَيْنِ الدِّيكِ لَيْسَتْ إِذَا ذِيْقَتْ مِنَ الْخَلِّ الْخِمَاطِ

فعين الديك تتصف بالنقاء والصفاء، الذي لا تشوبه شائبة، مما يترك أثراً طيباً دالاً على الطمأنينة، ونعومة العيش وصفاء الحياة. والشعراء جمعوا صورة الصفاء بين الخمرة وعين الديك، لتحقيق عيش رغيد هانئ، بعيداً عن التعقيدات التي تعكر هذا الصفو، وتجعل الحياة نكدة صعبة.

(1) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 58 / 3 .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 226 / 1 .

(3) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1077 / 3 .

(4) الهذليون ، م . س ، 69 / 1 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 81 ؛ فضلة : الخمرة ، أذرعات : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان تنسب الخمرة إليه ، الصروح : القصور .

(5) الهذليون ، م . س ، 21 / 2 ؛ المشعشة : أرق مزجها ، الخمطة : أصبح لها ريحاً ولم تستحكم فلم تبلغ الحموضة أي لم تصبح عتيقة .

2. الطيور المتوحشة :

تناول الشعراء العديد من الطيور المتوحشة كالظليم والغراب والقطا والحباري والغريق والحجل والعصفور، لكن مع اختلاف في كيفية تناولها أو عدد تداولها.

فوردت صورة النعامة والظليم بشكل متواضع في الشعر الجاهلي، وانسحب ذلك على شعر الهذليين، فلم تعد صورتها وهي تجري مسرعة نحو فراخها وفحصها، أو عاطفتها الدافقة نحو عائلتها وأسرتها. فجاءت النعامة طويلة العنق، ودقيقة الرأس، وقليلة الريش، وعارية القوائم، وسوداء الأجنحة، ومنقخة الصدر وغريبة الصوت. فجاءت الصورة عند أبي ذؤيب منسجمة مع صورة النعامة الحسية، فطول العنق والقوائم العارية الطويلة كانت تتجلى عندما يطلق الظليم العنان لنفسه مسرعاً إلى عشه وبيضه وفراخه قبل غروب الشمس، أو عند هطول المطر⁽¹⁾. كما استخدمها الشعراء في إبراز السرعة التي امتازت بها، سواء في وصف مراكبهم أو أنفسهم، يقول أبو خراش⁽²⁾:

غدا يَرْتَادُ بَيْنَ يَدَيَّ قَنِيصٌ تُدَافِعُهُ سَفَنَجَةٌ عَنْوُدُ
جَمُومٌ نَهْدَةٌ ثَبَتَتْ شَظَاهَا إِذَا رُمِبَتْ عَلَى عَجَلٍ تَصِيدُ

كما وصف أمية بن أبي عائد حركتها، وأبرز شكلها وهو يصف ناقته وهي تسير، فقال⁽³⁾:

[المتقارب]

فَسَلَّ الهمُومُ بَعِيرَانَةً مُوَاشِكَةَ الرَّجْعِ بَعْدَ انْتِقَالِ
نُمُولٍ تَزْفُ زَفِيفَ الظِّلِ مِ شَمَرٍ بِالنَّعْفِ وَسَطِ الرِّثَالِ

وفي صورة حركية وحسية؛ أبرز الأعلام عطف الظليم وحنانه على بيضه وفراخه وأنثاه، فقال⁽⁴⁾:

[الوافر]

هَزَفٌ أَصْنَفُ السَّاقَيْنِ هَقْلٍ يُبَادِرُ بَيْضَهُ بَرْدُ الشَّمَالِ
أَحْسُ ضَبَابَةٍ وَعَمَاءُ لَيْلٍ يُبَادِرُ غَوْلَ وَادٍ أَوْ رِمَالِ
كَأَنَّ جَنَاحَهُ خَفَقَانُ رِيحٍ يَمَانِيَّةٍ بِرَيْطٍ غَيْرِ بَالِي

فشبه الأعلام نفسه بالظليم المذعور المشتاق لرئاله، الخائف على بيضه من برد الشمال، فانطلق بأقصى سرعته. فهو في شدة عدوه أشبه بالظليم الذي خفق جناحه، كما تخفق الرياح الجنوبية بثياب جديدة غير

(1) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 94 / 1 .

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 163 ؛ القنيص : الصياد ، تافعه : تدفع النعامة ، السفنجة : البعيدة الخطو يريد النعامة ، عنود : متحرقة للنشاط ؛ جموم : كثيرة النشاط، نهدة : النهود : النهوض والصمود ، الشظا : عصب صغير في وظيف اليد ، شظى الفرس : تقال إذا ابتعد الفرس عن موضعه وتركه .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 174 - 175 ؛ سل الهموم : خففها ، العيرانة : الناقة المشبهة بالبعير ، مواشكة : سريعة رجع البدين عند السير ، بعد انتقال : ضرب من السير عندما تضع الناقة قوائمها بين الحجارة ؛ ذمول : ناقة لينة السير ، تزف : ضرب من السير فيه مداركة في المشي ، شمر : مر جاداً ، النعف : المكان المرتفع في الأرض وكان فيه صعود وهبوط ، وسط الرئال : بين فراخها .

(4) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 320 - 321 ؛ الهزف : الظليم السريع ، أصنف الساقين : سيقانه متفشرة ، هقل : من أسماء النعام ، يبادر ببيضه برد الشمال : يقي ببيضه برد الشمال ، أحس ضبابية : رأى ضبابية ، عماء ليل : غيمة سوداء مرتفعة يبادر غول واد : يقطع واد ؛ الريح اليمانية : ريح الجنوب ، ريط غير بالي : قماش جديد .

بالية. واستخدم بعض الشعراء الهذليين النعام مثلاً في العدو والسرعة في الهرب⁽¹⁾، وهذا مالك بن خالد يشبه نفسه هارباً بالنعام ، فيقول⁽²⁾:

وَاللَّهِ مَا هِقْلَةٌ حَصَاءٌ عَنْ لَهَا جَوْنُ السَّرَاةِ هَزَفَ لَحْمُهَا زَيْمٌ
كَانَتْ بِأَوْدِيَةِ مَحَلٍ فَجَادَ لَهَا مِنَ الرِّبْعِ نَجَاءٌ نَبْتُهُ دِيمٌ
فَهِيَ شَنُونٌ قَدْ ابْتَلَتْ مَسَارِيهَا غَيْرُ السَّحُوفِ وَلَكِنْ عَظُمُهَا زَهْمٌ
بِأَسْرَعِ الشَّدِّ مَنِّي يَوْمَ لَا نِيَّةَ لَمَّا عَرَفْتُهُمْ وَاهْتَزَّتِ اللَّيْمُ

وحتى تكتمل الصورة من جميع جوانبها، وكى يقدم صورة صادقة نابضة بالحياة، رسم الشاعر صورة الطبيعة من حولها، وما اتصفت به من صفات حسية من خفة اللحم وقلة الريش.

والأعلم وهو يقدم صورة الظليم الحاني على رئاله، العائد إليها وقت العشي؛ يبدع في وصف جناحيه، وهو يعدو مشبهاً خفقانها بملاءة تواجه الريح فتبدو خافقة متأرجحة بفعله، كما يقدم توصيفاً حقيقياً لطبيعة عظامه التي لا مخ في جوفها، بينما قدم أسامة بن الحارث النعامة لا تسمع، وهي صفة لم يذكرها شاعر هذلي قبله، فيقول⁽³⁾:

وَأْمَهَلْتُ فِي إِخْوَانِهِ فَكَأَنَّمَا يُسَمِّعُ بِالْنَهْيِ النَّعَامَ الشَّوَارِدُ

لم يبتعد الهذليون كثيراً في تناولهم صورة الغراب عما عُرف به، وما تتناقلته العرب عنه من صفات، فاتخذت من لونه أداة للتعبير عن حال الإنسان ومآله، فكان اللون الأسود رمزاً لفاقة أو مصيبة تحل بالإنسان، أو تغير حال، وتضعف مكان بعد قوة ومنعة، فهذا ساعدة بن جؤية يرثي حاله بعد أن هجرته حبيبته غضوب، فيقول⁽⁴⁾:

شَابَ الْغُرَابُ وَلَا فُؤَادُكَ تَارِكٌ ذَكَرَ الْغَضُوبَ وَلَا عِتَابُكَ يُعْتَبُ

فلا يظن الشاعر نفسه تاركاً ذكر حبيبته حتى يشيب الغراب، وهذا ما لا يمكن حصوله، فالغراب أسود فاحم⁽⁵⁾، لا يبيض ريشه.

كما جاء حديث الهذليين عن بعض الطيور كالقطا والحباري وغيرها، في سياق الحديث عن عيون الماء المنتشرة في ديار هذيل، ولم يقفوا عندها طويلاً إلا بما يخدم إتمام صورة كبيرة كان مشهد بعض الطيور جزءاً مكملًا. فيصف المُنْتَخِلَ ورود القطا السريع لمورد الماء كأنه سهم سريع⁽⁶⁾،

(1) ينظر: الهذليون، الديوان، 235 / 1.

(2) الهذليون، م. ن، 3 / 14؛ الهقلة: النعامة، حصاء: خالية من الريش، عَنْ لَهَا: اعترضها، هزف لحمها: خفيفة اللحم، زيم: مقطّع هنا وهنا؛ نجا نبتة ديم: نبت سقي بماء مطر استمر أياماً؛ شنون: متوسطة بين الهزال والسمنة، ابتلت مساريها: سرى الشحم في جوانب بطنها، غير السحوف: لا يقشر عن متنها الشحم، يقول: ابتداءً فيها السمن وليست بالسحوف، عظمها زهم: سمين فيه مخ؛ يوم لا نية: يوم ليس فيه فتور، فهجاهم وغيرهم بفرارهم، فيقول: إنهم عدوا فتحرّكت لمهمهم وهم يعدون.

(3) الهذليون، م. ن، 2 / 202؛ وأمهلت في أصحابه الذين معه، فكأنما أسمعته النهي الذي نهيت نعاماً شرداً، فلا حياة لمن تنادي.

(4) الهذليون، م. ن، 1 / 168، شاب الغراب: أصبح ريشه أبيضاً كالشيب، الغضوب: اسم امرأة، ولا عتابك يعتب: أي يستقبل بعنبي في أمرها، بمعنى عتابك لا يجدي.

(5) ينظر: الهذليون، م. ن، 175.

(6) ينظر: الهذليون، م. ن، 24 / 25.

وأكدت صورة طيور القطا التي قدّمها أبو كبير على مبدأ التعاون والتكاتف الذي اتصف بها صحبه، فيقول⁽¹⁾:

فَلَقَدْ جَمَعْتُ مِنَ الصَّاحِبِ سَرِيَّةً خُدْبًا لِدَاتٍ غَيْرَ وَخَشٍ سُخْلٍ
سُجْرَاءَ نَفْسِي غَيْرَ جَمْعٍ أَشَابَةِ حُشْدًا وَلَا هُلْكَ الْمَفَارِشِ عُزْلٍ
لَا يُجْفِلُونَ عَنِ الْمُضَافِ وَلَوْ رَأَوْا أُولَى الْوَعَاوِعِ كَالْغَطَاطِ الْمُقْبِلِ

فالقطا تقبل مجتمعة مصطفة متراسة، لا تجد قطاة منفردة عن سربها. فاستعان الشاعر بهذه الصورة، وأسقطها على صحبه الذين يواجهون أعداءهم متعاونين متماسكين، ولا يتوانون عن مساعدة بعضهم بعضاً، ونصرة الضعفاء حين علمهم بذلك.

وشبه أبو ذؤيب عين امرأة قتل زوجها وهي لا تعلم، وأخذت تطلب نصيب زوجها من الغنيمة، فتسأل وعينها مليئة بالذعر والخوف كعين الحبارى التي أخطأت الصقور رؤيتها فأفلتت من مخالبتها، ونجت من خطرهما، فقال⁽²⁾:

تَوَقَّى بِأَطْرَافِ الْقِرَانِ وَعَيْنُهَا كَعَيْنِ الْحَبَارَى أَخْطَأَتْهَا الْأَجَادِلُ
رَدَدْنَا إِلَى مَوْلَى بَنِيهَا فَأَصْبَحَتْ تُعَدُّ بِهَا وَسْطَ النِّسَاءِ الْأَرَامِلِ

والرابط بين عين المرأة وعين الحبارى الخوف والرّهبة، فكلاهما يقلب النظر خوفاً وتوجساً، لكن باختلاف أن المرأة فقدت زوجها، وبانت أرملة يتولى غير زوجها إعالتها.

3. الطيور الجارحة :

اهتم الهذليون برسم صورة العقاب⁽³⁾ عبر إظهار حركتها وطيوانها وسرعتها واندفاعها نحو فريستها، وتصميمها على الوصول إليها. فشبّه الهذلي نفسه في سرعة عدوه بالعقاب المنفضة على صيدها، فتتنقض عليه بمجرد رؤيته، يقول أبو خراش⁽⁴⁾:

كَأَنِّي إِذْ عَدَوْتُ ضَمَنْتُ بَزِي مِنَ الْعِقْبَانِ خَائِتَةً طَلُوباً
جَرِيمَةً نَاهِضٍ فِي رَأْسِ نَيْقٍ تَرَى لِعِظَامٍ مَا جَمَعَتْ صَالِباً
رَأَتْ قَنْصاً عَلَى فَوْتٍ فَضَمَّتْ إِلَى حَيْزُومِهَا رِيْشاً رَطِيباً

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 90 - 91 ؛ الأخدب : الأهوج ، السخل : الضعاف ، الوحش : النذل من كل شيء ، سجراً : سجير الرجل صفيه وخاصته ، ولا هلك المفارش : ليس أمهاتهم أمهات سوء ، لا يجفلون : لا ينكشفون ، المضاف : الملجأ ، الوعوة : صوت الذئب والكلب ، أولى الوعاويع : أول من يغيث من المقاتلة .

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 82 ؛ توقى : تستتر ، بأطراف القران : بأطراف الجبال الصغيرة ، الأجادل : الصقور .

(3) العقاب : طائر من العتاق مؤنثة وقيل العقاب يقع على الذكر والأنثى ، إلا أن يقولوا هذا عقاب ذكر ، وجمع العقاب أعقاب لأنها مؤنثة (ينظر : لسان العرب ، مادة عقب) .

(4) الهذليون ، م . ن ، 2 / 133 ، إذ عدوا : لما حملوا علي ، ضمنت بزي : ألبست بزي عقاباً خائتة : منقضة ، طلوباً : تطلب الصيد ؛ جريمة ناهض : كاسية فرخ ، النيق : أرفع موضع في الجبل وهو حرف من حروف الجبل وقيل الطويل من الجبال (ينظر : لسان العرب : مادة نيق) ؛ القنص : الفريسة والصيد ، على فوت : على سبق ، الرطيب : الناعم ، الحيزوم : الصدر .

فالعقاب تبذل كل جهدها لحماية فرخها وإيقاظه من الجوع، فتراها تتدفع لاقتناص صيدها غير مبالية بالتناج حرساً منها على توفير طعام لصغارها. وعندما يصف أبو خراش سرعة ابنه خراش الهارب من الموت من بني ثمالة، لا يجد أفضل من العقاب ليشبه سرعته بسرعة طيرانها⁽¹⁾.

وفي مشهد رسم صورة العقاب وهي تطير مستعينة بجناحيها اللينين المسترخيين، استخدم الهذليون لفظة " فتخاء " للتعبير عن مطاوعة أجنحتها لها في الطيران⁽²⁾، فيشبه ساعدة بن جوية سرعة انقضاضه بسرعة انقضاض العقاب على فريستها، فيقول⁽³⁾: [الطويل]

فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا أَخُوهُمْ كَأَنَّهُ بِغَادَةٍ فَتَخَاءُ الْجَنَاحِ لَحُومِ

فالعقاب تمتاز بافتراسها، وهي آكلة اللحوم، فلا نجد طيراً يجرؤ على مواجهتها وتحديها، وهذه حال المرثي الذي شبهه الشاعر بالعقاب إذ بلغ من القوة وصدق البلاء مبلغاً بعث الرعب في قلوب أعدائه. وفي صورة أخرى عرض الشاعر العقاب - في صورة حسيّة اعتمدت على حركتها وطيرانها - تكابد الحياة كي تطعم فراخها، فتجد في بحثها عن قوتها، وتبذل جهداً مضنياً، فتمضي بعزيمة وإصرار، لا تبالي بما تكابده من معاناة، يقول صخر الغي⁽⁴⁾: [الطويل]

وَلِلَّهِ فَتَخَاءُ الْجَنَاحَيْنِ لِقُوَّةٍ تَوْسِدُ فَرَخِيهَا لَحُومَ الْأَرَانِبِ
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ فِي جَوْفٍ وَكِرْهَا نَوَى الْقَسْبِ يُلْقَى عِنْدَ بَعْضِ الْمَادِبِ
فَخَاتَتْ غَزَالًا جَائِمًا بَصُرَتْ بِهِ لَدَى سَمَرَاتٍ عِنْدَ أَدْمَاءٍ سَارِبِ

فالعقاب في صورة صخر الغي جاءت مختلفة، إذ قدمها جشعة عندما جمعت لحوم الطير والأرانب، حتى توسدت فراخها اللحوم لكثرتها، وتناثرت قلوب الطير اليابسة في أرجاء عشها، لشدة وفرتها وادخارها طمعاً، ولطمعها وجشعها عمدت إلى اصطياد غزال بصرت به، لكنها وقعت في شر أعمالها فارتطمت بالأرض وانكسر جناحها.

وفي موقع آخر نجد هذلياً ينقض بسيفه على عدوه بسرعة وقوة، تشبه سرعة العقاب، الذي يخوت فيسمع لجناحيه وهو ينقض خريراً، فيقول أبو ذؤيب⁽⁵⁾: [الوافر]

فَأَلْقَى غِمْدَهُ وَهَوَى إِلَيْهِمْ كَمَا تَنْقُضُ خَائِتَةَ طُلُوبِ
مُوقَفَةَ الْقَوَادِمِ وَالذَّنَابِي كَانَ سَرَاتِهَا اللَّبَنُ الْحَلِيبِ

(1) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 159 / 2 .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 107 / 3 .

(3) الهذليون ، م . ن ، 234 / 1 ؛ عادة : اسم موضع ، يقول : جاء أخوهم يعدو وينقض انقضاض العقاب ، لحوم : أكل للحوم ، الفتخ : لين في الجناح .

(4) الهذليون ، م . ن ، 55 / 2 ؛ فتخاء الجناحين : العقاب مسترخية الجناحين لينتهما ، لقوة : تتلقف ما يقع بين مخالبها ، توسد فرخها : تطعمها ؛ وكرها : عشها ، نوى القسب : نواة التمر اليابس وهو يريد إبراز كثرتها ، يريد الشاعر أن العقاب يكثر لفراخه الصيّد فالقلوب كثيرة ملقاة ؛ خاتت : انقضت ، جائماً : رابضاً ، سمرات : شجرات ، أدماء : الطيبة (أم الغزال) ، سارب : سارحة تطلب المرعى ، فالعقاب انقضت على غزال جائم بعيد عن أمه التي سرحت تطلب المرعى .

(5) الهذليون ، م . ن ، 95 / 1 ؛ يقول أنه جرد سيفه من غمده ، وانقضت على من يقاتل صاحبيه انقضاض العقاب التي يسمع لجناحيها صوت حين تنقض على فريستها ، خائتة : منقضة ولها صوت حين انقضاضها ؛ موقفة القوادم والذنابي : في قوائمها وذنبها سواد مختلط ببياض وهي عقاب ليست بخالصة ، السرات : ريش ظهرها ، اللبن الحليب : ريش ظهرها أبيض ، وهي شر العقبان .

ويستخدم أبو ذؤيب في صورة العقاب الصوت المنبعث نتيجة اصطدام جناحي العقاب بالهواء، وهي منقضة على فريستها مسرعة، فصوتها يقتلع قلب الفريسة خوفاً وجزعاً، كما أنه يبرز طبيعة العقاب؛ فهي شريرة معتدية غير مرغوبة، كما استخدم اللون فجعل قوادمها مختلطة بين السواد والبياض، وظهرها أبيض كالحليب. والنشابه الذي رسمه الشاعر يكمن في القوة والحسم الذي اجتمع في السيف وهو يهوي على رؤوس أعدائه، وقدرة العقاب في وضع حد للفريسة التي انقضت عليها، فجمع بين صوت السيف وهو يطيح بالرؤوس، وصوت أجنحة العقاب المنقضة على فريستها فتتقلع الأفئدة لهما .

ولم ينس الهذليون الصورة المادية للعقاب، صوروا الريشة البيضاء في جناحها⁽¹⁾، وهي على بساطتها تدل على معرفة الهذلي بجميع سمات العقاب المادية وتفاصيلها، ولم يجدوا حرجاً في ذلك، فالريشة على قلة أهميتها أحياناً، كانت صورة أبدع فيها حذيفة بن أنس في بيان حالة صاحبه عندما أصيب بطعنة عمّت عليه مذاهبه حين غشيته، فبات لا يرى ريشة جناح العقاب البيضاء في محيطها الأسود، فيقول⁽²⁾:

وَعَمَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَأْتِي طَرِيقَهُ سِنَانٌ كَعَسْرَاءِ الْعُقَابِ وَمِنْهَبٍ

فالعقاب تزين جناحها ريشة بيضاء، محاطة بمحيط أسود، مما أكسبها ظاهرياً جمالاً ووداعة، وأخفت وراءها قوة خفية ترمز إلى الموت والدمار.

ج. الزواحف والحشرات :

جاء الحديث عن الأفعى في شعر الهذليين في سياق الخلاف والفتن، كرمز واضح، يتجلى التعبير عنه عند الاقتتال بين الناس، كما في قصة العلاقة بين أبي ذؤيب ومحبوبته "أم عمرو" التي كلف خالد بن زهير للتواصل معها، فجعله وسيطاً، ثم أوقعته في شباكها⁽³⁾، وانصرفت عن أبي ذؤيب، فيقول⁽⁴⁾ :

فَلَا تُتْبِعِ الْأَفْعَى يَدَيْكَ تَنْوَشُهَا وَدَعَهَا إِذَا مَا غَيَّبَتْهَا سَفَاتُهَا
وَأَطْفَى وَلَا تُوقِدْ وَلَا تَكُ مَحْضاً لِنَارِ الْعُدَاةِ أَنْ تَطِيرَ شَكَاتُهَا

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 189 ؛ ساعدة بن جؤية: خافية العقاب .
(2) الهذليون ، م . ن ، 3 / 23 ، والبيت في لسان العرب لساعدة بن جؤية ؛ عسراء العقاب : ريشة بيضاء تكون في جناح العقاب ، وعقاب عسراء ريشتها من الجانب الأيسر أكثر من الأيمن وقيل في جناحها قوادم بيض (ينظر: لسان العرب، مادة عسر) ، سنان: سير شديد ، فيقال: سَنَنْتُ النَّاقَةَ أَي سَيَّرْتُهَا سِيراً شديداً (ينظر: لسان العرب، مادة سنان) ، منهب : اسم فرس .
(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 162 .
(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 163 ؛ المحض : العود الذي تقدح به النار .

أما معقل بن خويلد فأورد صورة الحية في معرض تحذيره ووعيده لعبد الله بن عتبة، محذراً أن تكون نهايته كنهاية الأفاعي الرقط في جحورها، فتكسر رؤوسها تحت وطئ الأقدام، فيقول⁽¹⁾:
[الطويل]

أَبَا مَعْقِلٍ لَا تُوطِئَنَّكَ بَغَاضَتِي رُؤُوسَ الْأَفَاعِي فِي مَرَاصِدِهَا الْعَرَمِ

وفي صورة حسية ومعنوية رسم الهذليون صورة الحية؛ فشبه أبو كبير الذئب التي تسير في الليل سيراً سريعاً بالأفاعي⁽²⁾، وشبه عمرو بن الداخل سهم الصائد في استوائه كمتن الذئب، وانطلاقه مستقيماً على غير هيئة الحية عند زحفها في تموجها وتلويها، فيقول⁽³⁾: [الوافر]

كَمَتْنِ الذَّئْبِ لَا نِكْسٍ قَصِيرٌ فَأَغْرَقَهُ وَلَا جَلَسٍ عَمُوجٌ

والصور التي قدمت في سياق الحديث عن العقارب قليلة جداً، بينت صعوبة العيش، والضنك في الحياة، يقول حبيب الأعم⁽⁴⁾:
[مجزوء الكامل]

حَتَّى إِذَا فَقَدَ الصَّبْرَ حَ يَقُولُ عَيْشٌ ذُو عَقَّارِبٍ

وارتبطت صورة الجيش الزاحف بصورة أسراب الجراد كالسحاب تسد الأفق. وقدم الهذليون الجراد في صورة حركية؛ فجاء مجتمعاً ضمن سرب عدده كبير، فكان سرباً ورجلاً⁽⁵⁾ وليدأ⁽⁶⁾، وكانت أغلب صورته سائماً ينتشر على غير هدى. كما قدمه الهذليون جراداً وجابياً⁽⁷⁾ ودباً⁽⁸⁾، وجاء صيفياً لإبراز قدرته وسرعته البالغة في الانتشار فأكثر ما ينشط الجراد في الصيف. فهذا ساعدة بن جؤية يصور المقاتلين الذين أحاطوا بالغلام - الذي ولد لأمه بعد زمن - سرباً من الجراد، يوجهون له الطعنات في ظهره، فيقول⁽⁹⁾:
[الطويل]

فَلَمْ يَنْتَبِهْ حَتَّى أَحَاطَ بِظَهْرِهِ حَسَابٌ وَسِرْبٌ كَالْجَرَادِ يَسُومُ

ويصف أبو خراش طلائع مقاتلي الأعداء الذين يغيرون على قبيلته بجماعة الجراد التي تنطلق من أرض مستوية وغليلة، فيردهم ويكفهم عن قبيلته، ويقاثلهم قتال الأبطال الشجعان، جاء ذلك في معرض تأكيده على حقيقة معنوية، وشيمة انصف بها، وهو يعقد مقارنة بين الزوج - الذي اختارته أم الأديبر دونه - وبينه، فيعرض في القصيدة العديد من صفاته المحمودة، التي لا يتصف بها الآخر. ويظهر في نهاية القصيدة - في مقطع صغير ومشهد خاطف - قدرته على منع العوادي شديدة السرعة،

(1) الهذليون ، الديوان ، 3 / 65 ؛ لا توطئتك بغاضتي : لا يحملنك بغضك لي على أن تركب الأمر، في مراقبتها : في مخابئها وجحورها العرم : الرقط ، يقول : لا تفعلن ذلك فتهلك كما تهلك الأفاعي من وطئ رؤوسها .

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 105 .

(3) الهذليون ، م . ن ، 3 / 101 ؛ كمتن الذئب : السهم في استوائه كمتن الذئب ، لا نكس : لم ينكسر نصله الذي جعل أعلاه أسفله ، أغرقه : إذا شرعت فيه تحاوز وتنتى ، لا جلس : ليس بطويل ، عموج : يتلوى كالأفعى .

(4) الهذليون ، م . ن ، 2 / 82 ؛ ذو عقارب : عيش فيه مكروه .

(5) الرجل : الجراد الكثير (ينظر : لسان العرب ، مادة : رجل) .

(6) اللبد : المجتمع ، والمتراكب بعضه فوق بعض (ينظر : لسان العرب ، مادة : لبد) .

(7) الجابي : الجراد الذي يجبي كل شيء يأكله (ينظر : لسان العرب ، مادة : جبي) .

(8) الدبي : الجراد قبل أن يطير ، وقيل الدبي أصغر ما يكون من الجراد وواحدته دبة (ينظر : لسان العرب ، مادة : دبي) .

(9) الهذليون ، م . ن ، 1 / 229 ؛ حساب : عدد كثير ، سرب : قطع رجال ، يسوم : يسرح وينتشر على غير هدى ، يقول : كأنهم جراد يسرح .

وكفها عن قبيلته رغم قدرتها على النيل منها، فكان شاعرنا واثقاً من نفسه معتمداً على قدراته في صد
عدوه، يقول (1):

وَعَادِيَّةٌ تُلْقِي الثِّيَابَ وَزَعَتْهَا كَرَجَلِ الْجَرَادِ يَنْتَحِي شَرْفَ الْحَزْمِ

وفي صورة صوتية جلية رسم الهذليون صورة الضفادع وهي تصدر أصواتاً أشبه بصوت القيان
والمغنيات إذا رجعن في أصواتهن، فكان الصوت يصدر من جوفهن، ثم يتردد صداه بين الصخور
المحيطة بالتلعة الغنية بالماء الغزير، يقول أبو ذؤيب (2):

ضَفَادِعُهُ غَرَقَى رِوَاءَ كَأَنَّهَا قِيَانُ شُرُوبٍ رَجَعْنَنَ نَشِيْجُ

فجاءت الضفادع بمجموعها جوقة غنائية تصدر صوتاً جماعياً ونشيجاً حزيناً يثير في
النفس الحزن والشجن.

كما تناول الهذليون صوت البعوض وطنينه، فكان صوت البعوض - الذي ينبعث حول الماء
فيما لو اقترب إنسان منه - أشبه بصوت الجلبة التي تنبعث في القتال بين فريقين، يقول
المتنخل (3):

كَأَنَّ وَغَى الْخُمُوشِ بِجَانِبَيْهِ وَغَى رَكْبٍ أَمِيمٍ ذَوِي هِيَاطِ

بينما جاءت صورة الذباب حركية عندما انتشر حول الحمار الوحشي بشكل كثيف، وراح يطرد
عن جنبه الذباب الذي أزجه، فيقول أسامة بن الحارث (4):

كَأَصْحَمَ فَرْدٌ عَلَى عَائِلَةٍ يُقَاتِلُ عَنْ طَرْتِيهِ الذَّبَابِ

ح. النحل :

نال النحل، والحديث عن عسله والمُشتار وقصته جزءاً بارزاً في القصيدة الهذلية، بشكل يؤكد
أهمية النحل وعسله في الحياة العربية، " وإذا كان شعراء بعض القبائل قد عنوا بالإبل أو الخيل أو
الوحش في قصائدهم؛ فإن عناية هذيل بالنحل على مستوى الحياة الاجتماعية كانت معروفة مشهورة
ولهذا لم يكن غريباً أن تبرز غيرها من القبائل في هذا الموضوع " (5).

فلم ترد صورة النحل في شعر الهذليين في مقاطع جزئية في شطر، أو بيت واحد من الشعر بل
نجد مقاطع طويلة خصصت للحديث عن النحل في قصائد الهذليين، وفي غير موضع حتى بات

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 132 ؛ العادية : الحاملة أول طلائع مقاتلي الأعداء ، تلقي الثياب : من شدة عدوهم تقع عنهم عائمهم
وأرديتهم ، وزعتها : كفتها ومنعتها وردبتها ، ينتحي : يعتمد أو يقصد ، شرف الحزم : المكان الغليظ .

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 55 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 48 ؛ غرقى : الضفادع لا تغرق ولكنه أراد أن الماء كثير ، رواء:
ماء كثير ، قيان : إماء ، شروب : ندامى ، رجعن : رد صوتهن ، نشيج : بكاء .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 25 ؛ الوغى : الصوت ، الخموش : البعوض ، الهياط : الصياح والمجادلة .

(4) الهذليون ، م . ن ، 2 / 197 ؛ الأصحم : الحمار الوحشي وهو الذي يخالط سواده صفرة ، طرته : جنبه .

(5) جريدي المنصوري ، مشهد النحل في شعر الهذليين ، ص 911 .

الحديث عن النحل من المواضيع الأساسية المهمة في بعض القصائد، وزاد بعض الشعراء عندما أفردوا للنحل وعمله والمُشتار وقصته نصاً كاملاً⁽¹⁾. وجاء الحديث عن النحل في سياق الاعتداد بمشهد الاشتيار في وسط مقاطع النسيب، والحديث عن النساء، عندما ربطوا بين العسل، وفم المرأة ففي هذا السياق يسرد ساعدة بن جؤية حكاية المُشتار التي جعلها مرتبطة بنغر المرأة، بعد قوله⁽²⁾:

[الكامل]

وَمَا ضَرَبَ بَيْضَاءَ يَسْقِي دَبُوبَهَا دَفَاقُ فَعْرَوَانِ الْكَرَاثِ فِضِيْمَهَا
حتى ينتهي إلى قوله⁽³⁾ :

فَذَلِكَ مَا شَبَّهْتُ فَا أُمَّ مَعْمَرٍ إِذَا مَا تَوَالَى اللَّيْلُ غَارَتْ نَجُومُهَا

فاشتهر الهذليون باشتيار العسل، وأبرز شعراؤهم جهودهم الحثيثة في الوصول إلى الصافي منه، فكانت تحفهم المغامرة والتضحية، والمتعة وهم يشتارونه، ويتأملون النحل ويسجلون حركاته، ويصورون المُشتار ويترجمون أحاسيسه، وهو يتسلق الجبل ويحصل على العسل، يقول أحمد كمال زكي: " نجد بعض شعر هذيل حافلاً بهذا الاشتيار منصرفاً له، حريصاً على تسجيل ما يدور حوله من مخاطر ومتاعب " (4) .

ومهنة اشتيار العسل من المهن التي اشتهر بها الهذليون، أعانهم على ذلك القرب من النحل، والوقوف على خصائصه وصفاته، يعرفون صغيرها وكبيرها ودقيقها ومشهورها، حتى عرفوا مواقيت غدوها ورواحها، يقول أبو ذؤيب⁽⁵⁾:

[الطويل]

جَوَارِسُهَا تَأْرِي الشُّعُوفَ دَوَائِبَا وَتَنْقُضُ أَلْهَابَا مَصِيفَا شِعَابُهَا
إِذَا نَهَضَتْ فِيهِ تَصْعَدُ نَفَرُهَا كَقَتْرِ الْغَلَاءِ مُسْتَدِرّاً صِيَابُهَا
تَظِلُّ عَلَى الثَّمَرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ مَرَاضِيْعُ صُهْبِ الرِّيشِ زُغْبُ رِقَابُهَا

فأبو ذؤيب الهذلي يحدد مواعيد عودتها من رحلتها اليومية عند غروب الشمس عندما يصبح لونها أصفرًا، وهي تتبغى المرتفعات الشاهقة سكناً وبيتاً، حتى إنها تجهد في الوصول إلى بيوتها في أعالي الجبال لشدة ارتفاعها، كما أنها تأكل طعامها من شعوف الجبال. ففي صورة حركية ولونية يعرض الشاعر النحل فإذا شعرت بالحر في أيام الصيف الحارقة لجأت إلى شعاب الجبال لتخفف عن

(1) ينظر : جريدي المنصوري، مشهد النحل في شعر الهذليين ، ص 889 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 207 ؛ الضرب : العسل الشديد الصلب الأبيض ، دبوب : اسم غور (موضع) ، دفاق : اسم موضع قرب مكة ، عروان : اسم جبل تسكنه قبائل هذيل ، الكراث : شجر ، الضيم : اسم واد .

(3) الهذليون ، م . ن ، 1 / 211 ؛ توالي : أواخر ، غارت : غابت .

(4) أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، ص 86 .

(5) الهذليون ، م . س ، 1 / 75 - 77 ؛ جوارسها : ذكور النحل ، الشعوف : رؤوس الجبال ، تنقص إلهاباً : تلجأ إلى شق في الجبل ، مصيفاً شعابها : تتبغى الرطوبة في اليوم الحار في الصيف في الشعاب الجبلية ؛ تصعد نفرها : تصعد الجبل رغم الصعوبة في الارتفاع ، قتر الغلاء : السهام المدببة الكثيرة الرمي ، فهي سريعة كالسهم المنطلقة بقوة ، مستدراً صيابها : متتابعاً متلاحقاً متوجهاً بقوة إلى هدفه ومقصده .

نفسها الحرارة، حيث الظل والرطوبة، وإذا أخذت قسطها من ذلك انطلقت كالسهم السريعة المتتابعة نحو هدفها لتقتات من الأشجار المثمرة هي وصغارها ذات الأجنحة الصهباء.

ويؤكد مرة أخرى على مواقع بيوت النحل، التي تتخذ من الجبال العالية بيوتاً، فتهاج ضواري الطير الارتقاء إليها وتهال منها وتحشى الانزلاق من ملوسة صخور الجبل، فلا يستطيع أحد إليها وصولاً، إلا من كل حاذقاً متمرساً بذلك، " لأن العقاب لا يهولها أن تصعد إليه، وإنما يهولها أن تمر بحرفه لشدة ارتفاعه، ولاحظ أيضاً أن أبا ذؤيب يذكر فرع العقاب من مجرد المرور وبعد ذلك سيجعل المشتار يتدلى منها " (1)، يقول (2) :

[الطويل]

وَمَا ضَرَبَ بَيْضَاءُ يَأْوِي مَلِكُهَا إِلَى طَنْفٍ أَعْيَا بِرَاقٍ وَنَازِلٍ
تَهَالُ الْعُقَابُ أَنْ تَمُرَّ بِرِيدِهِ وَتَرْمِي دُرُوءَ دُونِهِ بِالْأَجَادِلِ
تَنْمَى بِهَا الْيَعْسُوبُ حَتَّى أَقْرَاهَا إِلَى مَأْلَفٍ رَحْبِ الْمَبَاعَةِ عَاسِلِ

ويقدم ساعدة بن جؤية صورة لعمل النحل في بيوته في قمم الجبال الشاهقة، وحركته بين الصخور، والمنحنيات والشعاب الجبلية (3)، وتدافعه ودوي صوته، وبحته عن طعامه وصنعه العسل وتنقله بين الأشجار وفي الأودية، ثم يرسم بيتها منظماً ومنسقاً، وكأنه قطعة من قصب، وقماش لا خلل فيها، وهي ميزة امتاز بها النحل في صنع خليته، فهي تصنع شمع خليتها من عملها وتنقلها في بطون الأودية فتجمعه في خليتها المنسقة المنظمة، فيقول (4) :

[الكامل]

أَرَى الْجَوَارِسَ فِي ذَوَابَةِ مُشْرِفٍ فِيهِ النَّسُورُ كَمَا تَحْبَى الْمُوكَبُ
مِنْ كُلِّ مُعْنِقَةٍ وَكُلِّ عِطَافَةٍ مِمَّا يُصَدِّقُهَا ثَوَابٌ يَزْعَبُ
مِنْهَا جَوَارِسُ لِلْسَّرَاةِ وَتَأْتِرِي كَرِبَاتِ أُمْسِلَةٍ إِذَا تَتَصَوَّبُ
فَتَكْشَفَتْ عَنْ ذِي مُتُونٍ نَيْرٍ كَالرِّيطِ لَا هِفٌّ وَلَا هُوَ مُخْرِبُ
وَكَانَ مَا جَرَسَتْ عَلَى أَعْضَادِهَا حِينَ اسْتَقَلَّ بِهَا الشَّرَائِعُ مَحْلَبُ

(1) محمد محمد أبو موسى ، الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء ، ص 576 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 1 / 141 - 142 .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 1 / 209 .

(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 177 - 179 ؛ أرى الجوارس : عمل النحل وهو جمع العسل عبر أخذها من الشجر واكلها ، ذؤابة مشرف : أعلى الجبل العالي ، كما تحبى الموكب : استدارت فيه النسور محتبون كأنهم موكب ؛ المعنقة : الطويلة ، العطافة : المنحنى الجبلي ، ثواب : النحل ، يزعب : يتدافع ويصدر صوتاً ؛ جوارس للسراة : نحل أكل وعامل مختص بأعالي الجبال ، وتأتری كربات أمسلة : تعمل وتعسل في صدور الأودية الغليظة ومسيل الماء ، الكربات : مواضع فيها غلظ أو مسيل الماء في الأودية ؛ فتكشفت عن ذي متون : فتكشفت عن العسل ، نير : بيت النحل مبني بطريقة منسقة منظمة وكأنه قطعة من قماش أو قصب ، الریط : الثوب أو القماش ، الهف : الخالي الذي ليس فيه شيء ، لا هو مخرب : الذي هجر من النحل فأصبح خراباً ؛ كان ما جرس : كان ما أكلته من الرحيق شمعا ، على أعضادها : حملته على أجنحتها ، حين استقل بها الشرائع : حين تنقلت عبر بطون الأودية وطرائقها ، محلّب : تمج فيه الشمع لتصنع منه الخلية لتعسل فيه .

وهذه أهم صور النحل وحركته عند الهذليين عندما توجهت جموع النحل الكثيرة نحو السماء⁽¹⁾، أما المنتحل في معرض وصف قوس حسنة الصنع⁽²⁾ اعتنى بها صانعها فلا صدع فيها ولا ثلم، فيشبه صوت وترها بصوت الزنابير الكبيرة من النحل، فيقول⁽³⁾: [السريع]

وَاسْلُ عَنْ الْحَبِّ بِمَضْلُوعَةٍ تَابَعَهَا الْبَارِي، وَلَمْ يَعْجَلْ
كَالْوَقْفِ لَا وَقَرَّ بِهَا هَزْمُهَا بِالْشَّرْعِ كَالْخَشْرِمْ ذِي الْأَزْمَلِ

والباحث في صورة النحل في الشعر الهذلي يجد أنها جاءت في سياقات شعرية تحدثت عن ثغر المرأة والمحبوبة كما تناولها ساعدة⁽⁴⁾ وأبو صخر⁽⁵⁾، أو الخمر ولذتها كما عرضها صخر⁽⁶⁾، أو ذكر البطولة والقوة⁽⁷⁾ وطيب ريق المحبوبة⁽⁸⁾ كما قدمها أبي ذؤيب.

ويرسم مكان النحل في جبال مرتفع يصعب الوصول إليه، سارداً قصة المشتار في الوصول إلى العسل ونيله ثم مزجه بماء نقي صاف، وما تخلل ذلك من مصاعب ومشاق ومغامرات، ليكمل قصة اشتييار العسل يقول أبو ذؤيب⁽⁹⁾: [الطويل]

فَشَرَّجَهَا مِنْ نُطْفَةٍ رَجَبِيَّةٍ سُلَّاسِلَةٍ مِنْ مَاءٍ لَصِيبٍ سُلَّاسِلِ
بِمَاءٍ شَنَانٍ زَعَزَعَتْ مَتْنَهُ الصَّبَا وَجَادَتْ عَلَيْهِ دِيمَةً بَعْدَ وَايِلِ
بِأَطْيَبٍ مِنْ فِيهَا إِذَا جُنْتُ طَارِقًا وَأَشْهَى إِذَا نَامَتْ كِلَابُ الْأَسَافِلِ

فكل حكايته عن ثغر المرأة، ولم يذهب إلى العسل إلا ليعود إليه. وفي سياق آخر، تحدث الشعراء الهذليون في سياق حديثهم عن اشتييار العسل عن الخمر التي تمزج بالعسل، يقول أبو ذؤيب الهذلي⁽¹⁰⁾:

فَمَا الرَّاحُ رَاحَ الشَّامِ جَاءَتْ سَبِيَّةٌ لَهَا غَايَةٌ تَهْدِي الْكَرَامَ عُقَابُهَا

(1) ينظر: الهذليون، الديوان، 103 / 2.

(2) ينظر: الهذليون، م. ن، 27 / 2.

(3) الهذليون، م. ن، 11 / 2؛ المضلوعة: القوس الشديدة، تابعها: تتبعها واعتنى بها، الباري: الصانع، ولم يعجل فيها: قام عليها قياماً حسناً؛ الوقف: الخلل والسوار، لا وقر بها: لا صدع بها ولا ثلم، هزمها بالشرع: صوت وترها، الخشم: زنابير النحل الكبيرة، الأزمل: الصوت.

(4) ينظر: الهذليون، م. ن، 175 / 1 - 177.

(5) ينظر: السكري، شرح أشعار الهذليين، 926 / 2.

(6) ينظر: السكري، م. ن، 927 / 2.

(7) ينظر: الهذليون، م. س، 87 / 1.

(8) ينظر: وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص 333.

(9) الهذليون، م. س، 144 / 1؛ أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 203؛ شرَّجها: خلطها، يقول: خلط هذا العسل بماء سحابة أصابتهم في رجب، النطفة: الماء، رجبية: في الشتاء، سلاسل: سهولة الدخول في الحلق، اللصب: الشق الضيق في الجبل، السلاسل: سهل يجري في مجرى سهل، الشنان: الذي يسيل من الجبل متفرقاً فيتشأن: يتفرق، الديمة: المطر: الساكن الدائم، جنت طارقاً: جنت ليلاً، كلاب الأسافل: كلاب أسافل الأودية.

(10) الهذليون، م. س، 72 / 1، قوله: لها غاية أي لها راية: علامة ينصبها الخمار، وعقابها: رايته أيضاً تدل على الكرام.

الفصل الرابع: أبعاد صورة الحيوان في شعر الهذليين

- أ. البعد الديني والأسطوري.
- ب. البعد الرمزي.
- ت. البعد النفسي.
- ث. البعد الاجتماعي.
- ج. البعد الإنساني.

لا يزال الشعر الهذلي مادة حيّة يلجأ إليها الدارسون، ويجدون فيها الكثير من العادات والتقاليد والقيم والمعتقدات، فشكّل الحيوان في الشعر الهذلي مساحة واسعة للبحث والدراسة. وما تحمله الصورة الشعرية من أبعاد مختلفة تكشف بوضوح عن واقع الإنسان الهذلي المعيش، وما ينطوي عليه من أبعاد دينية أسطورية ونفسية واجتماعية وإنسانية. ففي تناول الشاعر الهذلي للحيوان في شعره وتصويره، نقلى أبعاداً غير مرئية، لا تظهر بمجرد النظرة السريعة، فصورة الحيوان عكست قناعات الشاعر الدينية والنفسية والاجتماعية، التي لا تتجلى إلا من خلال الوقوف المتأنّي عند هذه الصور. وسأحاول في هذا الفصل تحليل أبعاد صورة الحيوان في شعر الهذليين، وتوضيح دلالاتها في سياقها الذي وردت فيه على النحو الآتي:

أ. البعد الديني والأسطوري :

من خلال تتبع صورة الحيوان في شعر الهذليين، نلاحظ قدراً كبيراً من الإشارات والرموز الدينية والأسطورية التي تشكل جزءاً مهماً من أجزاء الصورة، فما انفكت الأساطير والخرافات تشكل جانباً بارزاً في معتقدات الهذليين حتى صارت إحدى مكونات بعض الصور الشعرية الأساسية، بحيث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأصول أسطورية ودينية مغلقة في القدم.

فعندما يؤكد ساعدة بن جؤية على قوة رابطته بمحبوبته يحلف بالإبل، فيقول (1):

[الكامل]

إِنِّي وَأَيْدِيهَا وَكُلُّ هَدِيَّةٍ مِمَّا تَتَّحُجُّ لَهَا تَرَائِبُ تَتَّعَبُ
وَمُقَامِهِنَّ إِذَا حُبِسْنَ بِمَازِمٍ ضَيْقِ أَلْفٍ وَصَدَهْنَ الْأَخْشَبُ
حَلَفَ امْرِئٍ بَرٍّ سَرَفَتْ يَمِينُهُ وَلِكُلِّ مَا تُبْدِي النُّفُوسُ مُجَرَّبُ

فاتخذت الإبل بعداً دينياً وأسطورياً في عقيدة الشاعر، عندما اعتقد أنها شيء مقدس يحلف به، مما يؤكد أنّ الرابطة بينه وبين إبله قوية متينة، فالشاعر يُقدس هذا الحيوان، ويعتقد أنّ زيارة جبل الأخشب بمنى من أهم المناسك التي يمكن للمتعب أن يفعله في الأشهر الحرم، فيضيف إليها صبغة قدسية أخرى عندما صبغها بمكانة منى المقدسة (2).

ولم يجد الأعمى أفضل من ثياب الزاهب ليشبه بها جلود صغار الضبع، فيقول (3):

[مجزوء الكامل]

سُودٍ سَحَالِيلٍ كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثِيَابَ زَاهِبٍ

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 171 - 172؛ إني وأيديها : يحلف بالهدايا فيحلف بما نسكوه وهو يحلف بغير الله ، تتج : تصب ، تتعب : تتعبث ؛ المأزم : مضيق ضيق بين عرفة وموضع يعرف بجمع ، ألف : أي ملتف ، والأخشب : جبل منى .

(2) عاطف محمد كنعان ، الصورة الفنية في شعر الهذليين ، ص 121 .

(3) الهذليون ، م . س ، 2 / 80 ، يريد أن ثياب الزاهب سود ، وسحالييل : لينة ، عظيمة البطن .

ولعل الرّمز الدّيني المتمثّل في الرّاهب وثيابه السّوداء لا يغيب عن ذهن الأعلّم، وهو يصف صغار الضّبع، فوظف التّراث الفكري أو الأسطوري من خلال الإشارات والرّموز، وفي ذلك يقول يوسف خليف: " ولكنّا مع ذلك نحس شيئاً من السّخرية الماكرة من هذه التّفاليد الكهنوتية في عقد الصّلة بين جراء الضّباع وبين الرّهبان، وهي سخرية ليست غريبة على هؤلاء الصّعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم " (1). أو من خلال الألوان والأصوات وظلمة اللّيل والبرق والرّعد، أو اللّون الأبيض والأسود، فنرى أمية بن أبي عائذ يشبه الإبل الصّرصرانيات باللّيل لشدة سواده، وما يثيره من خوف وقلق في نفس الإنسان، فيقول (2):

وَلَيْلٌ كَأَنَّ أَفَانِينَه صَرَاصِرُ جُلُنْ دَهْمِ المَظَالِي

ونظراً لارتباط اللّون الأسود عند العرب بالظلام وعدم وضوح الرؤية، ما جعلهم يخافون منه، ويعدّونه رمزاً للغدر والخيانة، ولون المجهول من الجن والغيلان، فسواد دليل تشاؤم (3). أما فيما يتعلق بالصّوت ودلالاته، يقول ساعدة يصف فرسه في ساحة الوعى (4):

وَشَرْجَبٍ نَحْرُهُ دَامٍ وَصَفَحَتْهُ يَصِيحُ مِثْلَ صِيَا حِ النَّسْرِ مُنْتَحِمٍ
مُطَرَفٍ وَسَطَ أُولَى الْخَيْلِ مُعْتَكِرٍ كَالْفَحْلِ قَرَقَرٍ وَسَطَ الْهَجْمَةِ الْقَطِمِ

وتقديم مشهد يجتمع فيه أكثر من حيوان، أو حيوان فيه أكثر من سمة لأكثر من حيوان؛ إنّما كان ذلك لإيضاح المعنى، وتعميق فهم الحادثة لتعزيز أثرها في الوجدان الجمعي من خلال تقديم صورة مخالفة للواقع الملوس فتكون أكثر ثباتاً وتأثيراً، فجاء صوت فرسه خليطاً من صياح النّسر وقرقرة الجمل لحظة هجومه، وهو خليط صوتي يجمع بين الأسطورة وبين الأثر النفسي العميق الذي قد يلحق بالأعداء حين النّزال والقتال.

وجاءت النّاقة عند أبي كبير الهذلي أشبه بـ "رّة الحرب" التي تلقح الأستة والرمّاح (5)، فصخب المعركة الصّارية لم يخل من هدير الإبل وصياحها حتى قلعت الأفئدة، فيقول (6): [الكامل]

وَإِذَا الْكُمَاةُ تَعَاوَرُوا طَعَنَ الْكُلَى نَدَرَ الْبِكَاةُ فِي الْجَزَاءِ الْمُضْعَفِ
وَرَغَا بِهِمْ سَقَبُ السَّمَاءِ وَخُنْقَتِ مَهَجُ النَّفْسِ بِكَارِبٍ مُتَزَلِّفِ

(1) يوسف خليف، الشعراء الصّعاليك، ص 301.
(2) الهذليون، الديوان، 2 / 188؛ أفانينه: نواحيه، صراصر: المولدات النبطيات وهن إبل من الشام، دهم: أي فوقهن أخبية سوداء.
(3) ينظر: أمل أبو عون، اللّون وابعاده في الشعر الجاهلي، ص 60 – 61.
(4) الهذليون، م. س، 1 / 205 – 206، الشرجب: الطويل، الانتحام: سبيه النفس من الصدر، المطرف: الذي يرد أوائل الشيء، المعتكر: الذي يعتكر وسطها يقبل ويدبر، القرقرة: الهدر، الهجمة: القطعة من الإبل، القطم: الصئول والمهتاج.
(5) ينظر: أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، 1 / 222.
(6) السّكري، شرح أشعار الهذليين، 3 / 1087، الكمّاء: المقاتلون الشجعان، تعاوروا: تقاتلوا، ندر البكارة: تنذر الأبيكار من الإبل أي تسقط من الدية فلا تحتسب، في الجزاء: في الدم والقتل، المضعف: يريد الدية التي تضاعف؛ رغا بهم سقب السماء: حل بهم ما حل بقوم ثمود حين رغا بهم البكر من الهلاك، والبكر ولد ناقة سيدنا صالح، الكارب: الكرب، متزلف: يتزلف منهم أي يدنو من أجوافهم..

فجاءت صورة النَّاقَة في سياق صورة ملحمية اجتمعت فيها حركة أدوات الحرب، والقتل والموت، وسيلان الدماء، وما آلت إليه حالة المقاتلين لشدة الطعن والقتل في المعركة، فأصابهم ما أصاب قوم ثمود حين نزل بهم الهلاك، وأحاط الموت بهم من كل جانب.

ونُعَدُّ صورة النَّعامة عند أبي العيال الهذلي أكثر الصُّور انسجاماً مع قصة النَّعامة الأسطورية، فالنَّعامة ذهبت تطلب قرنين تلتمس بهما القوة لتدفع عن نفسها الضَّيم، فعادت بلا أذنين، فظلمت نفسها، يقول أبو العيال (1):

أَوْ كَالنَّعَامَةِ إِذْ غَدَّتْ مِنْ بَيْتِهَا لِيُصَاعَ قَرْنَاهَا بِغَيْرِ أَذِينَ
فَاجْتَنَّتِ الْأَنْبَانَ مِنْهَا فَانْتَهَتْ صَلَمَاءَ لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ قُرُونِ

وبعدُ ثور الوحش حيواناً أسطورياً يصارع الظلام، ويمارس فعلاً طقسياً يشترك فيه القمر مع عناصر الطبيعة التي تتعلق بجذور أسطورية، وعقائد قديمة لها صلة بالقمر لدى الهذليين، فوظف الهذليون هذا الترابط توظيفاً أسطورياً غنياً بالدلالات والأبعاد الدينية التي تجسد تلك العلاقة، كما قال أمية بن أبي عائذ (2):

هَجَانِ السَّرَاةِ تَرَى لَوْنَهُ كَقَبْطِيَةِ الصَّوْنِ بَعْدَ الصَّقَالِ
حَدِيدِ الْقَنَاتَيْنِ عِبِلَ الشَّوَى لَهَا قِي تَلَالُوهُ كَالْهَلَالِ

فثور أمية أبيض الظهر كثوب قبطي مصقول، إذ ارتبط ظهور الثور الوحشي الأبيض ذي القرنين بصورة الهلال فشكّل رمزاً دينياً، وبعداً أسطورياً لدى الهذليين في إشارة واضحة إلى العلاقة المقدسة بين الثور والقمر، فضلاً عن وجه الشبه الكبير بين قرني الثور والهلال، بالإضافة إلى ما يرمز إليه اللون الأبيض في ذهنية العرب من قدسية ودلالة أسطورية (3).

والباحث في صورة الثور الوحشي في شعر الهذليين يجدها تعتمد عدة عناصر تعزز البعد الأسطوري، فالبعد الزمني المتمثل في الدهر الذي لا يبقى على حدثانه، والربط بين الناقة والثور الوحشي عند الحديث عن الناقة في سفرها وارتحالها وهي تقطع الصحراء، واحتماء الثور الوحشي تحت شجرة الأُرطي بعيداً عن المطر والبرق في الليل عندما يسدل أستاره، فيجد الثور في شجرة الأُرطي الغطاء من المطر والليل البهيم؛ يستمد منها القوة بعد أن غابت قرينته الشمس التي تمدّه بالنور، وما أن يزول الليل وتشرق الشمس حتى تعود إليه قوته ونشاطه، وأخيراً مشهد المعركة بين الثور وكلاب الصيد الضارية،

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 268 ؛ الصلّماء : مقطوعة الأذنين . فهو أشبه بالنعام التي ذهبت تطلب قرناً فعادت بلا أذنين .
(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 176 ؛ هجان السراة : الثور الوحشي الأبيض الظهر ، قبطي : ثوب ينسب إلى القبط ، الصون : مصان ، حديد القناتين : حديد القرنين ، عبل الشوى : غليظ القوائم ، لهاق : أبيض .
(3) ينظر : أمل أبو عون ، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي ، ص 65 - 67 .

التي تنهزم أمام كبرياء الثور وهو يمزقها بقرنيه، حينها يتدخل الصائد ويرميه بسهامه، يقول أبو ذؤيب الهذلي (1):

وَلَا شَبُوبٌ مِنَ الثَّيْرَانِ أَفْرَدَهُ
أَمْسَى وَأَمْسَيْنَ لَا يَخْشَيْنَ بَاجَةً
عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الْإِغْرَاءِ وَالطَّرْدِ
إِلَّا الضَّوَارِي فِي أَعْنَاقِهَا الْقِدْدُ

[البسيط]

وَاللَّهُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ
ظَلَّتْ بِبَلْقَعَةٍ وَخَبَتْ سَمْلَقُ
فِيهِ يَكُونُ مَبِيتُهَا وَتَرْوُدُ
أَوْ رَيْطَ كَتَّانٍ لَهْنٍ جُلُودُ
كُتِبَ الْبَيَاضُ لَهَا وَبُورِكُ لَوْنُهَا

[الكامل]

تحكي صورة الثور الوحشي في الشعر العربي القديم في عناصرها المتكررة قصة يمكن ربطها بالأسطورة، عبر العلاقة بين السيد والقمر والنور والوحشي (3)، فمن الباحثين من أخذ من اللون الأبيض بعده الديني، على أساس أن العرب احتفت به وربطت بين الزهرة والبياض والشمس والقمر والنور والبقرة الوحشية، وكلها رموز مقدسة في المعتقدات القديمة (4). ويمكن ربطها أيضاً بمنبع طقوس أخرى كشعائر السحر المتعلق بالصيّد، فالشاعر يرسم صورة كاملة ومفصلة لهيكل الثور من لون وحجم وحركة، تكاد تكون حكاية تتعلق بالأصل الأسطوري، الذي يدور حول الحياة والمكانة الدينية للنور الوحشي، " وتكاد تكون صورة الثور المصروع مقصورة على شعر الهذليين دون غيرهم، ولا يذكر الثور الوحشي وحده في هذه اللوحة الدائمة، إذ يذكر معه حمار الوحش والوعول في رؤوس الجبال، والبطل المحارب، والجماعة الإنسانية الكثير عددها، بل لعل الثور أقلّ النماذج المصروعة ذكراً، ففي العادة يذكر حمار الوحش ويكتفى به.

وقد ورد الثور عند الهذليين في ثلاثة مواضع فقط: عند أبي ذؤيب الهذلي، وساعدة بن جؤية، وأسماء بن الحارث، أما باقي الصور فالحمار الوحشي في أكثرها ثم الوعل، وتبدأ مثل هذه الصورة عادة بتعبير يذعن لقوة الزمن " فالدهر لا يبقى على حدثانه " أو " تالله يبقي على الأيام " أو " ولا يبقي على

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 126 - 127 ؛ الشبوب من الثيران : المسن منهن ، أفرده : انعزل عنها، الكور : القطيع، كثرة الإغراء والطرد : كثرة ملاحقة الكلاب له وطردها له ، الباجنة : المصيبة والبائقة ، القدد : القلائد ، الروض : الأرض الخضراء المنبسطة، لا يرغمن واحدة: لا يكرهن .

(2) الهذليون ، م . ن ، 3 / 74 - 75 ؛ ناصفة الجواء: مطمأن يتصل بالوادي، والجواء : البطن من الأرض والواسع من الأودية، ركود : الدعة والخصب، البلقعة : الأرض التي لا شيء فيها ، الخبت والسملق : ما استوى من الأرض ولا نبت فيها، تروء : تجيء وتذهب، المشاوذ : جمع مشوذ وهو كل ثوب يشد على الرأس، ربعية: منسوبة إلى ربعة، كتب البياض لها: خلقت بيضاء، حتى الحواجب سود : كل ما علا العين فهو أسود .

(3) إحسان الديك ، صدى عشتار في الشعر الجاهلي، ص 162 .

(4) إحسان الديك ، م . ن ، ص 161 .

الحدثان"، وعناصرها لا تختلف عن صورة الانتصار إلا في ركنها الأخير، إذ تبدأ المعركة وينتصر النور أولاً، ويوشك أن ينجو لولا أن الصائد يرمي سهمه فلا تطيش، وإنما تصيبه ويهوي صريعاً⁽¹⁾.

وبالعودة إلى أثر الإسلام في تغيير بعض المعتقدات الجاهلية، نجد في صورة الثور الوحشي لدى أبي ذؤيب الهذلي في عينيته التي نظمها بعد إسلامه، والتي مطلعها⁽²⁾:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ

يجعل نهاية حتمية للثور، بعد أن تكالبت عليه أكلب الصائد وسهامه، فانهار تحتها صريعاً بعد مقاومة باسلة، فيقول⁽³⁾:

فَكَبَا كَمَا يَكْبُو فَنِيْقُ تَارِزُ بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ أَبْرَعُ

أما في صورة الثور الوحشي التي وردت في دالية أبي ذؤيب التي نظمها في الجاهلية ومطلعها⁽⁴⁾:

تَاللَّهِ يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ مُبْتَقِلٌ جَوْنَ السَّرَاةِ رِيَاعُ سِنَّهُ غَرْدُ

فكانت نهاية المعركة مختلفة، عندما ترك الثور الكلاب الضارية مضرجة بالدماء، متهاكة تحت ضربات قرنيه الحادين، فعاد وكله ثقة وعزة وزهو بانتصاره، فيقول⁽⁵⁾:

غَادَرَهَا وَهِيَ تَكْبُو تَحْتَ كَلْكَلِهِ يَخْسُو النُّحُورَ بِوَرْدٍ خَلْفَهُ الزَّيْدُ

حَتَّى إِذَا أَمَكْنَتْهُ كَانَ حِينَئِذٍ حُرّاً صَبُوراً فَنِعْمَ الصَّابِرُ النَّجْدُ

واستمرراً لنظرة الهذليين الأسطورية للثور الوحشي، عرضه أبو ذؤيب كأنه كوكب منجرد منفرد ينقض لشدة بياضه، فيقول⁽⁶⁾:

مِنْ وَحْشٍ حَوْضَى يُرَاعِي الصَّيْدَ مُبْتَقِلًا كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي الْجَوِّ مُنْجَرِدُ

فِي رَبْرِبٍ يَلْقَى حُورٍ مَدَامِعُهَا كَأَنَّهُنَّ بَجَنَّبِي "حَرِيَّة" الْبَرْدُ

مما يؤكد قدسية الثور الوحشي ومكانته في التراث الديني الجاهلي، بينما ظهرت ملامح التغيير في اعتقاد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام، وتأثروا بالدين الجديد، وتعاليمه التي لا تؤمن بالخرافات، أو الأساطير أو بقديسية الحيوانات.

(1) عماد علي الخطيب، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري، ص 192 - 193.

(2) الهذليون، الديوان، 1 / 1؛ أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 138.

(3) الهذليون، م. س، 1 / 15، أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 165، كبا: هوى وسقط، الفنيق: الفحل من الإبل، تارز: ميت، أبرع: أعظم.

(4) الهذليون، م. س، 1 / 124؛ أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 84؛ مبتقل: يأكل البقل، جون السراة: أسود الظهر، رباع سنه: ألقى السن التي بين الثنية والناص، غرد: كثير النفاق.

(5) الهذليون، م. س، 1 / 128؛ أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 89 - 90؛ صرد: طائر معروف، نياة: الصوت الخفي، أسدها: أغراها به، عرست: كلت وتعبت، الكلكل: صدر الثور، الورد: الدم، خلفه الزبد: نفخ الجرح بالزبد فجاش به، حرأ: كريماً عزيزاً، النجد: الشجاع ذو النجدة.

(6) الهذليون، م. س، 1 / 126 - 127؛ أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 87 - 89؛ من وحش حوضى: من مكان صيد بالقرب من ماء لبني طهمان، المنجرد: المنزول المنزوي، الربرب: القطيع من البقر، اليلق: الأبيض، حور مدامعها: بياض.

أما الغزالة فقد اقترنت صورتها بالمرأة في رسم صورة جميلة للمرأة المعشوقة، وقدمت في مشهد من الطبيعة الرائعة، ولم تأت في صورة الموت إلا نادراً، وفي ومضات خاطفة، مما يعزز النظرة الأسطورية إلى الغزال، فهي حيوان طوطمي عند الجاهليين، حتى عدت الشمس من معاني الغزال في بعض معاجم اللغة (1).

لذا لم يرد في شعر الهذليين ما يشير إلى صيد الطّبي، استناداً إلى "أسطورة تحريم صيد الطّباء، فقد كان الطّبي حيواناً مقدساً، وكان العرب يعتقدون بأنه ماشية الجن، ولذلك حرّموا صيده في الحرم" (2). فالطّمع الذي دفع العقاب إلى مهاجمة الغزالة قضى عليها، وجعلها تترك فراخها دون معيل، بعد أن كانت هائلة مطمئنة بصيد الأرناب، فالغزال تحرسها قوة خفية، وكل من يعرض حياتها للخطر، فجزأه جزاء العقاب، يقول صخر الغي (3):

فَخَاتَتْ غَزَالًا جَائِمًا بَصُرَتْ بِهِ لَدَى سَمُرَاتٍ عِنْدَ أَدْمَاءِ سَارِبٍ
فَمَرَّتْ عَلَى رَيْدٍ فَأَعْنَتَ بَعْضُهَا فَخَرَّتْ عَلَى الرَّجُلَيْنِ أَخِيبَ خَائِبٍ
تَصِيحُ وَقَدْ بَانَ الْجَنَاحُ كَأَنَّهُ إِذَا نَهَضَتْ فِي الْجَوِّ مَخْرَاقُ لَاعِبٍ

وارتبطت صورة الحمامة في شعر الهذليين بالأسطورة، فصورتها ذات دلالة تحمل الحزن والفقد، فالقصة الأسطورية التي تحكي قصة الحمامة التي فقدت فرخها "هدىلاً" منذ القدم - ومن ذلك الحين لا يزال الحمام يبكيه - لا زالت راهنة في ذهن الشاعر الهذلي، فتراه يعزي نفسه، ويستأنس بها كلما فقد عزيزاً، يقول صخر الغي (4):

وَذَكَّرَنِي بُكَائِي عَلَى تَلِيدٍ حَمَامَةٌ مَرَّ جَاوِبَتِ الْحَمَامَا
تُرْجِعُ مَنْطِقًا عَجَبًا، وَأَوْفَتْ كَنَائِحَةً أَتَتْ نَوْحًا قِيَامَا
تُنَادِي سَاقَ حُرٍّ وَظَلَّتْ أَدْعُو تَلِيدًا لَا تُبَيِّنُ بِهِ الْكَلَامَا

وغير بعيد عن قصة الحمامة الأسطورية، لا زالت قناعات دينية ترخي بظلالها على شعراء هذيل بعد الإسلام، عندما آمنوا بقصة طوق الحمامة، التي بعثها سيدنا نوح عليه السلام كي تدله على البر، فلما عادت وقد خضبت رجلها بالوحل، طلبت منه أن يجعل له جعلاً، فدعا لها بالطوق الذي لا يزال يطوق صدرها أسفل رقبتها، وهذا ما عرضه عبد الله بن أبي ثعلب الهذلي في سياق حديثه عن الموت وإيمانه بنهاية الناس إليه (5).

ومن المعتقدات الأخرى التي امتزجت فيها الأسطورة عقيدة الزجر والعيافة، فما جاء من جهة اليمين سموه سانحاً، وما جاء من جهة اليسار سموه بارحاً، وما يأتيهم مستقبلاً فهو الناطح، أما ما جاء

(1) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : غزل .

(2) عماد علي الخطيب ، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري ، ص 259 .

(3) الهذليون ، الديوان ، 56 / 2 .

(4) الهذليون ، م . ن ، 66 / 2 .

(5) السكري ، شرح اشعار الهذليين ، 90 / 2 .

من الخلف فهو القعيد، يروي أبو عبيدة: " أن البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره، والسانح ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه" (1)، وكانت هذيل تتشام بالسنيح، وغيرها بالبارح، يقول أبو ذؤيب الهذلي (2):

[الطويل]

زَجَرَتْ لَهَا طَيْرَ السَّنِيحِ فَإِنْ تُصِبْ هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى يُصِيبُكَ اجْتِنَابُهَا

واختلفت العرب في معنى الزجر؛ لكن المرجح أن الزجر وهم وخرافة تستند على المصادفة، فمن زجر طيراً وقضى لبانته تفاعل باتجاهها، ومن لم يقض حاجته تشام بهذا الاتجاه نفسه، يقول أبو ذؤيب الهذلي (3):

[المقارب]

أَرَبْتُ لِأَرَبْتِهِ فَاَنْطَلَقَ — تَ أَزْجِي لِحُبِّ الْإِيَابِ السَّنِيحَا

وكذلك الاعتقاد بالهامة، وهي طائر يخرج من القتل الذي لم يؤخذ بثأره، يطالب بالثأر من القاتل، حتى يُقتل قاتله فيسكن، يقول مالك الهذلي (4):

[الطويل]

أَتَى مَالِكٌ يَمْشِي إِلَيْهِ كَمَنْ مَشَى إِلَى خَيْسِهِ سَيْدٌ بِخَفَانٍ قَاطِبُ
فَزَالَ بِذِي دَوْرَانٍ مِنْكُمْ جَمَاجِمٌ وَهَامٌ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ صَاخِبُ

ولما كانت هذيل تأخذ بالثأر، فاعتقدت أن الهامة تخرج من رأس القتل على شكل طائر هائم، وسواء مات الإنسان مقتولاً أو مات حتف أنفه " فصياح الهامة وطلبها السقيا لم يكن للذي مات مقتولاً وحسب، وإنما كان أيضاً للذي مات ميتةً طبيعية، ولا تستدعي ميتته صياحاً للأخذ بثأره" (5). أما الصدى فهو طائر يخرج من قبر الميت أو رأسه، فينعى إليه ضعفه ولينه وعجزه.

وانسجاماً مع معتقد قديم لدى الجاهليين والهذليين، يؤكد أبو خراش أنه يرد جوعه ويؤثر غيره بطعامه، فالعرب تزعم أن الرجل إذا طال جوعه، تعرضت له في بطنه حية، تعرف بالشجاع والصفر، وهو بذلك يعزز قناعات تقليدية وخرافية كانت تؤمن بها العرب في الجاهلية، فيقول (6):

[الطويل]

أَرَدُّ شُجَاعَ الْبَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ وَأَوْثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّعْمِ

مما سبق، نجد أن علاقة الشاعر الهذلي بالحيوان قامت في أغلبها على أساس أسطوري، فجاء في أشعار الهذليين ما يدل بوضوح على رسوخ الحيوان في موروث الهذلي العقائدي، كما جاء بمعان، وصور مليئة بالألفاظ والتعابير التي تدل على عظمة الحيوان، وقديسيته وقيمته لديهم، فالبعد

(1) الأصفهاني، الأغاني، 157/9.

(2) الهذليون، الديوان، 70/1؛ أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، ص 27؛ طير الشمال: السانح وهو يريد طير الشؤم.

(3) الهذليون، م. س، 136/1؛ أبو ذؤيب الهذلي، م. س، ص 61؛ أربت لأربته: كانت لي حاجة مع حاجته، وكانت لي في صحبته حاجة؛ السنيح: ما يسبح له فيتشام به؛ والإرية: الحاجة.

(4) السكري، شرح اشعار الهذليين، 469/1؛ السيد: الأسد بلغة هذيل، قاطب: زاو ما بين عينيه، ذو دوران: يوم من أيام العرب، الهام: جمع هامة، صاخب: صائح.

(5) إحسان الديك، الهامة والصدى، صدى الروح في الشعر الجاهلي، ص 658.

(6) الهذليون، م. س، 128/2؛ شجاع البطن في لسان العرب: أن العرب تزعم أن الرجل إذا طال جوعه تعرضت له في بطنه حية يسمونها الشجاع والصفر.

الدِّينِي والأسطوري يمثل شاهداً واضحاً على ما كانت هُذَيْل تعتقده، وترسب في أذهانها في العصرين الجاهلي والإسلامي.

ب. البعد الرمزي :

لما كان الحيوان أقرب مكونات البيئة إلى الشاعر الهذلي بحكم التقارب في حياتهما، فكلاهما يتزاوج ويتناسل، ويعتني بصغاره، ويعتدي ويعتدى عليه، ويتصارع للحصول على طعامه ويحرص على بقائه ويدافع عنه، الأمر الذي جعل الحيوان مقرباً من نفس الهذلي وبات مقرباً منه حتى باتت موارد الحياة مشتركة بينهما، وصار الحيوان عنصراً صالحاً لحمل همومه، وخير معبر عن حياته بكل واقعية وصدق.

فلم يخلع الشعراء الهذليون على حيوانهم ما لا يصدر عنه حقيقة، ولم ينسبوا إليه طباعاً لا تصدر عنه، بل تناولوا صورته التي اختزنوها بعد مشاهد كثيرة رأوها قديماً، فاسترجعوها وقدموها بلونها وصوتها وحركتها، حسبما كان يعيشون من حالة شعورية أو نفسية، فتناولوا فعلاً وأحجموا عن آخر، أو ذكروا جزءاً وتركوا آخر، ليعبروا عن مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم.

فوردت في أشعار الهذليين الكثير من الملامح والإشارات الدالة على واقعية الشعراء وصدقها عبر عرض أسماء الأماكن والمواضع وطبيعة أرضها ومواردها وأنواع نبتتها، ومعاركها وأيامها وأسماء القبائل وزعمائها⁽¹⁾. رغم ذلك لم يتوقف الهذليون عند نقل الصورة كما هي، دون إبداع وتمكن، أو إبراز لقدرتهم في تناول الحيوان في صورة جميلة ومؤثرة تجتمع فيها القدرة على النظم المعتمد على خيالهم المرهف ودلالاته الرمزية المقنعة. فصورة الحيوان في شعر الهذليين بقدر ما كانت معانيها واقعية مشتقة من بيئتهم الاجتماعية والجغرافية كانت لها مدلولات رمزية محتجبة، ففي غمرة حرصهم على ترسيخ الواقعية في ديوانهم لم تخل صورة الحيوان من الرمز والتكثيف الدلالي، بمعنى أن المشهد الموصوف بصورته الواقعية كان يحتوي على معانٍ وحقائق كبرى تتوارى تحت معناه الظاهر دون أن تؤثر في واقعيته أو صدق تصويره.

ولكثرة أيام الهذليين وغزواتها وجدوا في الإبل رمزاً جسدوا فيها مأساة الحرب والموت وهولها وخطرها، يقول صخر الغي⁽²⁾ :

[البسيط]

أَبَا الْمُثَلَّمِ مَهْلاً قَبْلَ بَاهِظَةٍ تَأْتِيكَ مِنِّي ضَرُوسٌ نَابِهَا عَصِلُ

(1) ينظر : إسماعيل الننتشة ، أشعار هذيل ، 205 / 2 .

(2) الهذليون ، الديوان ، 229 / 2 ، باهظة : أمر بيهظك ، وهي النازلة والغلبة ؛ ضروس : عضوض تعض حاليها ، وهي الناقة سيئة الخلق عند النتاج فتمنع حاليها وولدها إلا بعسر ، نابها عصل : قديمة ، لأن البعير إنما يعصل نابيه إذا أسن ، أي فهذا شر قديم .

ويقول عبد الله بن أبي ثعلب (1) :

[المتقارب]

وَعَيْنِي جُودًا عَلَى مَالِكٍ إِذَا الْحَرْبُ حُشَّتْ تُشَبُّ الضَّرَامَا
وَدَرْتُ حَوَالِبُهَا بِالْدَمَا ءِ فَاحْتَلَبَ الْحَالِبُونَ السَّمَامَا
ذَعَافَ الْبَوَارِقُ فِي دِرَّةٍ مِنْ الْحَرْبِ يَحْلُبُ مَوْتًا زَوَامَا

فرمز الشاعر إلى ضراوة المعارك ونتائجها الوخيمة، وما فيها من قتل وتقطيع ودماء وموت حاسم بالإبل التي تتأبى على حالبتها فتعضه من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الإبل التي تدر لحالبها أشبه في دلالاتها الرمزية بالمعركة التي تشتعل وتضرم وتفضي إلى دماء كثيرة، لكن بفارق واضح أنَّ الإبل تحلب فتدر اللبن بينما تحلب المعركة فتدر السموم القاتلة.

كما رمزت الإبل المتمثلة بالفحل في سياق صورة البرق والمطر الهائل المبشر بالخير، إلى الخصوبة، ففحل الإبل يزرع بذور اللقاح والخصب، فنجد قيمة الفحل في نفس الهذلي بما فيها من انبعاث ونمو الحياة لا تقل عن أهمية البرق والرعد الذي يبشر بمقدم الخير على الأحياء. فالتجانس قائم بين البرق الذي يبشر بالخير، باعتا الحياة في الأرض، وبين الفحل الذي يشكل قوام الحياة للهذلي (2)، فأخصاب الإبل والقاحها وولادتها تشبه إخصاب السحب، وما يرافقها من برق ورعد وولادة المطر، وهذا التشبيه له دلالة رمزية على فكرة الإخصاب والإلقاح وولادة المطر (3)، يقول أبو ذؤيب (4):

[البسيط]

أَمْنِكَ بَرْقُ أَبِيْتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ كَأَنَّهُ فِي عِرَاضِ "الشَّامِ" مِصْبَاحُ
يَجُشُّ رَعْدًا كَهَدْرِ الْفَحْلِ تَتْبَعُهُ أَدَمُ تَعَطَّفَ حَوْلَ الْفَحْلِ ضَحْضَاحُ
فَهْنٌ صُعْرٌ إِلَى هَدْرِ الْفَنِيقِ وَلَمْ يَخْفِزْ وَلَمْ يُسْلِهِ عَنْهُنَّ إِقَاحُ
فَمَرَّ بِالطَّيْرِ مِنْهُ فَاعِمٌ كَدِرٌ فِيهِ الظِّبَاءُ وَفِيهِ الْعُصْمُ أَجْنَحُ

وترمز الحية أيضاً إلى الخصب عندما تتجسد الأركان الثلاثة منذ العهد الفردوسي، وهي: المرأة والحية والماء (5)، يقول الممتحل الهذلي (6) :

[السريع]

كَالْأَيْمِ ذِي الطَّرَةِ أَوْ نَاشِئِ الْـ بَرْدِي تَحْتَ الْحَفَا الْمَغِيلِ

(1) السَّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 886 ، الحرب حشت : شبهها بالنار من حش النار أي أطعمها الحطب، الضرام اليابس من الحطب السريع الاشتعال ، ذعاف : السم ، البوارق : السيوف ، زواما : قاتل .

(2) عاطف محمد كنعان ، الصورة الفنية في شعر الهذليين ، ص 125 .

(3) أنور أبو سويلم ، المطر في الشعر الجاهلي، ص 47 .

(4) الهذليون ، الديوان ، 1 / 49 ؛ عراض الشام : نواحي الشام ، الأدم : الإبل بيضاء اللون ، يجيش رعداً : يستخرج رعداً، الضحضاح: الماء الرقيق (الإبل القليلة) ، صعر : يعني الإبل ، لم يحفز: لم تذهب غلمته ، فاعم : سيل ملأ كل شيء ، العصم : الوعل والظباء، وكل ما في ذراعيه بياض وسائره أسود أو أحمر .

(5) محمود صبري عبد الله، الحية في الشعر الجاهلي ، ص 176 .

(6) الهذليون ، م . م ، 2 / 4 - 5 ، الأيم الحية التي لها مثل الخوصتين في جنبها، ناشئ البردي: صغاره، الحفا: البردي الأخضر ما دام في منبته، الغيل : الماء الذي يجري بين ظهري الشجر.

فأمرأته كالحية أو صغارها المختبئة تحت ورق البردي الأخضر، الذي يغطي الماء الذي يجري بين الأشجار، فهي صورة تعكس انبعاث الحياة واستمرارها بوجود الماء والنبات الأخضر المتصل بالمرأة.

ولكنه ما حل بالهذلي من المصائب والنكبات التي توالى عليه وجد - مرة أخرى - رمزية في الإبل، فبحلول القحط والجذب كانت الإبل لا تجد ما تأكله، فهي ملقاة لا تتحرك لشدة هزالها، يقول أبو ذؤيب (1) :

ثُمَّ إِذَا الشَّوْلُ رَاحَتْ بِالْعَشِيِّ لَهَا خَلْفَ الْبُيُوتِ رَذِيَّاتٌ مَطَالِيحُ
وَاعْصُوصَتْ بَكَرًا مِنْ حَرْجَفٍ وَلَهَا وَسَطَ الدِّيَارِ رَذِيَّاتٌ مَرَازِيحُ

فإذا حل القحط لم يجد الرعي، وكانت الإبل نائمة وقد بدا عليها الهزال والضعف، وباتت متروكة لا تستطيع الحركة، فما أمسى عليه من الجوع أصبحت عليه، فاجتمعت حول بعضها لتحتمي من الرياح الشديدة وقت الإبطار، فجاءت صورة الإبل الهزيلة المستلقية المتجمعة حول بعضها رامزة إلى حالة الجذب التي حلت بالقبيلة.

وعندما أراد الهذليون أن يرمزوا إلى شجاعة ممدوحهم أو أنفسهم لم يذكروا ذلك صراحة، بل أطلقوا إشارات تحمل في طياتها رموزاً دالة على ما امتلكوه من شجاعة وإقدام وقدرة على التحدي ومواجهة المخاطر، يقول أبو كبير (2) :

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفَجَاجَ رَأَيْتَهُ يَنْضُو مَخَارِمَهَا هَوًى الْأَجْدَلِ

ففي معرض التباهي يستعرض أبو كبير قدرة الهذليين على تجاوز الأماكن المخيفة والفجاج الصعبة، والوصول إلى أماكن يعجز غيرهم عن الوصول إليها؛ كما الصقر الذي يسكن الجبال العالية، ولا يخاف سلوك الدروب المخيفة التي لا يسلكها الناس.

أما المنتحل فيرد ماء لا ترده إلا السباع العطشى، بل إنه يزجر الذئب عن الماء حتى يصدر عنه، وفي ذلك رمزية واضحة على إقدامه في ورود هذا المورد، ووصوله إليه في وقت يعجز غيره عن ذلك، وشجاعته وهو يمنع الذئب من ورود الماء، حتى يشرب ويرتوي، فيقول المنتحل (3) :

قَلِيلٌ وَرْدُهُ إِلَّا سِبَاعًا يَخِطُنَ الْمَشْيَ كَالنَّبْلِ الْمِرَاطِ
قَبْتُ أَنَّهُ السَّرْحَانُ عَنِّي كَلَانَا وَإِدِّ حَرَّانَ سَاطِي

(1) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 122 - 123 ؛ الشول : الناقة الحامل التي لم تنتج ، راحت : سكنت واستراحت ، رذيات : إبل ملقاة ، مطاليح : لا تستطيع أن تتحرك ، أعصوصت : اجتمعت ، بكرًا : باكراً حين الغدوة ، من حرجف : من الرياح الشديدة ، رذيات : استلقيت أو أرديت من الهزال ، مرازيح : إبل لا تستطيع الحراك .

(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 229 ، الفجاج : الطرق ، والواحد فج ، ينضو : يقطع ويحوز ، المخارم : أنوف الجبال ، الأجدل : الصقر .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 25 - 26 ؛ الوخط : ضرب من المشي ، المراط : التي تمرط ريشها ، يقول كأنهن ينظرن بأيديهن إذا مشين كما يمد الخياط بإبرته إذا خاط؛ أنهنه: أزجر ، السرحان : الذئب ، ساطي : ذو سطوة إذا حمل على الآخر ؛ جمه : ما اجتمع في المورد من ماء ، والجمة : معظم الماء ، أباطي : متأبط سيفاً ..

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَّاتِ فِيهِ قَبِيلَ الصُّبْحِ آثَارُ السَّيَاطِ
شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وَصَدْرْتُ عَنْهُ وَأَبْيَضَ صَارِمٍ ذَكَرٍ إِبَاطِي

فشرب الشاعر من المورد الذي لا تشرب منه إلا السباع فيه دلالة رمزية على بعد المورد عن تجمع الناس، والمخاطرة في الوصول إليه والشرب منه، فكيف لو كان الذئب - على افتراسه - يشارك الشاعر زمن الشرب؟، بل يقوم الشاعر المقدام بزجر الذئب ويمنعه من الشرب وهو المتحفز لافتراسه، فيشرب أغلب الماء في المورد ولا يبقى له من الماء شيئاً. وقد أشاد الأصمعي بقصيدة المتخل - الطائية - فقال: " ولم تقل كلمة على الطاء أجود من قصيدته ... " (1)، وقيل عن البيت الثالث " هذا بيت القصيدة، ما أحسن ما وصف " (2)، إذ استهل الشاعر البيت بأداة تشبيه حرصاً منه على بيان ما تتركه الحيات من قلق وريبة، وما تنيره من انفعال وقلق لدى المشاهد، في وقت يكون الزمن ما بين الليل والنهار فتتشابه الآثار النفسية التي تتركها بآثار الحيات على الرمال (3).

وعندما تناول مليح بن الحكم حرَّ الصَّحراء وشدها، جعل المها والنعام تلجأ إلى الاحتماء بظل الشجر لشدة الحرِّ والقيظ، وزاد على ذلك عندما عرض صورة الجنادب التي تشوى وتتضج لشدة الحر، فيقول (4):

إِذَا أَوْقَدْتَ نِيرَانَهَا الْبِيدُ وَاشْتَوَى جَنَادِبَهُ يَوْمٌ مِنَ الصَّيْفِ مُنْضِجٌ

فرمز إلى شدة قيظ الصَّحراء وريحها اللَّافحة بشوي الجنادب ونضوجها في أيام الصيف، وفي ذلك صورة واضحة لشدة ارتفاع درجة الحرارة في صحراء الجزيرة العربية.

وبالحديث عن رمزية اللون في الحيوانات، كانت الألوان تحمل في طياتها دلالات رمزية واضحة، فدلَّ لون الإبل الأسود على قوتها وهي التي تجتاز المسافات لا تبالي بالأهوال، بل أضفت على الشاعر الأمن والطمأنينة وبددت خوفه وفزعته، يقول أمية بن أبي عائذ (5): [المتقارب]

وَلَيْلٍ كَأَنَّ أَفَانِيْنَهُ صَرَاصِرُ جُلَّانٍ دُهُمَ الْمَظَالِي

فالإبل السوداء قليلة في الجزيرة العربية، وتلقى من الهذليين اهتماماً وعناية يجعلها تتال رمزية خاصة. وفي صورة أخرى للإبل، عندما لاقى الشاعر من ناقته البيضاء الصدود جاء اللون دالاً على الانحراف عن المسار عندما عرضها بيضاء في ليل مظلم، فدلت على تغير الحال وتقلب الزمان، فيقول صخر الغي (6):

صُدُودُ الْقِلَاصِ الْأُدَمِ فِي لَيْلَةٍ الدُّجَى عَنْ الْخُطِّ لَمْ يَسْرُبْ لَكَ الْخُطَّ سَارِبُ

(1) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 438.

(2) الهذليون، الديوان، 25 / 2.

(3) محمود صبري عبد الله، الحية في الشعر الجاهلي، ص 131.

(4) السكري، شرح أشعار الهذليين، 3 / 1036، البید: الفلوات، منضج: يطبخ وينضج في اليوم الصيفي.

(5) الهذليون، م. س، 2 / 188؛ أفانيه: نواحيه، صراصر: المولدات النبطيات وهن إبل من الشام، دهم: أي فوقهن أخبية سوداء.

(6) السكري، شرح أشعار الهذليين، 2 / 946؛ الأدم: البيضاء، يسرب: يرعى، الخط: الدرب والطريق.

وعندما يرسم الشاعر صورة تحول القلاص البيضاء عن مرعاها في ليلة الدُّجى، إنّما يرمز إلى انحرافها عن الطريق الصّحيح الموصول إلى الهدف، إنّما يعني فقدان صاحبها وتحوله إلى متاهة ضياع بقية الإبل ما دامت تتبعها، خاصة وأنّ لونها الأبيض يدل عليها في ليلة الدُّجى.

ودلّ اللون الأبيض على الشرف والأبهة عندما لم يرض أمية بن أبي عائذ لأم نافع إلا أن تمتطي الفحل الأبيض لجدارتها به، ولأنّه يدل على العز والسُّودد، فيقول⁽¹⁾ : [الطويل]

وَلَكِنْ عَلَى قَرَمٍ هِجَانٍ مُشَرَّفٍ بِلُؤْمَتِهِ أَوْ ذَاتِ نِيرِينَ عَيْطِلٍ

فارتضى أمية لأم نافع أن تمتطي الفحل الأبيض الذي ترك عن الركوب وخصص للفحولة، زيادة في شرفها وإكرامها، وبياناً لمنزلتها لديه وهي المحبوبة والمقربة.

كما رمز الهذليون إلى القيم والمعايير البشرية عبر توظيف عضو من أعضاء جسم الحيوان، فكان الرّمز يحمل في طياته دقة الدلالة وقوة المعنى، فاستخدم الهذليون قرن الثور الوحشي أو التيس كأداة قوة يدفع بها أعداءه وينتصر لنفسه إذا ما لحقه ضيم أو عدوان، يقول صخر الغي⁽²⁾:

[المنسرح]

تَيْسٌ تَيْسٌ إِذَا يُنَاطِحُهَا يَأْلَمُ قَرْنًا أَرُومُهُ نَقْدُ

فرمز الشاعر بقرن التيس المتآكل المليء بالثقوب إلى ضعف المهجو وهزاله فلا يستطيع الدفاع عن نفسه في إحقاق الحقوق، وإرجاع ما سلب من إبل الرّجل المستجير به. فكما جاء القرن دالاً على القوة المعنوية في قوة المنطق والحق والدفاع عن حقوق المستضعفين، فاتخذ الهذليون رمزاً دالاً على القوة المادية، يقول أبو كبير⁽³⁾ :

[الكامل]

وَمَعِيَ لَبُوسٌ لِلْبَيْسِ كَأَنَّهُ رَوْقٌ بِجَبْهَةٍ ذِي نِعَاجٍ مُّجْفِلٍ

فالقرن (الروق) أداة قتالية تزيد الثور الوحشي قوة، فالشجاعة وحدها لا تكفي لتحقيق النصر إذا لم تقترن بأداة قتالية قوية يركن إليها المقاتل وقت الشدة، فرمز الشاعر إلى القوة المادية بقرن الثور.

وعندما أراد الشاعر الهذلي أن يصف من يحيد عن الصواب، ويبتعد عن الحق الظاهر رغم الحقائق الدامغة، رمز إليه بالشاة الجهراء التي لا تحسن الرؤية رغم شعاع الشمس الساطع، يقول أبو العيال الهذلي⁽⁴⁾ :

[الكامل]

جَهْرَاءَ لَا تَأَلَوُ إِذَا هِيَ أَظْهَرَتْ بَصَرًا وَمَا مِنْ عَيْلَةٍ تُغْنِينِي

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 193 - 194 ؛ القرم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويُدَّع للفحولة ، هجان : أبيض قد قارف الكرم مشرف : مهياً ، اللؤمة : الجهاز والأغطية على ظهر الدابة ، ذات نيرين : كثيفة الشعر على العنق، عيطل : طويلة العنق.

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 61 - 62 ؛ الأروم : أصل القرن في الرأس، نقد : متآكل وضعيف، إن أمتسكه: إن أسرته، فيالفداء: فسأخذ الفداء، قود : دية وإن يقتل فالإبل التي سلبها دية له على ما فعل .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 98 ، اللبوس : الرمح ، البئيس : الشجاع ، روق : قرن ، ذي نعاج : يعني ثوراً وحشياً .

(4) الهذليون ، م . ن ، 2 / 263 ؛ الجهراء : لا تبصر في الهاجرة ، لا تألو : لا تقدر ، العيلة : الفقر والحاجة ، تغنيني : تعينني.

فلا خير في الشاة لأنها جهراء تحيد عن مبدأ الصواب، ولا تحسن الرؤيا لشدة أشعة الشمس في وسط النهار، فكأنها ترى الحقيقة عياناً ثم تحيد عنها، وهذا مما يعاب على الإنسان الذي يرى الصواب ثم تراه يخالفه ويسير خلافه.

وختاماً، فإن الجمع بين البعد الرمزي الهادف إلى استجلاء نفس المبدع ورؤيته إلى الكون والوجود، وبين البعد الواقعي في صورة الحيوان الذي يؤمن بصدق الصورة وصدورها عن الواقع؛ هو خير نهج يسلكه الشاعر في إثراء النصوص وبيان عمقها، ويتيح للقارئ آفاقاً رحبة للتخليق في أجواء النصوص الشعرية، وصور الحيوان لاصطياد رموزها وإشاراتها، فالبعد الرمزي يثير الدفائن في صورة الحيوان، ثم يضعها في سياق واضح يبرز التحام موضوعات القصيدة، وانسجامها مع نفس الشاعر ومشاغله الرئيسية ودوافعه الحقيقية.

ت. البعد النفسي :

تبرز قيمة الشعر في قدرته على التعبير عن حالة الشاعر الوجدانية والنفسية، بما تحمله من تناقضات دالة على التفاؤل والتشاؤم، والخير والشر، والفرح والحزن، والأمل والألم، إلى غير ذلك من المشاعر والعواطف، وأدت الحيوانات دوراً مهماً في عرض هواجس الشعراء، وإبراز وجدانياتهم، والتعبير عن مشاعرهم، والتخفيف من آلامهم.

إن مشاعر الحزن والألم التي اكتنفت جنوب الهذلية وهي ترثي أخاها، وتعدد مناقبه لم تجد أفضل من التعبير عنها بالصورة التي رسمتها رائية له، فوصفته بالرجولة والشجاعة والإقدام، فها هي النسر تسير إليه آمنة مطمئنة، فتقول رائية أخاها⁽¹⁾:

[البسيط]

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشْيِي الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ

فجاءت الصورة معبرة عن حالة الحزن والأسى الممزوجة بالاعتداد بالمرثي وصفاته من جهة، وحالة النسر التي شعرت بالراحة والسكينة بعد أن وفر لها المرثي طعامها المتمثل في جثث قتلاه، فانعكس ذلك على سلوكها وبرز في مشيتها، كما بينت الصورة على بساطتها مشاعر الحب والوفاء التي تكنها الأخت لأخيها المغدور.

في حين وجد بعض الشعراء في صورة الحمام الذي يبكي فرخه، الصورة المناسبة ليعبروا من خلالها عن فقدهم لأحبائهم وأبنائهم، فيجدون في قصتها ما يسري عنهم، ويخفف من مصابهم، فالكل مبيت، ومن يموت لا يعود، يقول صخر الغي⁽²⁾:

[الوافر]

وَمَا إِنَّ صَوْتَ نَائِحَةٍ بَلِيلٍ بِسَبَلٍ لَا تَنَامُ مَعَ الْهَجُودِ

(1) الهذليون ، الديوان ، 125 / 3 .

(2) الهذليون ، م . ن ، 67 / 2 ؛ سبلل : اسم موضع ، تجهنا : تواجها ، بواحدها : فرخها .

تَجْهِنَا غَادِيَيْنِ فَسَاءِلْتَنِي بِوَاحِدِهَا وَأَسْأَلُ عَنْ تَلِيدِي

فالحالة الشعورية التي اكتنفت صخر الغي، وهو يستذكر اللحظات الجميلة التي قضاها مع ابنه " تليد "؛ دفعته إلى الاستئناس بحالة الحمامة التي تمضي الليل نائحة تبكي صغيرها "ساق حر"، فكلاهما يعيش لحظات فقد الأبناء الصعبة، والحزن الذي هيمن عليهما، فتراهما يسريان عن نفسيهما بالتأسي بحالة كل منهما الشعورية.

وانعكاساً لحالة الشاعر النفسية عبر أبو خراش عن تشاؤمه في علاقته بزوجته التي لا تكف عن لومه، وتحته على تغيير طبيعة حياتها، فتتكر حالها - رغم رغد العيش - وتطلب حالاً أفضل؛ فهي في سبيل ذلك أشبه بخاصي العير الذي لا يتورع عن الإتيان بأي فعل بذيء، فيجد الشاعر في نفسه الرضا والشفاء وهو يشبهها بهذا الوصف المقذع، مما يعكس حالته النفسية وما حل به من ضيق وشؤم تجاه استمرار علاقتهما الزوجية، فيقول (1) :

لَعَمْرِي لَقَدْ مُلِكْتُ أَمْرَكَ حِقْبَةً زَمَانًا فَهَلَّا مِسَتْ فِي الْعَقْمِ وَالرَّقْمِ
فَجَاءَتْ كَخَاصِي الْعَيْرِ لَمْ تَحِلْ جَاغَةً وَلَا عَاجَةً مِنْهَا تَلْوُحٌ عَلَى وَشْمٍ

وتعددت ظروف الحياة ما بين سهلة وقاسية؛ فعرضها الهذليون في صورة شؤم، وفي صورة تفاؤل، حتى رأى أبو خراش القبر بعيداً، فقال (2) :

لَعَلَّكَ نَافِعِي يَا عُرْوَ يَوْمًا إِذَا جَاوَرْتُ مِنْ تَحْتِ الْقُبُورِ
إِذَا رَاحُوا سِوَايَ وَأَسْلَمُونِي لَخَشْنَاءِ الْحَجَارَةِ كَالْبَعِيرِ
أَخَذْتُ خُفَارَتِي وَضَرَبْتُ وَجْهِي فَكَيْفَ تُثِيبُ بِالْمَنِّ الْكَثِيرِ

إنَّ أبا خراش وهو يبث عتبه الممزوج بالأسى على فعل أخيه عروة به - عندما لطم وجهه أمام قومه - وأخذ ناقته، يؤكد أنَّ أخاه لن ينفعه عند موته، وتركه وحيداً بعدما يسلمه قومه، ويتركونه وحيداً في القبر. فالموت نهاية حتمية لكل البشر، وهي عقيدة لا كفران بها، يقول عبد الله بن أبي ثعلب الهذلي (3) :

فَذَلِكَ خُطٌّ لَنَّا فِي الْكِتَا بَ مَا كَانَ طَوْقٌ يَزِينُ الْحَمَامَا

إنَّ مجرد ذكر الموت يحرك في نفس الإنسان المشاعر والهواجس المخيفة، فكيف لو كانت المصيبة أكبر من مجرد الذكر، وتمثلت في فقد الأحبة والأهل والأصدقاء. وحلَّ الموت بالبشر دون أن يفرق بين غني أو فقير، وكبير أو صغير، فكان حتمياً لا يمكن دفعه أو تأجيله، في وقت يعدُّ الموت جزءاً من عقيدة يؤمن بها الشاعر إيمانه بالقرآن الكريم، وبتزيين الطوق الملازم لصدر الحمامة.

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 129 ؛ الحقبة : المدة من الزمن ، مست : تتعمت وليست ، العقم والرقم : ضربان من الوشم الذي يزين الكساء، العاجة: الخرز الرديء، العاجة : الذبلة ، تلوح على الوشم : تظهر على وشم فهي غير موشومة.

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 136 - 137 ؛ خشناء الحجارة: أي الحفرة ، كالبعير: يعني إمساك الفم عن الطعام ، يعني ظهر القبر كأنه بعير بارك ، الخفارة : الأمان والذمة .

(3) السُّكْرِي ، شرح اشعار الهذليين ، 2 / 90 .

فالاعتقاد الديني بالموت ونهاية الأجل لكل البشر؛ يخفف من الأحزان، ويواسي الفقيد بما فقد ويخفف عنه ويعزيه.

أما حالة الخوف من الموت، والمصير المجهول فهي أكثر ما كان يربع الهذليين، وقد أكثروا من الغارات والغزوات، وزاد الطينة بلة، خوفهم الشديد من الضباع أن تتوش جيفهم بعد موتهم ودفنهم في الصحراء، يقول حبيب الأعلم⁽¹⁾ :

فَأَكُونُ صَيْدَهُمْ بِهَا وَأَصِيرُ لِلضَّبْعِ السَّوَاغِبِ
جَزْراً وَلِلطَّيْرِ الْمُرْبِ —————
ةِ وَالذَّنَابِ وَاللَّثَعَالِبِ

إن حالة الخوف والقلق والرغبة من الرحلة إلى المجهول التي تبدأ بالقبر، ما انفكت تؤرق الشعراء، وتزيد حالتهم الشعورية انحداراً وانتكاساً، وهم يشاهدون عياناً جنث الموتى والقتلى الملقاة على أرض صحراء الجزيرة العربية بعدما نبشتها الضباع، وأخذت تتوشها الطيور الضارية والثعالب، فكان المشهد مؤثراً حتى أصابهم الذعر، فعبروا عن مشاعرهم وهواجسهم من الموت بصورة بشعة تثير في النفس الاشمئزاز والضييق.

وكشف صخر الغي عبر صورة الحمار الوحشي ما يكتنف نفس الإنسان من هواجس ومخاوف وهو يترقب الموت الذي قد يأتيه في أي لحظة، فهو في مشقة دائمة وتعب مستمر من جهة وهو يصارع لأجل بقاءه، في ترقب وحذر شديدين ليجنب نفسه الأذى ومخاطر الموت، يقول أبو ذؤيب⁽²⁾ :

مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ تَجْرِي فَوْقَ مَنْسَجِهِ إِذَا يُرَاحُ اقْشَعَرَ الْكَشْحُ وَالْعُضْدُ
يَرْمِي الْغُيُوبَ بَعَيْنَيْهِ وَمَطْرِفُهُ مُغْضٍ كَمَا كَسَفَ الْمُسْتَأْخِذُ الرَّمْدُ

فالريح تمر من بين يديه ومن فوقه وأسفل منه، واقشعرار وبره وتقلب لونه يدل على ما يكتنفه من مخاوف، كما أنه يرمي الغيب بطرفه حذراً وحرصاً، وفيه شيء من الاستسلام والإذعان للموت، فتعزز هذه الصورة إيمان الشعراء الثابت بأن الموت نهاية الخلاق كافة، الإنسان منها والحيوان⁽³⁾.

كما عبرت صورة النعامة، أو الظليم عن حالة نفسية ألمت بالشاعر كلما ابتعد به المكان عن أهله وقبيلته، فدفعه الشوق لهم كي يعود بعد طول غياب على ناقة تشبه الظليم في سرعتها، فيقول أمية بن أبي عائد⁽⁴⁾ :

نُمُولُ تَزِفُ زَفِيفَ الظَّلَامِ —————
مِ شَمَرٍ بِالنَّعْفِ وَسَطِ الرِّئَالِ

(1) الهذليون ، الديوان ، 2 / 79 ؛ الضبع : جمع ضباع ، السواغب: الجياح ؛ جزراً : قطعاً ، الطير المربة : الطيور المجتمعة الثابتة.

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 124 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 84 ؛ المنسج : أسفل من حارك الدابة ، يراح : تصبیه ریح ، الكشح: الخصر ، يرمي الغيوب بعينه : يرمي ما غاب عنه بطرفه حذاراً، مطرفه : طرف عينه ، المستأخذ : الشديد الرمد.

(3) ينظر : الهذليون ، م . س ، 2 / 63 - 64 .

(4) الهذليون ، م . س ، 2 / 174 ؛ ذمول : ناقة لينة السير ، تزف : ضرب من السير فيه مداركة في المشي، شمر: مر جاداً، النعف: المكان المرتفع في الأرض وكان فيه صعود وهبوط ، وسط الرئال : بين فراخها .

إنّ مشاعر الأبوة التي تكتنف الشعراء، والشوق للأبناء والأهل والانتماء للوطن، لا تجد أفضل من مشاعر الظليم تجاه رئاله، أو النعامة تجاه بيضها وصغارها عند رجوعها لأفحصها، مسرعة تسابق الريح قبل حلول الظلام أو هطول المطر على بيضها فيفسده. من هنا عمد أمية الهذلي إلى تشبيه سرعة ناقلته في طريق عودتها إلى أهله وقبيلته، بسرعة الظليم عائداً إلى رئاله وبيته؛ ليعبر بصدق عن مشاعره وعواطفه، فانعكس ذلك عبر صورة الظليم التي رسمها.

وعندما عير مالك بن خالد " طفيل بن مالك " هاجياً فراره من المواجهة بعد أن أحاطت به المخاوف من كل جانب، وسيطرت عليه هواجس الرعب، ولاذ بالفرار لم يجد أفضل من النعامة كي يشبهه بها، وهو يطلق العنان لساقبه هرباً من الموت، فقال (1):

فَهِيَ شَنُونٌ قَدْ ابْتَلَتْ مَسَارِبَهَا غَيْرُ السَّخُوفِ وَلَكِنْ عَظُمَ زَهْمُ
بِأَسْرَعِ الشَّدِّ مِنْ يَوْمٍ لَا نِيَّةٍ لَمَّا عَرَفْتُهُمْ وَاهْتَزَّتِ اللَّمَمُ

فأظهر الشاعر عبر صورة النعامة ما أصاب المهجو من الخوف والرعب حتى بات يسبق النعامة هرباً وعدواً وفراراً من أعدائه، فحالة المهجو أشبه بالنعامة الخفيفة الهاربة، تعبر عن حالة نفسية ألمت به دفعته إلى إطلاق العنان لساقبه يسابق الريح.

في حين وجد بعض الشعراء في صورة مشية الأسد، وهو يسير واثقاً، تعبيراً حياً عن حالتهم، أو حالة من يمدحونه، وقد أحاطت به حالة من الإرادة والثقة بالنفس والقوة، وهو ينطلق جريء الصدر يمشي الهوينى لا يسرع المشي، يقول أبو المثلث (2):

يَا صَخْرُ ثُمَّ اسْتَقِيَ ثُمَّ اسْتَمَرَ كَمَا يَمْشِي السَّبْنَتِي سَرُوبٌ ظَهَرَهُ خَضِلُ

فالممدوح واثق من نفسه، ومن خطوه، يعلم ما يحيط به وما يُعده أعداؤه له، فهو كالملك الذي يسير واثق الخطى، لا يبالي بالآخرين ولا يهتم لهم، ولا يخافهم، ولا يقيم لهم حساباً أو وزناً.

أما حالة الدّعر والتّوجس التي تحل بالهذلي، وقد امتلأت حياته بالمفاجآت، فقدّم الهذليون الوعل متوجساً قلقاً نافريناً من كل الحيوانات حتى بات يظن شجر الصّوم - الذي يشبه الإنسان - إنساناً يريد الإيقاع به، فالتجأ إلى أجمة يرقبها خشية منها على نفسه، يقول ساعدة بن جؤية (3):

[الكامل]

مَوْكَلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَنْظُرُهَا مِنْ الْمَغَارِبِ مَخْطُوفُ الْحَشَا زَرْمُ

(1) الهذليون ، الديوان ، 3 / 14 ؛ شنون : متوسطة بين الهزال والسمنة، ابتلت مساربها : سرى الشحم في جوانب بطنها ، غير السخوف: لا يقشر عن متنها الشحم، يقول : ابتداء فيها السمن وليست بالسخوف ، عظمها زهم : سمين فيه مخ ؛ يوم لا نية: يوم ليس فيه فتور، فهجاهم وعيرهم بفرارهم ، فيقول : إنهم عدوا فتحرّكت لمهمهم وهم يعدون .

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 234 ؛ سرُوب : ظاهر ، الخضل : الندى (ابتل ظهره بالماء) .

(3) الهذليون ، م . ن ، 1 / 194 ؛ شدوف الصوم : شخوص شجر يشبه الناس ، فالوعل يرقبه خشية أن يكون أناساً ، المغارب: أماكن يتوارى فيها الوعل، فالوعل مخطوف الحشا : مفزوع خائف، زرم : ينقطع بوله قبل تمامه خوفاً .

فحالة التّوجّس والتّرقّب التي حلّت بالوعل، جعلته لا يستطيع التّمييز بين الشّجر والصّائد، فتراه ينفرد عن قطيعه حذراً وترقباً.

فالحَيوان تكتنفه حالة نفسية عندما يشعر بحركة الصّائد، فتري الحمار الوحشي فرعاً " يرمي الغيوب بعينه " و " كما كسف المستأخذ الرّمد " عند أبي ذؤيب (1) ، و " اهتجن من فزع " عند أبي كبير (2) . بينما نجد الثّور الوحشي مروعاً عند أبي ذؤيب عندما " شعف الكلاب الصّاريات فؤاده " (3) ، وكان الوعل " مخطوف الحشا زرم " عند ساعدة (4) .

وفي الجانب المقابل، عكست صور بعض الحيوانات الجانب النفسي الإيجابي للشّاعر الهذلي، فتناول الشّعراء صورة الطّبي، وهي تعنتي بصغيرها، وترقبه وتسهل عليه تناول طعامه، في معرض تعبير الشّاعر عن مشاعره تجاه محبوبته، يقول أبو ذؤيب (5):

فَمَا أُمُّ خَشْفٍ بِالْعَلَايَةِ شَادِنٍ تَنُوشُ الْبَرِيرَ حَيْثُ نَالَ اهْتِصَارُهَا
مَوْلَعَةً بِالطَّرَّتَيْنِ دَنَا لَهَا جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا

فلم يجد الشّاعر أروع من تشبيه محبوبته بطيبة ذات خشف لشدة اهتمامها بصغيرها، فأكثر التّلفت إليه حذراً عليه، وجعلها منفردة عن قطيعها تمييزاً، لأنّها تنفرد في جمالها وروعها، فكانت تعبيراً صادقاً لمشاعره التي يكنها لمحبوبته المميزة في جمالها وسلوكها.

فكانت صورة الطّبية تعبيراً حقيقياً لمشاعر محبوبه الشّاعر التي ظهرت تتباهى بجمالها الرّائع، وتميزها عن باقي النّسوة، وتلفتها المستمر بهدف الإثارة، ولفت الانتباه إليها، أو معرفة ما يحيطها وما يراد لها، وهما خُلتان تتصف بهما طيبة أبي ذؤيب عندما انفردت عن قطيعها؛ فتميزت عنه، والتفاتا الدائم يمنة ويسرة ترقب صغيرها، وتتنظر خطراً قد يحيق به، فتدروّه عنه.

ومزج الشّاعر الهذلي بين شعوره النفسي وبين الحيوان، من خلال اللون ودلالاته وتغيراته وتقلباته الدّالة على انقلاب الحال، واضطراب حالته النفسيّة، يقول أبو ذؤيب مشبهاً محبوبته بطيبة يتقلب ويرها (6):

إِذَا هِيَ قَامَتْ تَقْشَعِرُ شَوَاتِهَا وَيُشْرِقُ بَيْنَ اللَّيْلِ مِنْهَا إِلَى الصُّقْلِ

إنّ ورود اللون في الصّورة لا يأتي عفو الخاطر، فاللون ليس زخرفة ومنظراً، وإنّما هو في المقام الأوّل حامل دلالات يعيها المبدع ويعيشها المتلقي في آن واحد، وربما يستطيع المتلقي أن يقرأ دلالات

(1) ينظر: الهذليون، الديوان، 125 / 1 .

(2) ينظر: الهذليون، م. ن، 115 / 2 .

(3) ينظر: الهذليون، م. ن، 10 / 1 .

(4) ينظر: الهذليون، م. ن، 194 / 1 .

(5) الهذليون، م. ن، 22 / 1 - 24 ؛ الخشف: الطّبي أول مشيه، العلاية: اسم موضع، شادن: طيبة قوي لحمها منفردة عن القطيع، توش البرير: تتناول وتأكّل ثمر الأراك، نال اهتصارها: تجذبه؛ مولة: ملونة، الطرّتان: حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن، جنى أَيْكَةٍ: ما تجنيه، يضفو عليها قصارها: كل قصير من أغصان شجرة الأيك فهو سابع لها سهل تناولها له.

(6) الهذليون، م. ن، 35 / 1 ؛ الشّواة: جلد الرأس والمقصود يقشعر شعر الرأس، بشرق: يضيء، اللّيت: أسفل الأذن وهو صفحة العنق .

الألوان قراءة إيجابية تختلف عن مقصدية الشاعر" (1). وجاء الوعل جباناً خائفاً مرتعداً، عركته نوائب الدهر فبات خائفاً يتقلب لونه ويرتعد فزعاً، فيقول ساعدة (2): [الطويل]

أَرَى الدَّهْرَ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَبُودُ بِأَطْرَافِ الْمَنَاعَةِ جَلْعُدُ
تَحَوَّلَ لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ كَأَنَّهُ بِشَفَّانٍ رِيحٍ مُقْلِعِ الْوَيْلِ يَصْرُدُ
تَحَوَّلَ فَشْغَرِيرَاتُهُ دُونَ لَوْنِهِ فَرَائِصُهُ مِنْ خِيفَةِ الْمَوْتِ تُرْعَدُ

فنتقلب لون الوعل بين حالته النفسية المضطربة، وما حلَّ به من خوف ورعب، حين سماعه حركة الصائد الذي يترصده، وهو يعدُّ له سهامه، " ففي بعض الأحيان يكون اللون طارئاً ليعبر عن حالة شعورية ونفسية، لأنه يكون مرتبطاً بهواجس الذات الشاعرة ارتباطاً وجدانياً" (3).

ليس البشر هم من يمتلكون الشعور النفسي فقط، بل تمتلك الحيوانات تلك الحالة النفسية والشعورية، فنجد العديد من الشعراء الهذليين عندما صوّروا نفسية الحيوانات التي رسموا صورتها فالبقر الوحشي يقضي الليل متوجساً خائفاً، لتزول هذه الحالة بمجرد شروق شمس الإصباح، يقول ساعدة بن جؤية (4): [الكامل]

حَتَّى شَاهَا كَلِيلٌ مَوْهِنًا عَمَلٌ بَاتَتْ طَرَابًا وَيَاتُ اللَّيْلُ لَمْ يَنِمِ
كَأَنَّ مَا يَتَجَلَّى عَنْ غَوَارِبِهِ بَعْدَ الْهُدُوءِ تَمْشِي النَّارُ فِي الضَّرِمِ
حَيْرَانٌ يَرْكَبُ أَعْلَاهُ أَسَافِلُهُ يُخْفِي جَدِيدَ تُرَابِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ

كما أنَّ الخيل عكست بعداً نفسياً عندما عدّها الهذليون مصدر الخير والرزق لصاحبها، فيشبه ساعدة بن جؤية حركة السحاب بالخيول الرّمك في مشيتها البطيئة، ليظهر حالة الأرق التي سكنته، فيقول (5): [الطويل]

وَمِنْكَ هُدُوءُ اللَّيْلِ بَرَقَ فَهَاجَنِي يَصْدَعُ رُمُكًا مُسْتَطِيرًا عَقِيرُهَا
أَرِقْتُ لَهُ حَتَّى إِذَا مَا عُرُوضُهُ تَحَادَتْ وَهَاجَتْهَا بُرُوقٌ تُطِيرُهَا

فالخيل الرّمك في لونها جاءت دالة على السحاب العظيم المائل إلى السّواد؛ إشارة إلى ما تحمله من خير كثير، كما أنَّ تتابع السحب في السماء يشبه حركة الخيل البطيئة التي تدل على تتابع العطاء بلا انقطاع، فالشاعر يجمع في صورة واحدة بعض مظاهر الخير، فتتشكل في ذهنه ظواهر طبيعية مثل البرق والسحاب والمطر، وما ينتج عنها من آثار الخير على قبيلته.

(1) موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، ص 73.

(2) الهذليون، الديوان، 1 / 240 - 241؛ الأبود: الأبد وهو المتوحش يريد الوعل، المناعة: اسم جبل، الجلعدي: الغليظ؛ تحول لوناً: يقشع فيخرج باطن شعرته فيجيء لون غير لونه ثم يسكن فيعود لونه الأول، شفان ريح مقلع الويل: الريح الباردة، الصرد: أشد البرد؛ الفريضة: المضيفة التي تحت الكتف.

(3) موسى ربابعة، م. س، ص 73.

(4) الهذليون، م. س، 1 / 198؛ شأها: شاقها فاشتاقت، كليل: برق ضعيف، موهناً: بعد وهن، باتت طراباً: يعني البقر، غواربه: أعاليه، حيران: الغيم حيران لا يأخذ جهة واحدة، منهزم: متفجر بالماء.

(5) الهذليون، م. س، 2 / 212، هود الليل: بعد ساعة من الليل، يصدع رُمكاً: تفرق عن برق، أي أن هذا البرق تفرق عن سحاب رُمك، العقير: الذي عقر من الخيل فهو يتحامل مرة ويرتفع ويسقط مرة، عروضه: سحابه، تحادت يريد حدا بعضها بعضاً أي تلا.

فحديث المحبوبة أشبه بالبرق في هدوء الليل، الذي يبشر بسحب ثقيلة بطيئة في حركتها تشبه حركة الخيل، مما أرق الشاعر بداية، لكن مشاعر الأرق تبددت فيما بعد، إذ حمل السحاب المتتابع الخير العميم للناس، وسقيت أودية الغيث بعد انتظار.

وعندما يبتعد الإنسان عن أهله وأحبائه، يستشعر المأزق الذي وقع فيه وبخاصة إذا كان طاعناً في السن، فهو أشبه بتيس اليعر الذي ربط بالقرب من الذئب أو الأسد، فاستطاع الشاعر أن يعكس حالته النفسية المضطربة، وهو الشيخ الطاعن في السن الذي ترك مع عدد من الصبية، يقول البريق الهذلي (1) :

فَإِنْ أُمِسَ شَيْخًا بِالرَّجِيعِ وَوَلَدَةً وَتَصْبِحُ قَوْمِي دُونَ دَارِهِمْ مَصْرُ
أَسْأَلُ عَنْهُمْ كُلَّمَا جَاءَ رَاكِبٌ مُقِيمًا بِأَمْلَاحٍ كَمَا رُبِطَ الْيَعْرُ

إن وقوف الجدي مربوطاً - ينتظر حقه - أمام الحيوان الضاري، تمثل حالة الشاعر في قلة الحيلة والعجز، فلا يستطيع اللحاق بهم والعودة إلى موطنه، ولا البقاء يتلوى شوقاً لهم وخوفاً عليهم. وعندما يودع الشاعر أحبائه، تمتزج العواطف والمشاعر، وتختلط بالدموع، فتعبر عن موقف نفسي عصيب، وهو ينظر إلى الركب الذي يحملهم بعيداً عنه، فهو مشهد فيه حزن عميق يتجاوز ما أحاط الركب من الخارج، وما اشتمله الموقف من لحظات ومشاعر دافقة، بل يقتحم الهودج ليصل إلى المحبوبة وهي تتوارى عنه شيئاً فشيئاً، يقول مليح بن الحكم (2) :

كَأَنَّ مَا فَوْقَهَا مِمَّا عَلَيْنَ بِهِ دِمَاءُ أَجَوَافٍ بَدَنٍ لَوْنُهَا جَسَدُ
فَالْعَيْرُ تَحْمِلُ أَشْوَاقًا مُضَعَّفَةً وَالْعَيْنُ يَكْحَلُ فِيهَا الصَّابُ وَالرَّمْدُ

فالشاعر يعرض مشاعره وألمه في هذا المنظر الحزين الذي يجمع بين مشهدين محزنين، فمشهد " العير تحمل أشواقاً مضعفة"، ومشهد " العين يكحل فيها الصاب والرمد"، فهذا منظر عيني الشاعر وهو يتبع نظره وأشواقه لمنظر الركب وعيناه ممثلتين دمعاً وحرقة، والدمع هنا يسيل ما استمر الشاعر في تتبع الركب بنظراته (3) .

وعندما شبه أبو جندب خيله بالجراد الصيفي في سرعة انتشاره، وفي فعله وما يتركه من أثر واضح في الحقول والبساتين، كي يسلط الضوء على فعل من يغير من هذيل على القبائل الأخرى فيسلب منها الأغنام والإبل، فيقول (4) :

عَلَى حَنْقٍ صَبَّحَتْهُمْ بِمُغِيرَةٍ كَرَجَلِ الدَّبَى الصَّيْفِيِّ أَصْبَحَ سَائِمًا

(1) الهذليون، الديوان، 3 / 58 - 59؛ الرجيع: موضع، ولدة: الصبية، تصبح داري دون دارهم مصر: هاجروا إلى مصر، أملاح: اسم موضع، اليعر: الجدي الضخم.

(2) السكري، شرح أشعار الهذليين، 3 / 1013 - 1014.

(3) ينظر: محمد الحسن الأمين، الصورة البيانية في شعر الهذليين، ص 66.

(4) الهذليون، م. س، 3 / 89؛ الحنق: الغضب والكره، صبحتهم: أغرت عليهم صباحاً، المغيرة: الخيل المغيرة، رجل الدبي الصيفي: قطعة الجراد الصيفي في كثرتها، سام: انطلق وانتشر، ملح الفيفا وقفة عازب: مواضع، الجامل: الإبل، أغنام: جمع أغنام.

إلى مَلَحِ الْفَيْفَا فُقْنَةَ عَازِبٍ أَجْمَعُ مِنْهُمْ جَامِلًا وَأَغَانِمَا

إنّما يعكس الشّاعر طبيعة نفسه التي امتلأت بالغضب والحنق، وهو ينطلق بخيله مع قومه يغيرون صباحاً، فيفاجئون القبيلة الأخرى بخيل كأنّها جراد صيفي منتشر، لا يبقى ولا يذر، فالجراد أنشط ما يكون في فصل الصّيف، فهو يضيف إلى صورة الجراد وما يتركه من آثار تخريبية السّرعة في التنفيذ. إنّ إبراز صفة سرعة حركة الجراد في الصّيف بقدر ما تعدّ شاهداً على تتبع الهذليين لسلوك الحيوانات، وأنّ الهذلي لم يترك فرصة إلا ووصفها وذكر طبائعها وحركتها وسكونها، فإنّها تعبر عن مقدار الغضب والحنق الذي أضمره الشّاعر لأعدائه، وهو يمتطي صهوة خيله يريد التّكيل بهم، فعرض صورة الجراد الصّيفي السّريع الذي يريد تدمير الحقول والبساتين والمزروعات بهجومه الساخط. فاقتران الحالة النّفسية التي يمر بها الشّاعر الهذلي بصورة الحيوان، يجعل منها مرآة تعكس شعوره النّفسي وشعور غيره، فحملت الصّورة في طياتها العديد من الدلالات والأبعاد النّفسية المختلفة، والمتناقضة من فرح وحزن، وخوف وثقة، وتشاؤم وتفاؤل.

ث. البعد الاجتماعي :

تناول الشعراء الهذليون الحيوان في سياق حديثهم عن القيم الاجتماعية والصفات والشيم التي تحلّى بها أفراد المجتمع آنذاك، وتناولوا العديد من الجوانب الاجتماعية الفطرية والغريزية التي سادت داخل مجتمع الحيوان، وسعى الشعراء إلى إبرازها بما يتوافق مع سعة إطلاعهم ومعرفتهم الحثيثة بحياة الحيوان، وبكل دقائقها، فجاءت هذه الجوانب انعكاساً للطبيعة الجغرافية، ولطبيعة المعايير التي كانت تنظم نسيج العلاقات التي ربطت الحيوانات ببعضها، أو كل فصيل بمعزل عن غيره.

1. البعد الاجتماعي الإنساني :

أدى الحيوان في شعر الهذليين دوراً بارزاً في بيان المكانة الاجتماعية لمن حظي بمنزلة اجتماعية مهمة لديهم، فاستفاد الشّاعر الهذلي في تجسيد الصّورة سلباً أو إيجاباً لموصوفه أو مهجوه، وذلك عبر تشبيهه بحيوان حسبما تقتضيه الحالة الوصفية.

فاعتز الهذلي بممدوحه، فوجد في كرمه وإقرائه الضيف - وهو يذبح أعز الإبل عند العرب - شيمة تدل على علو مكانته، يقول أبو ذؤيب الهذلي (1) :

فَإِنَّكَ لَوْ سَاعَلْتَ عَنَّا فَتُخْبِرِي إِذَا الْبَزْلُ رَاحَتْ لَا تَدِرُ عَشَارَهَا
لَأُنْبِئْتُ أَنَا نَجْتَدِي الْفَضْلَ إِنَّمَا يَكْلُفُهُ مِنَ النَّفْسِ خِيَارَهَا

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 26 - 27 ؛ البزل : النوق في وقت الرضاعة، نجتدي: نطلب.

ووجد في فروسية أبناء قبيلته، وحسن إدارتهم للغارات والغزوات صفة تباهى بها واقتخر، إذ كانت صفحة مشرقة في تاريخ مفاخرهم، يقول أبو ضب⁽¹⁾:
[الكامل]

وَلَقَدْ أَقْوَدُ الْجَيْشَ أَحْمِلُ رَايَتِي لِلْجَيْشِ يَفْدُمُهُمْ كَمِيٍّ أَصِيدُ
لَيْثٌ يُغَامِرُ لِلطَّعَانِ كَأَنَّمَا يَقُمُ الرِّجَالُ بِهِ فَنِيْقُ مُلْبِدُ

فاستعراض الشاعر عبر رسم صورة الحصان الذي يتصدر المعركة، وهجومه خلالها كالليث الذي لا يأبه بالنتائج، كالفحل الملبد في نشاطه حين تشمر الحرب عن ساقها، إنما يؤكد علو مكانته بين قومه، وجدارته في قيادة قبيلته كما يقودها في غزواتها إلى الانتصار.

ومن الصفات التي تعزز المكانة الاجتماعية لدى الهذليين إغاثة الملهوف وإجارة المستجير، فترى الشاعر يرسم صورة اللبوءة التي تحمي الضعيف وتبعد عنه الشرور، فحاجة الهذلي لا تمنعه من حماية المضاف وإقراءه، يقول قيس بن عيزرة⁽²⁾:
[الكامل]

أَفْقَيْتَهُ يَحْمِي الْمُضَافَ كَأَنَّهُ صَبَحَاءُ تَحْمِي شِبْلَهَا وَتَحِيدُ

فالصورة تضيف على قوة الممدوح بعداً بطولياً، عندما ظهر فيها يحمي المستجير كما يحمي صغيره أو أحد أفراد أسرته، مما جعل مكانته محط أنظار الغرباء وتقديرهم، وكذلك أبناء السبيل.

وعندما يعدد أبو خراش صفات سلمى بن معقل، ومواقفه العظيمة، يشبه طالبي الحاجات، وهم يغشون بابه في كثرتهم وتتابعهم بالنحل الذي يتوجه إلى جبل أدمى بالطائف، فيقول⁽³⁾:

[الطويل]

تَرَى طَالِبِي الْحَاجَاتِ يَغْشَوْنَ بَابَهُ سِرَاعاً كَمَا تَهْوِي إِلَى أَدْمَى النَّحْلُ

فالمورد العذب كثير الزحام، وهذا حال الممدوح الذي حاز على ثقة الناس واحترامهم، فاصبح بيته مقصداً لكل خائف أو مستجير أو محتاج لعون، ولعل هذا ما جعل للممدوح مكانته الاجتماعية التي أهلته كي يكون حفيّاً بقيادة قومه من بني صاهلة وزعامتهم.

كما كانت سرعة العدو ميزة تباهى بها الهذليين، - ومعظمهم من الفقراء والصعاليك-، ونال من امتاز بها درجة من الإعجاب والثناء، فشبه الهذلي سرعتة في العدو بسرعة النعامة التي تعود إلى رثالها أو بيضها، فاتخذ ساعدة بن جؤية النعام مثلاً في العدو عندما شبه أخاه في عدوه وسرعتة في هربه ممن يطلبه للقتل، فيقول⁽⁴⁾:

فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا أَخُوهُمْ كَأَنَّهُ بِغَاذَةِ فَتَخَاءِ الْجَنَاحِ لَحُومُ

(1) السكري، شرح أشعار الهذليين ، 2 / 704 ، الكمي : الحصان الأصيل ، ليث : أسد ، يقم الرجال : يكسر الرجال، فنيق: فحل، ملبد: يضرب بذنبه بوله فيتلبد على وركيه، وإنما يفعل ذلك إذا هب .

(2) الهذليون، الديوان ، 3 / 73 - 74 ، الصباحاء : اللبوءة تضرب البياض والحمرة .

(3) الهذليون، م . ن ، 2 / 166 ؛ أدمى : جبل بالطائف .

(4) الهذليون، م . ن ، 1 / 235 ؛ غادة : اسم موضع ، فتخاء الجناح : لينة الجناح وهي صفة للعقاب ، لحوم : أكثر أكله اللحم، فهو يقول: فاجأهم أخوهم بسرعة عدوه وانقضاضه فكان كالعقاب ؛ يخفض : يتركهم ويخلفهم وراءه ، ريعان الساعة : أوائل الساعة ومتقدمي مشاة الأعداء ، انتحى للنجاء: توجه وانحرف للعدو والنجاة بالنفس ، فهو في سرعتة يخلف أعداءه خلفه ، فإذا ما أراد النجاة بنفسه كان كالظليم سرعة وعدواً .

يَخْفِضُ رِيْعَانَ السُّعَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا تَنَحَّى لِلنَّجَاءِ ظَلِيمٌ

وقد يكون هذا الوصف جماعياً، يشمل أغلب أفراد القبيلة، إذ أعطت هذه الصفة القبيلة قيمة ومنزلة بين القبائل وبعداً اجتماعياً مرموقاً، إذ جعل الهذليون قومهم يرتقون على غيرهم من القبائل بهذه المكانة، فجسدوا من خلال استعراضها رغبتهم الملحة في إبراز تميزهم وتفوقهم الذي لا يستطيع بشر الوصول إليه.

ولجأت جنوب الهذلية إلى استحضار صورة النُسر للدلالة على قيمة الميراث الاجتماعية ومنزلته بين قومه وعشيرته، لأنَّ النُسر تقبل إليه لاهية، فهو من يقدم إليها طعامها وغذائها دون كد أو عناء منها، فقالت (1) :

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَالِبُ

فالشاعرة في معرض رثائها لأخيها، وتعداد مناقبه، وحث عشيرته على الثأر من تأبط شراً، رسمت صورة النُسر التي كانت تسير آمنة مطمئنة إليه؛ لأنها ستأكل من قتلاه (2)، تمشي مشية العذاري وقد لبسن أجمل ثيابهن وتبرجن.

وتستمر جنوب في رسم حالة من الفزع والخوف في سياق صورة برز فيها صوت نباح الكلب المتقطع المتردد، وحركة الأفاعي التي تنقطع لشدة الحال التي وصلت إليها قبيلتها بعد الفراغ الاجتماعي الذي تركه أخوها عمرو بمقتله، فتقول (3) :

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرْثِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرِ الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ الْعِشَاءِ وَلَا تَسْرِي أَفَاعِيهَا

فنباح الكلب يصف شدة برد ليلة ينقطع فيها أهل الكرم والسَّخاء عن كرمهم وسخائهم، ولا ينقطع أخوها عمرو عما عرف به من الكرم والجود، فالليلة باردة، وصوت الرِّيح يقطع الأفئدة خوفاً ورهبة، فلا ينبح فيها الكلب، ولا تسري الأفاعي لشدة البرد.

فالشاعرة تحاول استحضار أثر أخيها في الليلة الباردة كي تثبت سيادته ومنزلته وشرفه بين قومه، رغم ما أحاط الصورة من الخارج من طبيعة قاسية، أريد لها أن تبرز الطبيعة الكامنة في شجاعة عمرو وشرفه وعزته عبر كرم أخلاقه ومآثره التي لا تنتهي، فأكسبت - بذلك - الميراث بعداً اجتماعياً فريداً ساهم في إبراز الحالة الشعرية التي عاشتها الشاعرة المغطاة بأستار حزنه.

(1) الهذليون ، الديوان ، 125 / 3 .

(2) إسماعيل الننتشة ، أشعار هذيل ، 134 / 2 .

(3) الهذليون ، م . م ، 126 / 3 ؛ بصطلي بالفرت : يدخل يديه ورجليه في الكرش لشدة البرد ، جازرها : ذابحها يختص بالنقري: يدعو رجلاً من هنا وآخر من هنا فهو يخص ولا يعم ، المثرين : الأغنياء وأهل الثروة والغنى ، فهو لشدة البرد يضم يديه ورجليه في الكرش ليكتسب الدفء ، ويوزع لحوم الذبيحة على من لا يحتاجها من الأغنياء فهو لا يفرق بين الناس ؛ لا ينبح الكلب غير مرة : فالكلب لا يستطيع أن ينبح لشدة البرد ، ولا تسري أفاعيها : لا تسير ولا تتحرك الأفاعي لذات السبب .

والدَّارس لشعر جنوب الهذليَّة ترثى أخاها، يجدها استخدمت أسلوباً خاصاً في إبراز مكانته الاجتماعية في قبيلته، ومنزلته بين أهله بعد مقتله، فهو مقاتل شجاع يوقع القتل في أعدائه، فالنَّسور تجد عزها وسؤدها عنده لكثرة ما يوفر لها من غذاء متمثل في جثث القتلى، كما أنَّه كريم منقطع النَّظير، ففي الوقت العصيب الذي يبطل الكرام عن استقبال ضيوفهم، كان أخوها يحسن ضيافة الجائع وإجارة الخائف.

والباحث في شعر النَّسيب، يجد أنَّ المرأة المشبهة بالطَّبي نالت قسطاً من اهتمام الشعراء، الذي دللوا على شرفها وأصلها الكريم، فهي إن كانت تحمل صفات جماليَّة خارجيَّة، فهي أيضاً كانت تحرص على مكانتها الاجتماعية، وتأبى أن تكون لقمة سائغة للظنون والشُّكوك، أو أن تتخرط بما تسلكه النساء عند اجتماعهن من أحاديث واهتمامات، فتراها تبتعد قليلاً عن قطيعها، وتتفرد بنفسها تمييزاً في كل شيء، يقول أبو ذؤيب⁽¹⁾:

[الطويل]

فَمَا أُمُّ خَشَفٍ " بِالْعَلَايَةِ " شَادِنِ تَنُوشُ الْبَرِيرَ حَيْثُ نَالَ اهْتِصَارَهَا
مَوْلَعَةً بِالطَّرَّتَيْنِ دَنَا لَهَا جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارَهَا

فلم يجد الشاعر أروع من تشبيه امرأته بطبيبة تكثر التلُّفت، وجعلها منفردة عن قطيعها تمييزاً، لأنَّها تتفرد في جمالها كما في علو شأنها وأصلها الكريم، فكانت تعبيراً صادقاً لمشاعره التي يكنها لمحبيبته المميزة في جمالها وسلوكها.

فارتباط محبوبة أبي ذؤيب بصورة الطَّبيَّة المنفردة عن قطيعها، يدلُّ على شرف منزلتها وطهاره جسدها ونقاء سريرتها. فالشاعر يبرز قيمتها الاجتماعية المتميزة، ومكانتها العالية بين النساء في جمالها وبهائها وشرف منزلتها.

وكان الغدر من العادات الاجتماعية التي ذمَّتها العرب، فلجأ الهذليون إلى استحضاره وهم يهجون الآخرين، لتعزيز هذه الصِّفة في المهجو فيحط من مكانته وقدره بين النَّاس. وإمعاناً من الهذليين في النَّيل من بني الدَّيل هجوا نساءهم ووصفوهنَّ بصفات تحط من مكانتهم بشكل عام، عندما شبهوا بعضهم بالذَّئب المتصوَّب، فيقول ساعدة بن جؤبة⁽²⁾:

[الطويل]

إِذَا جَلَسْتُ فِي الدَّارِ يَوْمًا تَأَبَّضْتُ تَأَبَّضَ ذَنْبُ التَّلْعَةِ الْمُتَصَوَّبِ

فالذَّئب يتصف بالغدر، الذي يشتد كلما تصوَّب جسمه، فلا يعرف سوى القتل والإيذاء، فجاءت صورة الذَّئب منسجمة مع المرأة المهجوة، التي كانت على درجة عالية من الغدر والخيانة، وسوء الخلق.

(1) الهذليون ، الديوان ، 1 / 22 - 24 ؛ الخشف : الطَّبي أول مشبه ، العلاية : اسم موضع ، شادن : طَبيبة قوي لحمها منفردة عن القطيع ، تنوش البرير : تتناول وتأكُل ثمر الأراك ، نال اهتصارها : تجذبه ؛ مولة : ملونة ، الطرطان : حيث يقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن ، جنى أَيْكة : ما تجنيه ، يصفو عليها قصارها : كل قصير من أغصان شجرة الأيك فهو سابغ لها سهل تناولها له .
(2) السُّكري ، شرح أشعار الهذليين ، 3 / 1150 .

فالقيمة الاجتماعية للفرد أو المجموع في القبيلة تظهر من خلال الصورة التي يقدمها الشاعر مشبهاً ممدوحه أو مهجوه بالحيوان، فراعي الغنم كسول وضيع المنزلة لدى أبي ذؤيب⁽¹⁾، والأعداء اتصفوا بالبلادة كأبقار بلهاء فاعرة أفواها لدى أبي بثنينة الصاهلي⁽²⁾، أو معاند للحق ومخالف للاجماع وغير راض بما قسمة الله كالنعامة التي ذهبت تبحث عن قرنين؛ كما عرضها أبو العيال الهذلي⁽³⁾.

فبرزت قيمة الإنسان المشبه بالحيوان الوارد في شعر الهذليين من خلال الصورة التي قدمها الشاعر مستفيداً من الحيوان ذاته، وموقعه في الإنسان العربي، ومن طبيعة الصورة وأبعادها الاجتماعية، ونظرة المجتمع العربي للصفة التي سعى الهذلي إلى تكريسها وتعزيزها في الممدوح أو المهجوع، وفي ذهن المستمع والمتلقي.

2. البعد الاجتماعي الحيواني :

يجد المتتبع للحيوان في شعر الهذليين أن فطرة الحيوانات وغريزتها الطبيعية تجعلها تعيش كما البشر مجتمعة، فقلما تعيش منعزلة بلا جماعة، بل تجتمع في ظل قيم ومعايير اجتماعية، وأسس تعد ملحاً للبقاء والعيش، وتختلف الحيوانات في تعدد تجمعاتها وطبيعتها، فبعضها يعيش في جماعات قليلة العدد كالحيوانات الضارية المعروفة بافتراسها، والتي تعتمد التردد والمباغلة والمفاجأة، وهذا لا يتأتى في ظل التجمعات الكبيرة. وهناك أنواع أخرى تعيش ضمن قطعان وأعداد أكبر كالبحر والظباء والحرر الوحشية، التي تكون في العادة هدفاً للحيوانات المفترسة وتعتمد في طعامها على النباتات. فتستعين على مخاوفها وهواجسها وما يهدد حياتها بتجمعاتها الكبيرة التي توفر لها قدراً كبيراً من الأمن المنبعث من كثرة العدد، بينما نجد أصنافاً أخرى تعيش منفردة بلا تجمع كالوعول التي تعيش في قُلل الجبال بعيداً عن غيرها من الحيوانات فتجد أمنها في بعدها عن غيرها من الحيوانات، وفي تحصنها في المرتفعات الجبلية وفي الأماكن الوعرة الصعبة، ومراقبتها لما يحيط بها من خلال المناطق المرتفعة المشرفة.

أما الطيور الأليفة والمتوحشة فتعيش في جماعات كبيرة كالحمام وصغار الطير والقطا، وتعيش الطيور الضارية منعزلة مترصدة مترقبة، فمتى سنحت لها الفرصة انقضت على فريستها واعتاشت عليها زمناً.

(1) ينظر : السكري ، شرح أشعار الهذليين ، 97 / 1 .

(2) ينظر : السكري ، م . ن ، 731 / 2 .

(3) ينظر : الهذليون ، الديوان ، 268 / 2 .

فالحوانات تتجذب إلى أجناسها المختلفة، وتقيم في مجتمعات تختلف حسب كثرتها أو قلتها، وتحرص على البقاء في سياق جماعي منسجم شكلاً ومضموناً، حاجات وإمكانات، فهي كالإنسان تجمعهم قواسم مشتركة، يقول تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ" (١).

فالقواسم المشتركة وعلى رأسها الحاجة إلى العيش في أمان وسلام وانسجام هو ما يدفع الحيوانات إلى العيش في تجمعات تحميها مما يهددها ويخفف عنها وطأة الخطر على حياتها خاصة قطعان الحيوانات التي تخشى الافتراس من الحيوانات الضارية، فوردت صور هذه الحيوانات في سياق القطيع لشعورها بدوام الخطر الذي يهددها، وحاجة الحيوانات إلى الشعور بالأمن الذي أفرزته الكثرة، فالبقرة لا ينفك ملتزماً بالقطيع خوفاً أو سلباً، فإن انفرد عنه فسيحل به ما حلّ بثور أبي ذؤيب الذي لاحقته الكلاب الضارية، فيقول (٢):

وَلَا شَبُوبٌ مِنَ الثَّيْرَانِ أَفْرَدَهُ عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الْإِغْرَاءِ وَالطَّرْدُ

وكذلك الحمار الوحشي الذي يلزم أتنه فلا يتركهن، يقول أمية بن أبي عائذ (٣): [المتقارب]

مُرِيّاً بِهِنَّ لَهَا أَمْرُهُ وَهِنَّ لَهَا حَاذِرَاتٌ قَوَالِي

فلا يترك الحيوان قطيعه في حالات الخوف والرّهبة أو في حالات الأمن والسّلم، مما يثبت أنّ التحام الحيوان بقطيعه إنّما هي ظاهرة اجتماعية خاصة بالحيوان، وليست سلوكاً عارضاً أو مؤقتاً تملّيه عليها ظروف الأمن والسّلامة. كما تحسن الحيوانات اختيار المكان الذي تجد فيه الأمن والسّلم، فتري البقرة الوحشي يقيم في الأودية الواسعة المنبسطة الخالية من أي معيق للبصر، أو أي شيء يساعد الصائدين على الاختباء خلفه، يقول قيس بن عيزارة (٤):

وَاللّٰهُ لَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ حَدَثَانِهِ بَقَرٌ بِنَاصِفَةِ الْجَوَاءِ رُكُودٌ

ظَلَّتْ بِبَلْقَعَةٍ وَخَبَتْ سَمَلِقُ فِيهِ يَكُونُ مَبِيتُهَا وَتَرُودُ

كما يظهر في شعر الهذليين طبيعة المكان الذي تقيم فيه الحيوانات وتستوطنه، وذلك تبعاً لطبيعة خلقها، يبرز ذلك في طبيعة جسمها وأطرافها، فالحيات تعيش في بيئة رملية، وإذا ما زحفت عليها ظهر أثر زحفها على الرمل، يقول المتنخل (٥):

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَّاتِ فِيهِ قَبِيلَ الصُّبْحِ آثَارُ السَّيَاطِ

(١) سورة الأنعام، ٣٨ / ٦.

(٢) الهذليون، الديوان، ١٢٦ / ١؛ الشبوب من الثيران: المسن منهن، أفردته انعزل عنها، الكور: القطيع، كثرة الإغراء والطرد: كثرة ملاحقة الكلاب له وطردها له.

(٣) الهذليون، م. ن، ١٧٧ / ٢، المرب: الملازم للآتن، قلينه: أبغضته.

(٤) الهذليون، م. ن، ٧٤ / ٣، ناصفة الجواء: الأرض المستوية المطمئنة، والجواء: البطن من الأرض والواسع من الأودية، ركود: الدعة والخصب، البلقعة: الأرض التي لا شيء فيها، الخبت والسملق: ما استوى من الأرض ولا نبت فيها، ترود: تجيء وتذهب.

(٥) الهذليون، م. ن، ٢٥ / ٢.

في حين تعيش أخرى في الماء الذي يجري بين الشجر، فتتحرك بهدوء وانسياب،
يقول المنتحل⁽¹⁾ :

كَالْأَيْمِ ذِي الطُّرَّةِ أَوْ نَاشِئِ الْمَغِيلِ بَرْدِي تَحْتَ الْحَفَا الْمَغِيلِ

وأبرز الهذليون ذلك، عندما قدّموا الثور الوحشي يعيش في المناطق الرملية للين أظلافها فتنتقل فيها بسهولة دون أن يؤثر في أظلافها، فأظلاف البقر أكثر ليناً. من هنا حرص الهذليون وهم يستعرضون صورة اصطياد الثور الوحشي على إخراجهم من المناطق اللينة إلى المناطق الوعرة؛ فلا يستطيع فيها هرباً، فتعيق الحجارة والحصى حركته، وتلحق به كلاب الصيد وتتمكن منه. ويصف أسامة ابن الحارث انتقال الثور الوحشي من الأرض اللينة إلى الأرض الصلبة وقد علاه الغبار وهو يفر من الصائد، فيقول⁽²⁾ :

يُقَرِّنُهُ وَالنَّقْعُ فَوْقَ سَرَائِهِ خِلَافَ الْمَسِيحِ الْغَيْثُ الْمُتَرَاوِدُ
إِذَا لَجَّ فِي نَفَرٍ يَشُقُّ طَرِيقَهُ إِرَاغَةً شَدَّ وَقَعُهُ مُتَوَاطِدُ
كَأَنَّ سُرَافِيّاً عَلَيْهِ إِذَا جَرَى وَحَارَبَهُ بَعْدَ الْخَبَارِ الْفِدَافِدُ

في حين كانت حوافر الوعل صلبة، فهي تقيم ويكثر تواجدتها في الأراضي الصخرية الصلبة التي لا تؤذيها لصلابة أظلافها وقدرتها على الحركة والتقل فيها، فيضيف ساعدة الصوت المنبعث من أرجل الوعل وهي تضرب الصخر⁽³⁾ :

وَشَفَّتْ مَقَاطِيعُ الرِّمَاءِ فُؤَادَهُ إِذَا يَسْمَعُ الصَّوْتِ الْمَغْرَدَ يَصْلُدُ

وتجد الحمر الوحشية في الأراضي الوعرة مكاناً مناسباً للعيش، يظهر ذلك عند هربها من الصائد حين يعلوها الغبار، ويتطاير الحصى تحتها لشدة وقع أرجل الحمار الوحشي مما يؤكد أنها تكون أنشط في الأراضي الوعرة، يقول صخر الغي⁽⁴⁾ :

كَأَنَّهُمَا إِذَا عَلَوْا وَجِينَا وَمَقْطَعُ حَرَّةٍ بَعَثَا رِجَامَا
يُثِيرَانِ الْجَنَادِلَ كَابِيَاتٍ إِذَا جَارَا مَعَاً وَإِذَا اسْتَقَامَا

ويجد الباحث في الشعر الهذلي ظهور الذكر والأنثى في بعض صور الحيوانات من فصيلة واحدة مجتمعة في مودة وألفة، وقد نجد للذكر عدداً من الإناث، أو مكتفياً بواحدة فقط، مما يشكل قناعة

(1) الهذليون ، الديوان ، 4 / 2 ؛ الأيم : الحية التي لها خطان أسودان ، ذي الطرة : ذي الخطوط ، ناشئ البردي : صغار الحية ، تحت الحفا : تحت البردي الأخضر، المغيل : الماء الذي يجري بين الشجر .

(2) الهذليون ، م . ن ، 205 / 2 ، يقرنه : يجري ، النقع : الغبار ، سرائه : ظهره ، خلاف المسيح : بعد العرق ، المترافد : المتتابع الذي لا ينقطع ، لج : نفر ، وقعه متواطد : جريه ثابت دائم ، السرافي : الثياب يربد الغبار ، الخبر : اللين من الأرض ، الفدافد : الصلب من الأرض ، يريد أنه مغطى بالغبار كالثوب نتيجة تنقله بين لين الأرض وصلبها .

(3) الهذليون ، م . ن ، 241 / 1 ؛ شفت : آذت ، مقاطيع الرماة : سهامهم ذات النصل العريض ، الصوت المغرد : الصوت المنبعث من ضرب الوعل أرجله بالصخر ، يصلد : يضرب الصخرة بيده فيسمع لها صوتاً .

(4) الهذليون ، م . ن ، 64 / 2 - 65 ، الوجين : الغليظ من الأرض ، الرجام : حجر يشد بعرقوة الدلو ليكون أسرع لانحدارها في البئر ، كابييات : يكبو ترابها أي يسفح ، يقول : إذا أثارها هذه الجنادل خرج من تحتها غبار .

راسخة أن هذه الحيوانات تعيش في ظل تجمع يمثل الأسرة، يتجلى حين تجد الصورة تضم الذكر والأنثى معهما صغارهما، وقد لا يكون مع الصغار سوى الأنثى فقط .

ورسم الشعراء الهذليون لوحات عدة تصور الارتباط الثنائي بين الذكر والأنثى، خاصة الحمار الوحشي وأتانه، أو الظليم ونعامته أو النور الوحشي وبقرته، فيظهر الحمار الوحشي حريصاً على أنثاه، شديد المحافظة عليها، يحميها ويدفع عنها كل أذى، ولا يتراجع عن ذلك، وإن رفضت أو تمنعت، فهو يصرُّ على القيام بدوره في حمايتها لمعرفته بالمخاطر التي تحيق بهما خلال رحلتهما إلى مورد الماء. ففي الوقت الذي يقوم الذكر بدوره الدفاعي تجاه الأنثى يجد منها ردود أفعال قاسية إلى حد ما، تتمثل برفضها، ودفعها، ورفضها له كي تبعده عنها، يقول أمية بن أبي عائذ⁽¹⁾:

[المتقارب]

يَجِيْشُ عَلَيَّهِنَّ جِيَّاشُهُ وَهَنَّ جَوَافِلُ مِنْهُ جَوَالُ

كما ترسم صورة الظليم مع النعامة صورة أخرى تحكي قصة الأسرة التي تظهر طبيعة الصلة بين الذكر وأنثاه من جهة، أو طبيعة العلاقة مع بيضهما أو صغارهما من جهة أخرى، وتبرز طبيعة العلاقة القائمة بين الذكر والأنثى القائمة على التعاون وتبادل الأدوار وتقاسم المهام، تغذيها المودة والحب، فنقيض العلاقة بالألفة والحنان والحنو، يضاف إليها ما ينبعث من مشاعر الأبوة والأمومة من الظليم والنعامة تجاه رثالهما.

ولعل ما يميز طبيعة العلاقة بين الظليم والنعامة أنها تتصف بالالتحام وشدة الترابط، فأغلب الطيور تبقى على علاقة الزوج حتى يموت أحد طرفيها، "وليس الزواج إلا في الإنسان والطيور"⁽²⁾، فالإتصال الوثيق بين الظليم وأنثاه شيء ظاهر في سلوكهما منغرس في طباعتهما لذا كان "أهم ما يميز حياة النعام من وجهة نظرنا نحن البشر هو التحاب التام والمودة الكبرى بين ذكر النعام وأنثاه، وذكر النعام ليس متعدد الزوجات مثل حمار الوحش وحيوانات أخرى كثيرة، بل يتخذ أنثى واحدة، يقتصر عليها، ويخلص لها طول حياته"⁽³⁾.

إن المراعي الخصبة والأرض المخضرة، وما فيها من كالأوماء لم تصرف الظليم والنعامة عن دورهما في تعهد البيض والقيام عليه، فانبعث الحياة السعيدة المنتظرة من بيض النعام أجمل وأعظم، لذا فإن "علماء الحيوان يقولون إن ذكر النعام من أكثر الآباء بين الحيوان تفانياً في خدمة صغاره والسهرة على أمنهم وراحتهم"⁽⁴⁾، فظلمة الليل تحول دون الاهتداء إلى الأدهي وتعيق الوصول إلى الصغار،

(1) الهذليون، الديوان، 2 / 181؛ جوافل: جمع جافل وهو الهارب.

(2) الجاحظ، الحيوان، 1 / 194.

(3) محمد النويهي، الشعر الجاهلي، ص 381.

(4) محمد النويهي، م. ن، ص 382.

فتراه حينما تبدأ ظلمة الليل بالانسداد وتزاحم أشعة الغروب يبادر مسرعاً إلى عشه ليحتمي بيضه من برد الشمال، يقول الأعلام⁽¹⁾ :

[الوافر]

كَأَنَّ مُلَاتِيَّ عَلَى هِزْزَفٍ يَغْنُ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرَّئَالِ

واستمراراً لصورة الحيوان في الشعر الهذلي في سياق الأسرة، فقد أورد الهذلي صورة صغار الحيوانات ضمن المشهد الاجتماعي الذي يكمل الصورة ويدفع باتجاه ملامستها للواقع، فصغير النعامة رأل عند الأعلام، وصغير الطيبي خرق عند ساعدة بن جؤية⁽²⁾، وخشف⁽³⁾ وشادن عند أبي ذؤيب⁽⁴⁾.

أما بالنسبة لنشاط الحيوان الجنسي في شعر الهذليين، ففيه إشارات واضحة وعديدة، تمثلت بداية بمراقبة الشعراء الهذليين لحيواناتهم، وتمييزهم بين الذكر والأنثى، ومعرفتهم بأعضائها الجنسية، وعدم التّحرج من تضمينها شعرهم، يقول قيس بن عيزرة⁽⁵⁾:

[الطويل]

أَثَابْتُ أَيْرَ الذَّنْبِ فِيمَ هَجَوْتَنِي وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ إِنِّي لَشَانِعُ

[الوافر]

وعرضوا الضبع خنثى، يقول حبيب الأعلام⁽⁶⁾ :

تَرَاهَا الضُّبْعُ أَعْظَمَهُنَّ رَأْسًا جُرَاهِمَةً لَهَا حِرَّةٌ وَثِيلٌ

وبرزت في رغبة الأنثى في الذكر وتمنعها عليه، وإصرار الأخير على طلبها، ثم ما يتبع ذلك من سلوكيات تصدر عن كليهما بعد لقاح الأنثى. ولا نجد صورة صريحة لعملية التزاوج نفسها، لتعمد الحيوانات في الاستتار حينها، أو ترفع الشعراء عن تصوير هذه المناظر وتضمينها شعرهم.

والمتأمل لصورة الحيوان في الشعر الهذلي يجد أن الحديث عن النشاط الجنسي يظهر في فصل الربيع فقط، عندما تخضر الأرض بالعشب وتسيل المياه في الأودية، فجاء الظليم يرعى مع نعامته في بيئة ريعية معشبة، يقول مالك بن خالد⁽⁷⁾:

[البسيط]

وَاللَّهِ مَا هَقَلَةً حَصَاءَ عَنْ لَهَا جَوْنُ السَّرَاةِ هَزَفٌ لَحْمُهَا زَيْمٌ

كَانَتْ بِأَوْدِيَةٍ مَحَلٍ فَجَادَ لَهَا مِنَ الرَّيِّعِ نِجَاءٌ نَبْتُهُ دِيمٌ

فَهِيَ شَنُونٌ قَدْ ابْتَلَتْ مَسَارِيهَا غَيْرُ السَّحُوفِ وَلَكِنْ عَظْمُهَا زَهْمٌ

(1) الهذليون ، الديوان ، 83 / 2 ؛ الهزف : الظليم ، الملاءة : العباءة والثوب ، يعن : يعترض ، العشية : وقت الغروب ، الرئال : فراخ النعام.

(2) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 168 / 1 .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 22 / 1 .

(4) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 35 / 1 .

(5) السُّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 596 / 2 ، أير الذنب : تحقيراً له لصغر حجمه ، الشانِع : المشهور .

(6) الهذليون ، م . س ، 87 / 2 الجراهمة : عظيمة الرأس ، الحرة : حر أنثى الضبع ، الثيل : جراب القضيب ، يريد أن الضبع خنثى .

(7) الهذليون ، م . س ، 14 / 3 ؛ الهقلة : النعامة ، حصاء : خالية من الريش ، عن لَهَا : اعترضها ، هزف لحمها : خفيفة اللحم ، زيم : مقطّع هنا وهنا؛ نجاء نبتة ديم : نبت سقي بماء مطر استمر أياماً ؛ شنون : متوسطة بين الهزال والسمنة ، ابتلت مساريها : سرى الشحم في جوانب بطنها ، غير السحوف : لا يقشر عن متنها الشحم ، يقول : ابتداءً فيها السمن وليست بالسحوف ، عظمها زهم : سمين فيه مخ .

فخلا جسمها من الريش في موسم التزاوج، وسرى الشحم في جسمها وامتألت عظامها بالمش، وقد اعترضها الظلم ولاحقها. مما يشير بوضوح إلى موسم التزاوج في فصل الربيع حيث العشب والماء، والامتلاء في الجسم وتساقط الريش عن النعامة الذي يدل على غلطة النعام ورغبتها في التزاوج.

كما نجد في مشهد الحمار الوحشي مع أنثى إشارات على الخصب والعشب والمطر، في زمن التزاوج بين الذكر والأنثى وهو موسم تهيج فيه الفحول والأثنى فتتقاتل فيما بينها لامتلاكها وضرايبها، يقول أبو خراش⁽¹⁾:

أَبْنُ عِقَاقاً ثُمَّ يَرْمَحُنْ ظَلْمَهُ إِبَاءً وَفِيهِ صَوْلَةٌ وَذَمِيلُ
يَظُلُّ عَلَى الْبَرْزِ الْيَفَاعِ كَأَنَّهُ مِنَ الْغَارِ وَالْخَوْفِ الْمُحَمِّ وَيِيلُ

ففي الوقت الذي يحرص فيه الحمار الوحشي على ملاصقة أتانته دون مسها بسوء، تقابله الأنثى بالصدود والتأبى والرفض، فيحاول ملاطفتها وملاينتها لكنها تتأبى، فكلما اقترب الحمار منهن ابتعدن وتأبين عنه، فيدرك أن ما في بطنها سبب هذا الصدود والتفور، ويستمر في متابعة ملاينتها وملاطفتها بمراقبة الطريق وبيئة المكان باعتلاء المرتفعات حرصاً على سلامتها من صائد أو حيوان ضار، يقول أمية بن أبي عائذ⁽²⁾:

يَجِيْشُ عَلَيْهِنَّ جِيَّاشُهُ وَهُنَّ جَوَافِلُ مِنْهُ جَوَالُ

ونجد الأمر نفسه في مشهد اجتماع الثور بالبقرة، فلا يجتمعان إلا في فصل التزاوج، ثم يفترقان. وجعل الله الربيع فصلاً للتزاوج والتكاثر، لأنه أنسب الأوقات لوضع البيض وتربية الصغار؛ لدفاء الجو وطول النهار، وكثرة الغذاء، فلا غرابة في ورود صورة الخشف عندما يبدأ العشب والكلأ بالنمو، يقول أبو ذؤيب⁽³⁾:

فَمَا أُمُّ خَشْفٍ " بِالْعَلَايَةِ " شَادِنِ تَنُوشُ الْبَرِيرِ حَيْثُ نَالِ اهْتِصَارُهَا
بِهِ أَبْلَتْ شَهْرِي رَبِيعٍ كُلِّيهِمَا فَقَدْ مَارَ فِيهَا نَسْوُهَا وَاقْتِرَارُهَا

وتعد الفحولة رمزاً للرغبة الجنسية التي لا تحول دونها أي معيقات، يقول أبو ذؤيب⁽⁴⁾:

فَهُنَّ صُعُرٌ إِلَى هَدْرِ الْفَنِيقِ وَلَمْ يَحْفِزْ وَلَمْ يُسْلِهِ عَنْهُنَّ الْقَاهُ

[البسيط]

(1) الهذليون ، الديوان، 2 / 117 - 121 ، الإبانة : استبانة الحمل ، العقاق: الحمل، الظلم : طلب السفاد في غير موضعه، الذميل : سير لين مع سرعة، البرز: ما يبرز للشمس، اليفاع : المرتفع من الأرض، الويل: العصا الغليظة الشديدة.
(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 181؛ يجيش عليهن : بما فار من عدوه، وهن جوافل : منقلعات منقطعات مبتعدات عنه.
(3) الهذليون، م . ن ، 1 / 22 ؛ الخشف : الطيبي أول مشيه ، العلاية : اسم موضع ، شادن : ظبية قوي لحمها منفردة عن القطيع، توش البرير: تتناول وتاكل ثمر الآراك ، نال اهتصارها : تجذبه ؛ به أبلت: بهذا الثمر اكتفت بالرطب عن الماء، شهري ربيع : شهري ربيع الأول وربيع الآخرة ، مار فيها : جرى فيها نسوها وظهر سمنها وبدانتها ، الاقترار: نهاية وغاية السمن.
(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 48 ؛ صعر: يعني الإبل ، لم يحفز: لم تذهب غلمته .

ومما لا شك فيه أنَّ الفحولة والقدرة الجنسية ترمز إلى تجدد الحياة والتكاثر والإخصاب عبر زرع بذور اللقاح والخصوبة. ومن إمارات اشتداد الغلظة لدى بعض الحيوانات سيلان الماء من الأنف، ومراقبة الفحل لبول الناقة المتقطع، الذي يدل على حملها، يقول مالك بن خالد (1) :

[الطويل]

بَطْنِ كَايَزَاغِ الْمَخَاضِ رَشَاشُهُ وَضَرْبِ كَتَشْقِيْقِ الْحَصِيرِ الْمُشَقِّقِ

وكذلك شم الحمار الوحشي بول الأتان، يقول أمية بن أبي عائذ (2) :

[المتقارب]

وَقَلَّ يَسُوفُ أَبْوَالَهَا وَيُوفِي زِيَاذِي حُدْبِ التَّلَالِ

ويقوم الذكر بشم بول الأنثى بقصد فحصها لمعرفة حملها من عدمه، كما أنه دليل واضح على اشتداد غلظة الحمار الوحشي تجاه اتانه. فلم يجد الهذليون حرجاً من تسجيل هذا المشهد بوضوح ودقة لدلالته الطبيعية والحقيقية للنشاط الحيواني بين الحيوانات .

ج. البعد الإنساني :

حرص الشعراء الهذليون على تضمين حيواناتهم الكثير من القيم الإنسانية، في غمرة التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، فوصفوها بالشجاعة والإقدام والصبر على الشدائد (3) بل قامت بدور الحماية والنجدة، يقول ساعدة بن جؤية (4) :

[الكامل]

تَحْمِيَهُمْ شَهْبَاءُ ذَاتُ قَوَانِسٍ رَمَازَةٌ تَأْبَى لَهُمُ أَنْ يُحْرَبُوا
مِنْ كُلِّ فَجٍّ تَسْتَقِيمُ طِمْرَةٌ شَوْهَاءُ أَوْ عِبْلُ الْجَزَارَةِ مِنْهَبٌ

فتقوم الخيل بدور إنساني مهم جداً، عندما تدفع الموت عن فارسها وتأبى على قومه أن يقعوا في عار الهزيمة والذل. أما حفظ الأسرار وكتمتها فهي أمانة لا يقدر على حملها حتى الإبل الهذلية، يقول أبو ذؤيب (5) :

[الطويل]

وَلَوْ أَنَّنِي حَمَلْتُهُ الْبُزْلَ لَمْ تَقُمْ بِهِ الْبُزْلُ حَتَّى تَتَلَبَّبَ صُدُورُهَا

(1) السُّكْرِي ، شرح أشعار الهذليين ، 1 / 472 ؛ الإيزاغ : الدفع بالبول، المخاض: النوق الحوامل التي تمخضت بالحمل، فيقال أوزغت ببولها : أي قذفت به ، رشاشه: ما تطاير من دمه، الحصير : كساء ، فله صوت إذا ما تشقق .

(2) الهذليون ، الديوان ، 2 / 178 – 179 ؛ يسوف : يشم ، يوفي : يعلو ، زيازي: ما غلظ من الأرض .

(3) ينظر : الهذليون ، م . ن ، 2 / 246 .

(4) الهذليون ، م . ن ، 1 / 185 – 186 ؛ الشهباء : الكتبية البيضاء من الحديد ، ذات قوانس : ذات بيض ، قونس الدابة : وسط رأسها، رمازة : تموج من كثرتها، حربية الرجل : ماله الذي يعيش منه ، الجزيرة : القوائم.

(5) الهذليون ، م . ن ، 1 / 154 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، 123 - 124 ، البزل : البعير ، تتلئب صدورها : تستقيم بعض النهوض .

وجاءت خيل صخر الغي تلحق بصيد فارسها، وزاد على ذلك أنها تمتلك قدرة على تتبع أثر الفريسة، فيقول (1):

وَقَدْ لَقِيَا مَعَ الْإِشْرَاقِ خَيْلًا تَسُوفُ الْوَحْشَ تَحْسِبُهَا خِيَامًا
بِغُلِّ مُقْلَصٍ ذَكَرٍ عَنْوَدٍ يَبْذُ يَدَ الْعَشْنَقِ وَاللَّجَامَا
فَشَامَتْ فِي صُدُورِهِمَا رِمَاحًا مِنْ الْيَزْنِيِّ أُشْرِبَتْ السَّمَامَا

فهي شريكة الشاعر في صيده، تتطلق معه عند بزوغ شمس الصباح، تتبع الحمار الوحشي وأنته، وتمد قوائمها كي ترفسهما وتعيق جريهما، كي يغمد الشاعر الرِّمَاح المسمومة في صدرهما، فيتمكن من صيدهما، فالشاعر يرسم صورة الخيل تعين فارسها على صيد فريسته، وتكون معه شريكة في رحلة الصيد منذ شروق الشمس ، وحتى اللحظات الحاسمة في الإيقاع بالصيد .

كما اتخذ بعض الهذليين من الثور الوحشي رمزاً للعزة والأنفة، فقدّموه في صورة اشتملت على ردود أفعال طبيعية من هرب وتوجس ورهبة، لكنه استطاع أن يتغلب عليها محافظاً على سمته في الصبر والإرادة والعزة والكبرياء، يقول أبو ذؤيب (2) :

حَتَّى إِذَا أَمَكَنْتَهُ كَانَ حِينئِذٍ حُرّاً صَبُوراً فَنِعْمَ الصَّابِرُ النَّجْدُ

كذلك اهتمامها بقطيعها وحرصها عليه، وإبعاد الأذى عنه، إذ يقوم الحمار الوحشي بدور القوامة، يقول أبو خراش (3):

يَظُلُّ عَلَى الْبَرَزِ الْيَفَاعِ كَأَنَّهُ مِنْ الْغَارِ وَالْخَوْفِ الْمُحِمِّ وَبِيلُ

وإذا فقدت الظبية خشفها، وانفرد عنها، فإن عقلها يذهب جزعاً عليه وخوفاً، فتُصاب بالولع، فلا تدري ما تفعل، يقول أبو ذؤيب (4):

بِأَسْفَلِ "ذَاتِ الدَّبْرِ" أَفْرَدَ خَشْفَهَا فَقَدْ وَلِهَتْ يَوْمِينَ فَهِيَ خَلُوجُ

أما الخيل فإنها تذب عن مهرها وتبعد عنه الأذى، ولو كان في ذلك مقتلها، يقول أبو ذؤيب (5):

بَضْرَبَ يَفْضُ الْبَيْضَ شِدَّةً وَقَعِهِ وَطَعَنَ كَرَكُضَ الْخَيْلِ ثَقْلَى مِهَارِهَا

(1) الهذليون ، الديوان، 2 / 65 - 66 ؛ الإشراق : الصباح ، تسوف : تصيد أو تشم ، المقلص المشرف : الفرس طويل القوائم، العنود: الذي يعترض في شق ، العشنق : الطويل من الخيل ، أي أطول من يد العشنق ، يبذ : يغلب ، شامت : أدخلت وأغمدت، اليزني: أصحاب الخيل ، السماما : السم .

(2) الهذليون ، م . ن ، 1 / 128 ؛ أبو ذؤيب الهذلي ، الديوان ، ص 89 - 90 ، حرّاً كريماً عزيزاً ، النجد: الشجاع ذو النجدة.

(3) الهذليون ، م . س ، 2 / 118 ، البرز: ما يبرز للشمس ، اليفاع : المرتفع من الأرض، الوبيل : العصا الغليظة الشديدة.

(4) الهذليون ، م . س ، 1 / 60 ، ذات الدبر : اسم موضع ، ولهت : ذهب عقلها على ولدها ، الخلوج : التي انتزع ولدها منها.

(5) الهذليون ، م . س ، 1 / 30 ، وطعن كركض: يعني الدم ينضح كأنه وقع الخيل في دفعه بأرجلها، بقلّي: بطرد وينحي ويبعد مهره.

فغيرة الخيل الأصيلة على مهرها وتعلقها به ودفع الأذى عنه، إنما تؤكد على طبيعة علاقة الأمومة وما يعتريها من مشاعر وأحاسيس يمكن أن تتسحب على الإنسان. وكذلك تحمي اللبوة من ينزل عندها، ويطلب الإجارة منها، فتدفع الغالي والنفيس دفعا عن المستجير، يقول قيس بن عيزارة⁽¹⁾:

[الكامل]

أَلْفَيْتُهُ يَحْمِي الْمُضَافَ كَأَنَّهُ صَبَحَاءُ تَحْمِي شِبْلَهَا وَتَحِيدُ

وتتناول أبو العيال الهذلي صورة الإبل وهي تسلو وليدها وتدر اللبن، فإذا ما تذكرته واكتشفت فقدانه أصابها وابل من الدعر والهيجان، فيقول⁽²⁾:

[الطويل]

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوِدِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ
كَمَا يَغْتَادُ ذَاتَ الْبَبِ وَبَعْدَ سَلَوِهَا الطَّرْبُ

ففي حين يصور الشاعر ما حلَّ به - عندما استذكر ابن عمه - من وصب ووجع، فهو يؤكد على سلوك جاهلي كانت تمارسه العرب إذا ما استحلبت ناقة بعد فقد وليدها، عن طريق حشو الجلد تبناً فتدر لبناً، فإذا ما شمته، ووجدته غير ابنها، رفضته وانتابتها حالة من الهيجان، وعادت جزعة يستخفها الطرب⁽³⁾، فغياص صغيرها يحيي لديها مكانم الشوق واللوعة عليه، ويجدد المأساة في نفسها، كما يعيد تذكر ابن عم الشاعر في نفسه الذكريات المؤلمة المليئة بالتفجع، ويعيد المأساة إلى قلبه بعد أن طواها الزمن.

أما النمر فإنه يمشي واثقاً ساكناً مدركاً لما يحيط به، فيقول صخر الغي⁽⁴⁾:

[المتقارب]

وَمَـاءٍ وَرَدْتُ عَلَى زُورَةٍ كَمَشِي السَّبْنَتِي يَرَاخُ الشَّفِيفَا

كما حرص ساعدة بن جؤية وهو يتناول الأسد والوعل على تجسيد بُعد إنساني، أكثر من حرصه على إظهار صفات الحيوانات وشكلها، فأراد الاعتبار بالحيوان الضاري، فأدخله في الرثاء لأن الإنسان الحزين يتأمل تناقضات الحياة، وتقلباتها خاصة حياة الأقوياء أو الأغنياء فيرى فيها العبرة والعظة، كما

(1) الهذليون ، الديوان ، 3 / 74 ؛ ألفيته : وجدته ، المضاف : المنهزم والمستجير ، الصباحاء : اللبوة التي يضرب لونها إلى البياض والحمرة ، تحيد : تروغ .

(2) الهذليون ، م . ن ، 2 / 242 ؛ الوصب : الوجع ، ذات البو : الناقة تسلو عن ولدها ثم تتذكره فتصيح ، البو : جلد الناقة يحشى تبناً لترأمة الناقة ، العفاء : ما كثر من الوبر والريش ، سلوها : بعد ما تسلو ، الطرب : الخفة وليس بفرح .

(3) الهذليون ، م . ن ، 2 / 201 .

(4) الهذليون ، م . ن ، 2 / 74 ؛ زورة : البعد وانحراف عن الطريق ، السبنتي : النمر ، الشفيف : البرد مع ريح بارد ، يقول الشاعر أنه مشى على رسله عندما ورد عين الماء حذراً وخوفاً من عدو متخفٍ ، كما يمشي النمر الهوينى .

أنه خرج من ذلك بحكمة إنسانية تدل على تبحره في أمور الحياة والموت والقدر⁽¹⁾، فالأسد مع كل قوته في صراعه مع الحياة أصدق بأساً من أبي سفيان، فقال⁽²⁾: [الطويل]

فَمَا خَادِرٌ مِّنْ أَسَدٍ حَيَّةٍ جَنَّهُ وَأَشْبَلُهُ ضَافٍ مِّنَ الْغِيلِ أَحْصَدُ
بِأَصْدَقِ بَاسٍ مِّنْ خَلِيلٍ ثَمِينَةٍ وَأَمْضَى إِذَا مَا أَفْلَطَ الْقَائِمِ الْيَدُ

ويتبع الشاعر صورة الأسد بقصة تسلط الدهر على الكائنات الحية، فيحكي لنا مأساة وعمل أصابته نوائب الدهر، فيقول ساعدة⁽³⁾:

أَرَى الدَّهْرَ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَبُودُ بِأَطْرَافِ الْمَنَاعَةِ جَلْعُدُ

فالأول لم تمنع قوته القدر ومصائب الحياة أن تحل به، والثاني لم تحمه قمم الجبال العالية الوعرة من وصول موته المقدر، وحتفه الذي حاول الاحتماء منه، لكن نهايته كانت له بالمرصاد.

أما العقاب فاتصفت بالجرأة، في هجومها على فريستها تطلب الغذاء لصغارها، فاستل ساعدة منها هذه الصفة وشبه نفسه وقومه بها، فيقول ساعدة بن العجلان⁽⁴⁾: [الكامل]

أَهْوِي عَلَى أَشْرَافِهَا لَا أَتَّقِي كَذْفِيفٍ فَتَخَاءِ الْقَوَادِمِ سَلْفَعُ

وضمن الهذليون شعرهم بعض الصفات الإنسانية السلبية، وضمنوا صورة الحيوان طمع العقاب لدى صخر الغي⁽⁵⁾، والحوول عن الخير، وإغماض الضأن عن الحق لدى أبي العيال⁽⁶⁾، وانتصار النيس للباطل لدى صخر الغي⁽⁷⁾.

(1) ميساء قتلان، شعر ساعدة بن جوية، ص 73.

(2) الهذليون، الديوان، 1 / 238 - 240؛ خادر: الذي اتخذ الغيضة خدراً، أحصد: الغليظ الكثيف، الغيل: ما كثف من

الشجر؛ ثمينة: بلد، خليل ثمينة: صاحبها وخليلها الذي يحبها ويأتيها.

(3) الهذليون، م. ن، 1 / 240، الأبود: الأبد وهو المتوحش، الجلد: الغليظ، المناعة: بلد.

(4) الهذليون، م. ن، 3 / 107؛ الذفيف: الخفيف السريع، فتخاء القوادم: في جناحها استرخاء، السلفع: جريئة سوداء الريش؛ الناهض: الفرخ، يورقها: يلقفها.

(5) ينظر: الهذليون، م. ن، 2 / 55.

(6) ينظر: الهذليون، م. ن، 2 / 263.

(7) ينظر: الهذليون، م. ن، 2 / 61 - 62.

الخاتمة :

بعد الانتهاء من هذه الدراسة توصلت إلى :

1. احتل الحيوان مكانة واضحة في الفكر الديني والأسطوري للهذليين، فجاء مقدساً يحلف به، وخليطاً من عدة حيوانات، فكان منسجماً مع عقيدة الجاهليين الأسطورية مع بعض الحيوانات كالثور الوحشي والغزال والظليم والعقاب والحمامة والديك وغيرها.

2. لم تختلف نظرة الهذليين إلى الحيوانات عن غيرهم من القبائل الجاهلية، بل امتدت حتى عهد متقدم في صدر الإسلام، فتناولوا الحيوان الشادر والساري في الصحراء، والحيوان الأليف والضاري، فوصفوا الحمر والبقر الوحشية والوعول والظباء والذئاب والضباع والأسود والنمر والثعلب، كما وصفوا النعام والحمام والعقبان والصقور والنسور، كذلك الحيات وغيرها من الزواحف، والنحل وغيرها من الحشرات. ولم يتركوا الحديث عن حيوان وقعت عليه عيونهم ورأوا في عرضه تعبيراً عن مشاعرهم، أو فيه توصيفاً حقيقياً لطبيعة حياتهم إلا قدموه وتناولوه باستفاضة أو مرور سريع.

3. وظف الهذليون الصورة السمعية والحركية في صورة الحيوان، كما قدموها بألوانها الواقعية وأصواتها الحقيقية، حتى كانت صادقة نابعة من تجربة حقيقية عاشها الهذلي، وشاهدها بعينه وسمعها بأذنه، ثم أفاض عليها من سحر لغته، وجمال ألفاظه، وروعة تشبيهاته، مستفيداً من جدارته في نظم القصيد .

4. لم يتحدث الهذليون عن الحيوان في قصيدة بشكل منفرد، أو كي يكون غرضاً لقصيدة بعينها، بل عرضه حسبما تقتضيه الحالة الشعورية ومقتضيات الصورة ما جعلها أكثر قوة وتأثيراً، فكانت مؤثرة في المتلقي، وزادت في رصانة القصيدة وفي روعتها وبهائها. إذ جاء الحديث عن الحيوان في الرثاء والنسيب والفخر والمدح والهجاء والحنين، وكانت تفيض أغلب الصور بالحكمة والعبرة والعظة، خاصة فيما يتعلق بالدهر والموت وتداول الأيام على الإنسان الهذلي.

5. تناول الهذليون الحيوان باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة المحيطة بهم، فلم يقدم مجرداً من عناصر الطبيعة المحيطة، بل وظفوها لإكمال الصورة، وبث روح الحياة فيها، فظهرت من خلاله أبعاد دينية أسطورية، ورمزية ونفسية واجتماعية وإنسانية، الأمر الذي ترك أثراً واضحاً في اعتبار شعر الهذليين سجلاً نابضاً بالحياة كشف عن طبيعة الحياة الهذلية في الجاهلية وصدر الإسلام.

6. ارتبط الحيوان في ديوان الهذليين بالكثير من القيم والاتجاهات الايجابية والإنسانية، فجاءت صورته تحكي قصة الكرم والنجدة والمرؤة والشجاعة، والقوة والضعف، والعطف والحنان، والطمع والبخل وغيرها فأضفت بعداً واسعاً، وتركت في النفس أثراً كبيراً .

7. أبرز الحيوان في شعر الهذليين موقع اللون في نفس الشعراء، وقيمة الزمان ودلالاته، وأهمية المكان وأثره، فكان تغير اللون أو تعدده دالاً على البعد النفسي والدلالي لدى الشاعر، وتلاحق الليل والنهار والشهور والفصول أثره في تبدل الأيام وتغيرها، والتثقل من مكان إلى مكان دوره في التأثير على التنوع

والطَّبَع لدى الحيوان والإنسان على حد سواء. فعبر ذلك عن مشاعر حَقِيقَةٍ تجيش في نفس الشَّاعر، تختلط فيها مشاعر التَّفَاوُل والتَّشَاوُم.

8. أَوَّضَح الهُدَلِيون طَبِيعَةَ الحيوان الفطرية عبر وصف المكان الذي تحسن العيش فيه، ونوع التَّجْمَع الذي تفضله وتختاره، وطَبِيعَةَ العلاقة التي تربط الحيوان بأبناء فصيلته وجنسه. كما أَوَّضَحَت بعض المشاهد الطَّبِيعَةَ الغريزية التي تنظم العلاقة بين الذَّكَر والأنثى، في الجانب الأُسْري والحميمي وطَبِيعَةَ العلاقة التي تربط الحيوان بصغاره؛ مما جعل الشَّاعر الهُدَلِي إنساناً بمعنى الكلمة، يعيش الواقع ويقدمه في صورة حَقِيقَةٍ مؤثرة، تلقى من المتلقي الرِّضا والاعتناح .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر :

- 1 الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت 850هـ) ، المستطرف في كل فن مستظرف ، بيروت : دار الفكر ، د . ت.
- 2 ابن الأثير، علي بن محمد (ت 630هـ) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط 4 ، بيروت : دار الكتاب العربي، 1424هـ / 2004م .
- 3 الأزدي ، علي بن ظافر (ت 623 هـ) ، غرائب التنبيهات وعجائب التشبيهات ، تحقيق حمد زغلول سلام وزميله ، القاهرة : دار المعارف ، 1983م ، [سلسلة ذخائر العرب 45] .
- 4 الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت 250هـ) ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : علي عمر ، ط 1 ، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ، 1424هـ / 2004م .
- 5 الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ) ، الأغاني ، ط 2 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1412هـ / 1992م .
- 6 الأعشى ، الديوان ، شرح يوسف شكري فرحات ، ط 1 ، بيروت : دار الجيل ، 1413هـ / 1992م .
- 7 الألوسي ، محمود شكري (ت 1342هـ) ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ط 1 ، بترخيص نظارة المعارف ، بغداد : مطبعة دار السلام ، 1314هـ ،
- 8 امرؤ القيس، الديوان ، شرح عبد الرحمن المصطاوي، ط 3 ، بيروت : دار المعرفة ، 2006م / 1427هـ .
- 9 أمية ابن أبي الصلت ، الديوان ، ط 1 ، حققه : سجع جميل الجبيلي ، بيروت : دار صادر ، 1998م .
- 10 البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت 284هـ) ، ديوان الحماسة ، ضبطه لويس شيخو ، ط 2 ، بيروت : دار الكتاب العربي، 1967م / 1387هـ .
- 11 البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ) ، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت .
- 12 البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق : مصطفى السقا ، بيروت : عالم الكتب ، د. ت .
- 13 تأبط شراً ، ديوانه ، قدمه طلال حرب ، ط 1 ، بيروت : دار صادر ، 1996م .

- 14 الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ) :
- أ. **البيان والتبيين** ، تحقيق : درويش جويدي ، بيروت: المكتبة العصرية ، 2007م / 1428هـ
- ب. **الحيوان** ، تحقيق : إيمان الشيخ محمد وغريد الشيخ محمد ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1429هـ / 2008م .
- 15 ابن جعفر، قدامة البغدادي (ت 327هـ) ، **نقد الشعر** ، تحقيق كمال مصطفى، ط3 ، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1963م .
- 16 الجمحي ، محمد بن سلام بن عبد الله (ت 231هـ) ، **طبقات فحول الشعراء**، شرحه: محمد محمود شاكر، القاهرة : مطبعة المدني ، د. ت .
- 17 ابن حبيب ، محمد بن أمية (ت 245هـ) ، **المحبر** ، رواية أبي سعيد السكري ، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بلا تاريخ .
- 18 ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت 456هـ) ، **جمهرة أنساب العرب**، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1403هـ / 1983م .
- 19 الحموي ، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ):
- أ. **معجم الأدباء** ، بيروت : دار صادر، 1376 هـ / 1377 هـ .
- ب. **معجم البلدان**، بيروت : دار صادر، 1374 / 1376هـ .
- 20 ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت 808هـ) ، **المقدمة**، ط 1 ، بيروت : دار الفكر، 1424هـ / 2003م .
- 21 الدّميري، محمد بن موسى بن عيسى (ت 808هـ) ، **حياة الحيوان الكبرى** ، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1405هـ / 1994م .
- 22 ابن رثيق ، الحسن القيرواني (ت 456هـ) ، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط1 ، القاهرة : دار الطلائع 2006 م .
- 23 الزبيدي ، المرتضي محمد بن محمد بن عبد الرزاق (ت 1205هـ)، **تاج العروس**، ط1 ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، 1306هـ.
- 24 السكري ، الحسن بن الحسين (ت 275هـ) ، **شرح أشعار الهذليين** ، تحقيق : عبد الستار فراج ومحمود محمد شاكر ، القاهرة ، مكتبة دار العروبة ، د. ت .
- 25 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، بولاق ، 1282هـ .

- 26 الطبري، محمد بن جرير بن يزيد (ت 310 هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة : دار المعارف، 1969 م.
- 27 طفيل الغنوي ، الديوان ، شرح الأصمعي ، تحقيق حسان فلاح أوغلي ، ط1 ، بيروت : 1997 م .
- 28 ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد الأندلسي (ت 328 هـ) ، العقد الفريد ، تحقيق عبد المجيد الترحيني ، ط3 ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1407 هـ / 1987 م .
- 29 عنتر بن شداد ، الديوان ، ط2 ، بيروت : دار صادر ، 1412 هـ / 1992 م .
- 30 ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276 هـ) :
- أ. أدب الكاتب ، بيروت : المكتبة العصرية ، 1425 هـ / 2004 م.
- ب. الشعر والشعراء ، بيروت: المكتبة العصرية ، 1426 هـ / 2006 م .
- ت. عيون الأخبار، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الحديث، 1418 هـ / 1998 م .
- 31 القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت 170 هـ)، جمهرة أشعار العرب ، ط1 ، بيروت: دار المسيرة ، 1398 هـ / 1978 م .
- 32 القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت 682 هـ) ، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط2، المنصورة : مكتبة الإيمان ، 2006 م .
- 33 ابن الكلبي ، هشام بن محمد (ت 204 هـ)، الأضنام ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة : دار المعارف المصرية ، 1924 م .
- 34 المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285 هـ)، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : محمد الدالي، ط3 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1418 هـ / 1997 م .
- 35 المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384 هـ) ، معجم الشعراء ، صححه وعلق عليه ف . كرنكو ، ط1، بيروت : 1411 هـ / 1991 م .
- 36 المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العربية ، 1406 هـ / 1986 م .
- 37 ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ) ، لسان العرب ، بيروت : دار صادر ، 1314 هـ / 1994 م .
- 38 الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت 518 هـ)، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، ط2 ، بيروت : دار الجيل ، 1407 هـ / 1987 م .

- 39 النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1954م .
- 40 الهذلي ، أبو ذؤيب ، الديوان ، تحقيق أنطونيوس بطرس ، ط1 ، بيروت ، دار صادر ، 2003م / 1424 هـ .
- 41 الهذليون ، ديوان الهذليين ، ط2 ، القاهرة : مطبعة دار الكتب ، 1995م .

المراجع :

- 42 الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ط5 ، القاهرة : دار المعارف ، (د . ت) .
- 43 بادنجكي ، طاهر ، قاموس الخرافات والأساطير ، ط1 ، طرابلس : جروس برس ، 1416/1996 هـ .
- 44 البطل ، علي عبد المعطي ، الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، ط3 ، بيروت : دار الأندلس ، 1983م .
- 45 جاد المولى ، محمد أحمد وآخرون ، أيام العرب في الجاهلية ، القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1961م .
- 46 الجبوري ، يحيى ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ط6 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1414 / 1993 هـ .
- 47 الجدع ، أحمد ، تاريخ هذيل وأنسابها ، عمان : دار الضياء للنشر والتوزيع ، 1432 هـ / 2011م .
- 48 جمعة ، حسين :

أ. الحيوان في الشعر الجاهلي ، ط1 ، دمشق ن بيروت : دار دانية للطباعة والنشر ، 1989م .

ب. مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية ، ط1 ، دمشق ، بيروت : دار دانية للطباعة والنشر ، 1990م .

49 الحوت ، محمود سليم ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ط1 ، بيروت : مطبعة دار الكتب ، 1950م .

50 الحوفي ، أحمد محمد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ط5 ، بيروت : دار القلم ،

- 1972م .
- 51 خان ، محمد عبد المعيد ، الأساطير العربية قبل الإسلام ، ط 1 ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، 1426هـ / 2005م .
- 52 الخطيب ، عماد علي سليم ، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي ، ط 1 ، إريد : مكتبة الكتاني ، 1996م .
- 53 خليف ، يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ط 2 ، القاهرة : دار المعارف ، 1966م .
- 54 رومية ، وهب ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ط 3 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1402هـ / 1982م .
- 55 زكي ، أحمد كمال :
- أ. الأساطير دراسة حضارية مقارنة ، ط 2 ، بيروت : دار العودة ، 1979م .
- ب. دراسات في النقد الأدبي ، ط 2 ، بيروت : دار الأندلس ، 1980م .
- ت. شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، القاهرة : دار الكاتب العربي ، 1389هـ / 1969م .
- 56 أبو سويلم ، أنور :
- أ. الإبل في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، الرياض : دار العلوم ، 1983م .
- ت. دراسات في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، بيروت ، عمان : دار الجيل ، دار عمار ، 1408هـ / 1987م .
- ث. المطر في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، عمان ، بيروت : دار عمار ، دار الجيل ، 1407هـ / 1987م .
- ج. مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي ، عمان : دار عمار ، 1410هـ / 1991م .
- 57 شكر ، شاكر هادي ، الحيوان في الأدب العربي ، ط 1 ، بيروت : عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، 1405هـ / 1985م .
- 58 الشملان ، نورة ، أبو ذؤيب الهذلي : حياته وشعره ، ط 1 ، الرياض : جامعة الرياض عمادة شؤون المكتبات ، 1400هـ / 1980م .
- 59 الشورى ، مصطفى عبد الشافي ، الشعر الجاهلي : تفسير أسطوري ، ط 1 ، القاهرة : دار المعارف ، 1986م .

- 60 ضيف ، شوقي :
- أ. العصر الإسلامي ، ط 7 ، القاهرة : دار المعارف ، 1963م [تاريخ الأدب العربي 2] .
- ب. العصر الجاهلي ، ط 26 ، القاهرة : دار المعارف ، 2007م [تاريخ الأدب العربي 1] .
- 61 طلاس ، مصطفى ، الذئب في آداب الشعوب ، دمشق : دار طلاس ، 1996م .
- 62 طيب ، عبد الجواد :
- أ. من لغات العرب : لغة هذيل ، منشورات جامعة الفاتح ، دت .
- ب. هذيل في جاهليتها وإسلامها ، ليبيا : الدار العربية للكتاب ، 1982م .
- 63 عبد الحافظ ، صلاح ، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، القاهرة : دار المعارف ، دت .
- 64 عبد الحكيم ، شوقي ، مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية ، ط 1 ، بيروت : دار ابن خلدون ، 1978م .
- 65 عجبنة ، محمد ، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ، ط 1 ، بيروت : دار الفارابي ، 1994م .
- 66 عطية ، محمد هاشم ، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، القاهرة : دار الفكر العربي ، 1417 / 1997 هـ .
- 67 عمرو ، عايد ، الذئب في الشعر والتراث العربي ، ط 1 ، عمان : دار فضاءات للنشر والتوزيع ، 2007م .
- 68 القناوي ، عبد العظيم علي ، الوصف في الشعر العربي ، ط 1 ، القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، 1368 هـ / 1949م [الجزء الأول : الوصف في الشعر الجاهلي] .
- 69 القيسي ، نوري حمودي :
- أ. الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، بيروت : عالم الكتب ، 1425 هـ / 2004م .
- ب. الفروسية في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، بيروت : عالم الكتب ، 1425 هـ / 2004م .
- 70 أبو موسى ، محمد محمد ، الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء ، ط 1 ، القاهرة : مكتبة

وهبة ، 1429هـ / 2008م .

71 ناصف، مصطفى:

أ. دراسة في الأدب ، بيروت : دار الأندلس ، 1978م .

ب. قراءة ثانية لشعرنا القديم ، بيروت : دار الأندلس ، د. ت .

72 الننتشة ، إسماعيل داود محمد ، أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي ، ط 1،

عمان، بيروت : دار البشير ، مؤسسة الرسالة ، 1422هـ / 2001م .

73 النوتي ، زكريا عبد المجيد ، الذئب في الأدب القديم ، ط1، القاهرة : دار العلم ، 2004 م

74 نوفل ، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ط2 ، القاهرة : دار العلم للملايين ، د. ت .

75 النويهى ، محمد ، الشعر الجاهلي: منهج في دارسته وتقويمه ، القاهرة: الدار القومية

للطباعة والنشر ، د. ت .

76 يونس، عبد الحميد ، معجم الفلوكلور ، ط1، بيروت : مكتبة لبنان ، 1983م .

الرسائل :

77 الأمين، محمد الحسن، الصورة البيانية في شعر الهذليين: دراسة وتحليل ومقارنة، رسالة

دكتوراة- غير منشورة، إشراف: عبد الفتاح لاشين، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1410 هـ.

78 سلمان ، كمال فواز، الشمس في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير - غير منشورة، بإشراف :

إحسان الديك، نابلس : جامعة النجاح، 2004م.

79 عبد الله، محمود صبري علي، الحية في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير - غير منشورة ،

إشراف : إحسان الديك، جامعة النجاح ، 2003م .

80 العلمي، المكي ، شعراء هذيل: أخبارهم وأشعارهم في القرن الأول الهجري ، رسالة

ماجستير - غير منشورة، إشراف : عمر موسى باشا، دمشق : جامعة دمشق ، 1983م.

81 أبو عون ، أمل محمود عبد القادر، اللون في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير - غير

منشورة، إشراف :إحسان الديك ، نابلس ، جامعة النجاح ، 2003م .

82 قتلان ، ميساء ، شعر ساعدة بن جؤية الهذلي : دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير - غير

منشورة، إشراف: حسين جمعة، دمشق : جامعة دمشق، 1424هـ / 2003م.

- 83 كنعان، عاطف محمد، **الصورة الفنية في شعر الهذليين** ، رسالة ماجستير - غير منشورة، بإشراف : عبد القادر الرباعي، أريد: جامعة اليرموك، 1411هـ / 1990م .
- 84 ياسين، مي أحمد، **الآخر في الشعر الجاهلي** ، رسالة ماجستير - غير منشورة ، بإشراف : إحسان الديك، نابلس: جامعة النجاح، 2006م.

الدوريات :

- 85 الديك ، إحسان :
أ. **صدى عشتارفي الشعر الجاهلي**، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مج 15 ، ع 2، حزيران 2001م.
ب. **الهامة والصدى، صد الروح في الشعر الجاهلي**، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مج 13 ، ع 2 ، حزيران 1999م .
- 86 رومية ، وهب ، **توظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي** ، مجلة التراث العربي - دمشق، ع93و94، السنة 24، آذار وحزيران 2004 / 1424هـ .
- 87 زكي ، أحمد كمال ، **التفسير الأسطوري للشعر القديم** ، مجلة فصول ، مج 3 ، ع 3 ، 1981م .
- 88 سويدي، سلامة عبد الله، **مليح بن الحكم : شاعر من هذيل**، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، قطر ، العدد الثامن ، 1996م .
- 89 عطية ، خليل إبراهيم، **لغة هذيل** ، مجلة الأقلام العراقية ، الجزء 11 ، السنة الأولى، ربيع الأول 1385هـ ، تموز 1965م .
- 90 المنصوري ، جريدي، **مشهد النحل في شعر الهذليين** ، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر - القاهرة، العدد الحادي والعشرين : 1424هـ .

الفهارس الفنية

أ. فهرس الآيات القرآنية :

الرقم	الآية القرآنية	الصفحة
1	" أفرايتم اللات والعزى ... "	10
2	" قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ... "	13
2	" ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة... "	12
4	" وأنه هو رب الشعرى "	12
5	" وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرون وداً ولا سواعاً ... "	11
6	" وما من دابة في الأرض ولا طائر "	117
7	" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة "	41

ب. فهرس مطالع الأبيات الشعرية:

الرقم	مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
الباء					
1	كأصحم فرد على	الذبابا	المتقارب	أسامة بن الحارث	87
2	زجرت لها طير الشمال	اجتنابها	الطويل	أبو ذؤيب	16 ، 99
2	بآية قام ينطق	الغراب	الوافر	أمية بن أبي الصلت	25
4	ومنا عصبه أخرى	الطراب	الوافر	أبو قلابه	45
5	جوارسها تأري الشعوف	شعابها	الطويل	أبو ذؤيب	89
6	فما الراح راح الشام	عقابها	الطويل	أبو ذؤيب	91
7	وأرسلت الحمامة	تهاب	الوافر	أمية بن أبي الصلت	25
8	وكننت إذا سلكت	الذبابا	الوافر	أبو المورق	43
9	إذا ما احتث	لبب	م . الوافر	أبو العيال	23
10	شاب الغراب ولا فؤادك	يعتب	الكامل	ساعده بن جؤية	83
11	فأدبر يحدو الضأن	جندب	الطويل	حذيفة بن أنس	62
12	ويحمله جموم	هدب	م . الوافر	أبو العيال	61
12	حتى إذا فقد الصبوح	عقارب	م . الكامل	حبيب الأعم	87
14	فخانت غزالا جاثما	سارب	الطويل	صخر الغي	97
15	صدود القلاص الأدم	سارب	الطويل	صخر الغي	103
16	بذخاء كلهم	الأجرب	الكامل	ساعده بن جؤية	41
17	تحميهم شهباء	يحرىوا	الكامل	ساعده بن جؤية	122
18	بنو الحرب أروضنا	مدرب	الطويل	مالك بن خالد	79
19	إذا مهرت صلبا	فتقرب	الطويل	ساعده بن جؤية	43
20	وتجر مجرية	حواشب	م . الكامل	حبيب الأعم	77
21	فالدهر لا يبقى	حوشب	الكامل	ساعده بن جؤية	49
22	ذكرت أخي فعادوني	الوصب	الطويل	أبو العيال	124
22	أتى مالك يمشي إليه	قاطب	الطويل	مالك بن خالد	14 ، 99
24	خرق غضيض الطرف	أخطب	الكامل	ساعده بن جؤية	51
25	إني وأيديها وكل	تنعب	الكامل	ساعده بن جؤية	93
26	أتيح له يوما وقد طال	ساغب	الطويل	صخر الغي	4
27	فأكون صيدهم بها	السواغب	م . الكامل	الأعم	37 ، 107
28	أرى الجوارس في نؤابة	الموكب	الكامل	ساعده بن جؤية	90
29	ولله فتخاء الجناحين	الأرانب	الطويل	صخر الغي	85
20	سود سحالي كأن	راهب	م . الكامل	الأعم	93
21	متقارب أنسابهم	ترهب	الكامل	ساعده بن جؤية	37
22	وعمى عليه الموت	منهب	الطويل	حذيفة بن أنس	86
22	تدعو الحمامة شجوها	المتأوب	الكامل	أبو ذؤيب	21 ، 23
24	إذا جلست في الدار	المتصوب	الطويل	ساعده بن جؤية	115
25	الطاعن الطعنة	أثعوب	البسيط	جنوب الهذلية	40
26	كأنني إذ عدوا	طلوبا	الوافر	أبو خراش	84
27	فألقى غمده وهوى	طلوب	الوافر	أبو ذؤيب	84
28	فعيني لا يبقى على الدهر	العصائب	الطويل	صخر الغي	49 ، 71

29	فمرت على ريد	خائب	الطويل	صخر الغي	47
40	تمشي النسور إليه	الجلابيب	البسيط	جنوب	114، 105

التاء

41	فلا تتبع الأفعى يدك	سفاتها	الطويل	خالد بن زهير	47 ، 86
42	ولا تبعث الأفعى	سفاتها	الطويل	أبو ذؤيب	47

الجيم

42	إذا أوقدت نيرانها	منضج	الطويل	مليح بن الحكم	103
44	وما أن أحور	هدوج	الوافر	عمرو بن الداخل	35
45	بأسفل ذات الدبر	خلوج	الطويل	أبو ذؤيب	123
46	كمتن الذئب لا نكس	عموج	الوافر	عمر بن الداخل	87
47	وهادية توجس كل	نشيج	الوافر	ربيعة بن الكودن	69
48	كان ابنة السهمي	هميج	الطويل	أبو ذؤيب	74

الحاء

49	أمنك برق أبييت الليل	مصباح	البسيط	أبو ذؤيب	101
50	فهن صعر إلى هدر	إلقاح	البسيط	أبو ذؤيب	121
51	فتى ما ابن الأغر	قماح	الوافر	مالك بن خالد	42
52	بأطيب من مقبلها	النبوح	الوافر	أبو ذؤيب	12
52	وما إن فضلة	الصروح	الوافر	أبو ذؤيب	81
54	ألا يا حمام الأيك	تنوح	الطويل	أبو كبير	45
55	فصاحب صدق كسيد	نجيحا	المتقارب	أبو ذؤيب	76
56	ثم إذا فارق	تصريح	البسيط	أبو ذؤيب	57
57	فإن تمس في رمس	تصيح	الطويل	أبو ذؤيب	19
58	ثم إذا الشول راحت	مطاليح	البسيط	أبو ذؤيب	102
59	أربت لإربته فانطلقت	السنيجا	المتقارب	أبو ذؤيب	16، 99

الدال

60	غادرها وهي تكبو تحت	الزبد	البسيط	أبو ذؤيب	69، 97
61	حنى رأيتهم تعلقو	واللد	البسيط	مليح بن الحكم	55
62	لعمرك والمنايا	نجد	الوافر	أبو خراش	22
62	حتى إذا أمكنته	النجد	البسيط	أبو ذؤيب	123
64	فوالله لا يبقى	فارد	الطويل	أبو ذؤيب	66
65	وأمهلت في إخوانه	الشوارد	م. الكامل	أسامة بن الحارث	47، 83
66	من وحشي حوضى	منجرد	البسيط	أبو ذؤيب	97
67	مصطفة كاصطفاف	شرد	البسيط	مليح بن الحكم	24
68	ولا شبوب من الثيران	والطررد	البسيط	أبو ذؤيب	96، 117
69	تالله يبقى على الأيام	غرد	البسيط	أبو ذؤيب	97
70	كان ما فوقها مما	جسد	البسيط	مليح بن الحكم	111
71	فما خادر من أسد	أحصد	الطويل	ساعدة بن جوية	77، 115
72	مستقبل الريح	العضد	الطويل	أبو ذؤيب	107
72	أرى الدهر لا يبقى	جلعد	الطويل	ساعدة بن جوية	20، 72، 110،

115					
117	أسامة بن الحارث	الطويل	المتراقد	يقرنه والتقع سراته	74
104	صخر الغي	المنسرح	نقد	تيس تيس إذا يناطحها	75
117	أسامة بن الحارث	الطويل	يصلد	وشفت مقاطيع الرماة	76
70	ساعة بن جؤية	الطويل	مهند	ولا أسفع الخدين	77
105، 80	صخر الغي	الوافر	الهجود	وما إن صوت نائحة	78
117، 96، 21	قيس بن عيزارة	الكامل	ركود	والله لا يبقى على	79
82	أبو خراش	الوافر	يرود	ولا يبقى على الحدثان	80
82	أبو خراش	الوافر	عنود	غداة يرتاد بين	81
124، 113	قيس بن عيزارة	الكامل	وتحيد	ألفيته يحمي المضاف	82
113، 40، 36	أبو ضب	الكامل	أصيد	ولقد أقود الجيش	82
41	قيس بن عيزارة	الكامل	زهيد	وإذا تروحت اللقاح	84
47	أبو خراش	الوافر	زهيد	ألا فاعلم خراش	85

الذال

46	أبو ذؤيب	المتقارب	رذي	كعوذ المعطف أحزى	86
----	----------	----------	-----	------------------	----

الراء

112، 37	أبو ذؤيب	الطويل	عشارها	فإنك لو ساءلت	87
109، 74، 35	أبو ذؤيب	الطويل	اهتصارها	فما أم خشف	88
121، 115					
41	أبو ذؤيب	الطويل	شفارها	ضروب لهامات	89
123	أبو ذؤيب	الطويل	مهارها	بضرب يقض البيض	90
56	أبو جندب	الطويل	الموتر	إذا أدركت أولاهم	91
62	حذيفة بن أنس	الطويل	أصحرا	ونحن جزرنا نوفلا	92
111	البريق الهذلي	الطويل	مصر	فإن أمس شيخاً بالرجيع	92
35	أبو خراش	الطويل	القطر	إذا ذكرت يرتاح	94
12	أبو ذؤيب	المتقارب	البقر	بأطيب منها إذا	95
40	خالد بن مالك	الطويل	محم	متى تنزعوا	96
50	أبو جندب	المتدارك	نمر	وتقطع بيننا رحم	97
106	أبو خراش	الوافر	القبور	لعلك نافعي يا عرو	98
11	أمية بن أبي الصلت	الخفيف	البحورا	عاقدين النيران	99
122	أبو ذؤيب	الطويل	صدورها	ولو أنني حملته	100
42	ساعة بن جؤية	الطويل	حشورها	يزحزحهم عنه	101
8	ساعة بن جؤية	الطويل	فخصورها	أضر به	102
47، 23	خالد بن زهير	الطويل	يثيرها	فلا تك كالثور	102
15	أبو ذؤيب	الطويل	ونصيرها	أحاذر يوماً أن تبين	104
110	ساعة بن جؤية	الطويل	عقيرها	ومنك هدو الليل	105
55	ساعة بن جؤية	الطويل	أميرها	أهاجك من غير الحبيب	106

الزاي

5	المتنخل	البسيط	محجوز	لو أنه جاءني جوعان	107
4	المتنخل	البسيط	مكنوز	لا در دري إن أطعمت	108

109	يا مي لا يعجز	فراس	اليسين البسيط	مالك بن خالد	79
الطاء					
110	أبيت على	العباط	الوافر	المتنخل	25
111	وخرق تعزف	انخراط	الوافر	المتنخل	13
112	قليل ورده إلا سباعا	المراط	الوافر	المتنخل	102
112	يمشي بيننا	القطاط	الوافر	المتنخل	6
114	مشعشة كعين الديك	الخمط	الوافر	المتنخل	81
115	كان وغي الخموش	هياط	الوافر	المتنخل	87
116	كان مزاحف الحيات	السياط	الوافر	المتنخل	117
العين					
117	تراهم حول	سواع	الوافر	غير معروف	10
118	قلت : أتبكي ذات	تبع	الطويل	غير معروف	16
119	الدهر لا يبقى على	أربع	الكامل	أبو ذؤيب الهذلي	18، 49، 64
120	فبدا له أقراب	يرجع	الكامل	أبو ذؤيب	65
121	فكبا كما يكبو	أبرع	الكامل	أبو ذؤيب	97
122	فصر عنه تحت الغبار	مصرع	الطويل	أبو ذؤيب	49
122	فشرعن في حجرات	الأكرع	الكامل	أبو ذؤيب	65
124	أمن المنون وريبها	يجزع	الكامل	أبو ذؤيب	97
125	تعدو به خوصاء	تمزع	الكامل	أبو ذؤيب	59
126	فرمى لينفذ فرها	المنزع	الكامل	أبو ذؤيب	67
127	حتى إذا جزرت	تنتقطع	الكامل	أبو ذؤيب	64
128	أهوي على أشرافها	سلفع	الكامل	ساعة بن العجلان	115
129	فوردين والعيوق	يتتلع	الكامل	أبو ذؤيب	12
120	ينهشنه ويذبهن	مولع	الكامل	أبو ذؤيب	67
121	أثبت أير الذئب	لشائع	الطويل	قيس بن عيزارة	43، 120
122	والدهر لا يبقى على	مروع	الكامل	أبو ذؤيب	20، 49، 67
الفاء					
122	وتبوا الأبطال	الموحف	الكامل	أبو كبير	56
124	تداركه أولى	الخواطف	الطويل	ساعة بن جوية	22
125	وإذا الكماة تعاورا	المضعف	الكامل	أبو كبير	22، 94
126	فبيننا يمشيان جرت	دغوف	الوافر	أبو ذؤيب	15
127	ولقد وردت الماء	الصيف	الكامل	أبو كبير	37، 75
128	وقال لقد خشيت	أعيف	الوافر	أبو ذؤيب	16
129	وماء وردت على	الشفيفا	المتقارب	صخر الغي	124
140	نحن الذين	الأحاليق	الخفيف	الأعشى	21

141	بطعن كإيزاغ المخاض	المشقق	الطويل	مالك بن خالد	122
142	أو أصحم حام جراميزه	بالدحال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	51
142	وليل كأن أفانينه	المظالي	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	94، 103
144	فسل الهموم	انتقال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	57، 82، 95
145	هجان السراة ترى	الصقال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	23، 70
146	مرباً بهن له أمره	قوالي	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	117
147	وظل يسوف أبوالها	التلال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	122
148	هزف أصنف الساقين	الشمال	الوافر	الأعلم الهذلي	82
149	على حت البراية	طوال	الوافر	الأعلم الهذلي	16
150	يجيش عليهن جياشه	جوال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	119، 121
151	إذا غربه عمهن	باغتيال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	66
152	ذمول تزف زفيف	الرئال	المتقارب	أمية بن أبي عائذ	107، 120
152	كأن ملأتي على هزف	للرئال	الوافر	حبيب الأعلم	46
154	واسل عن الحب	يعجل	السريع	المتنخل الهذلي	91
155	لعمر ك ما عيساء	النجل	الطويل	أبو ذؤيب	25
156	فناشوا بأرسان	بالرواحل	الطويل	ساعده بن جوية	60
157	فما فضلة من	الضحل	الطويل	أبو ذؤيب	57
158	عير عليهن	الأكل	السريع	المتنخل الهذلي	25
159	ترى طالبي الحاجات	النحل	الطويل	أبو خراش	113
160	فلقد جمعت من الصحاب	سخل	الكامل	أبو كبير	84
161	توقى بأطراف القران	الأجادل	الطويل	أبو ذؤيب	84
162	وإذا رميت به الفجاج	الأجل	الكامل	أبو كبير	102
162	وما ضرب بيضاء ياوي	ونازل	الطويل	أبو ذؤيب	90
164	فشرجها من نطفة	سلاسل	الطويل	أبو ذؤيب	91
165	أبا المثلم مهلا	عصل	البسيط	صخر الغي	100
166	يا صخر ثم استقي	خضل	البسيط	أبو المثلم	107
167	ولكن على قرم هجان	عيطل	الطويل	أمية بن أبي عائذ	104
168	للقمر من كل فلا	كالحنظل	السريع	المتنخل	61
169	ألا زعت	شغلي	الطويل	أبو ذؤيب	24
170	وإن حديثاً منك	مطافل	الطويل	أبو ذؤيب	36
171	له أبطلا ظبي	تتفل	الطويل	امروء القيس	18
172	وعى لبوس للبئيس	مجفل	الكامل	أبو كبير	104
172	ومفرهة عنس	بالقفل	الطويل	أبو ذؤيب	24
174	إذا هي قامت تقشعر	الصقل	الطويل	أبو ذؤيب	109
175	وكل شמוש العدو	المراكل	الطويل	ساعده بن جوية	75
176	أرى الدهر لا يبقى	حول	الطويل	أبو خراش	44
177	وكننت كعظم العاجمات	نحولها	الطويل	أبو ذؤيب	50
178	فمن كان يرجو	لوائل	الطويل	أبو خراش	50
179	يظل على البرز	وبيل	الطويل	أبو خراش	121، 123
180	تراها الضبع أعظمهن	وثيل	الوافر	حبيب الأعلم	120
181	أبانا بيوم العرج	المزيل	الطويل	ساعده بن جوية	40

21	أبو خراش	الطويل	نصيل	ولا أمعر الساقين	182
77	ساعة بن جؤية	الكامل	القطيل	إذا ما زار مجناة	182
117، 101	المتنخل	السريع	المغيل	كالأيم ذي الطرة	184
الميم					
117	صخر الغي	الوافر	رجاما	كأنهما إذا علو	185
81	صخر الغي	الوافر	أداما	لقد أجرى لمصرعه	186
101	عبد الله بن أبي ثعلب	المتقارب	الضراما	وعيني جودا على مالك	187
36	أبو الحنان	الوافر	البغام	لها عينا مهاة	188
97، 21، 17	صخر الغي	الوافر	الحماما	وذكرني بكاي علي تلبد	189
22	عبد الله بن ثعلب	المتقارب	رماما	فجعنا بهم	190
106	عبد الله بن ثعلب	المتقارب	الحماما	فذلك خط لنا في	191
123	صخر الغي	الوافر	خياما	ولقد لقيا مع الإشراف	192
23	عبد الله بن ثعلب	المتقارب	التنأما	إمام إذا	192
72	ساعة بن جؤية	الكامل	كالسجم	حتى أتيج له رام	194
94، 39	ساعة بن جؤية	الكامل	منتحم	وشرجب نحره دام	195
45	أبو خراش	الطويل	لحمي	لقد علمت أم الأديبر	196
71	ساعة بن جؤية	الكامل	خدم	تالله يبقى على الأيام	197
107	ساعة بن جؤية	الكامل	زرم	موكل بشدوف الصوم	198
87	معقل بن خويلد	الطويل	العرم	أبا معقل لا توطئتك	199
50	أبو خراش	الطويل	وشم	فجاءت كخاصي العير	200
37	مالك بن خالد	البسيط	يختطم	كفت ثوبي	201
99، 6	أبو خراش	الطويل	بالطعم	أرد شجاع البطن	202
37	إياس بن سهم	الكامل	ضيغما	ومنا الذي لاقى	202
106	أبو خراش	الطويل	والرقم	لعمري لقد ملكت	204
110	ساعة بن جؤية	الكامل	ينم	حتى شأها كليل	205
107	مالك بن خالد	البسيط	زهم	فهي شنون قد ابتلت	206
113، 85، 37	ساعة بن جؤية	الطويل	لحوم	فما راعهم إلا أخوهم	207
87	أبو خراش	الطويل	الحزم	وعادية تلقى الثياب	208
87	ساعة بن جؤية	الطويل	يسوم	فلم ينتبه حتى	209
111	أبو جندب	الطويل	سائما	على حنق صبحتهم	210
120، 83، 37	مالك بن خالد	البسيط	زيم	والله ما هقلة حصاء عن	211
89	ساعة بن جؤية	الكامل	فضيمها	وما ضرب ببيضاء يسقي	212
النون					
14	تأبط شرا	الوافر	اللسان	إذا عينان	212
1	مالك بن خالد	الطويل	نوازن	فأي هذيل	214
63	أبو العيال	الكامل	زبون	فلسوف تنساها	215
79	بدر بن عامر	الكامل	بعيون	أسد تفر الأسد من	216
95، 47، 16	أبو العيال	الكامل	أذين	أو كالنعامة إذ غدت	217
104	أبو العيال	الكامل	تغنييني	جهراء لا تألو	218
الياء					
12	طفيل الغنوي	البسيط	حاديها	أما ابن طوق	219
114	جنوب	البسيط	داعيها	وليلة يصطلي بالفرث	220

ت. فهرس الأمثال العربية :

الرقم	المثل	الصفحة
1	أحمق من نعامه	51
2	أذل من اليعر	51
2	أشأم من أحمر عاد	50
4	أشأم من غراب البين	24
5	أشجى من حمامة	51
6	أشرد من خفذيذ	52
7	أشم من نعامه	16
8	إنه لغضيض الطرف	51
9	جاء كخاصي العير	50
10	جمع له جراميزه	51
11	كطالب القرن جدعت أذنه	52
12	كنت للمصيبة كالعظم ترتمه الإبل	50
12	لا أفعل حتى يشيب الغراب	52
14	لبست له جلد النمر	50
15	لكل جنب مصرع	52
16	نطح بقرن أرومه نقد	52

ث. فهرس الأعلام :

الرقم	العلم	الصفحة
	الألف	
1	ابن أوى	20
2	ابن رشيق	54
2	ابن سلام الجمحي	7
4	أبو الحارث	20
5	أبو الحنان	36
6	أبو العيال الهذلي	16، 23، 47، 60، 61، 63، 95، 104، 116، 124، 115
7	أبو المثلّم	80، 107
8	أبو المورق	43
9	أبو بئينة الصاهلي	44، 115
10	أبو جندب الهذلي	50، 56، 111
11	أبو خراش	6، 20، 21، 22، 35، 44، 45، 47، 50، 60، 76، 82، 84، 85، 87، 99، 106، 113، 121، 123
12	أبو ذؤيب الهذلي	87، 12، 15، 16، 22، 23، 18، 20، 21، 23، 24، 25، 35، 36، 37، 41، 46، 47، 49، 50، 51، 52، 55، 56، 57، 59، 60، 62، 64، 65، 67، 69، 73، 74، 76، 79، 81، 82، 84، 85، 86، 87، 89، 90، 91، 96، 97، 99، 101، 102، 107، 109، 112، 115، 116، 117، 120، 121، 122، 123
12	أبو سعيد السكري	8
14	أبو صخر الهذلي	57، 91
15	أبو ضب	36، 40، 113
16	أبو عبيدة	8، 15، 99
17	أبو عمرو الشيباني	8
18	أبو عمرو بن العلاء	7
19	أبو قلابة	45
20	أبو كبير الهذلي	22، 37، 45، 56، 60، 75، 76، 81، 84، 87، 94، 102، 104، 109
21	أحمد الحوفي	11، 13
22	أحمد كمال زكي	18، 20، 87
22	الأزد	4
24	أسامة بن الحارث	47، 52، 57، 66، 76، 83، 87، 96، 117
25	أسماء	24، 25
26	اسماعيل بن ابراهيم	9
27	الأصمعي	7، 8، 18، 54، 55، 59
28	الأعشى	20، 41
29	الاعلم الهذلي	16، 37، 76، 82، 93، 120
20	أم الأديبر	45
21	أم عامر	20
22	أم عبد الله	35

47، 74، 86	أم عمرو	22
7	الإمام الشافعي	24
18، 61	امرؤ القيس	25
23، 51، 55، 57، 62، 66، 70، 82، 94، 95، 103، 104، 107، 117، 119، 121، 122	أمية ابن أبي عائذ	26
11، 25	أمية بن أبي الصلت	27
25	أميمة	28
37	إياس بن سهم	29
الباء		
47، 79	بدر بن عامر	40
51، 62، 80، 81، 111	البريق الهذلي	41
7	بنو سنان	42
12	بنو قيس عيلان	42
42	بنو لحيان	44
43، 44	بنو الديل بن بكر	45
5، 10	بنو صاهلة	46
التاء		
14	تأبط شراً	47
16، 21، 80، 106	تليد	48
3، 21	تميم	49
الثاء		
6	ثقيف	50
22	ثمود	51
الجيم		
16، 17، 24، 25	الجاحظ	52
13، 17، 22	الجن	52
80	جنادة بن عامر	54
40، 76، 80، 105، 114	جنوب الهذلية	55
3	جهام	56
4	جهينة	57
الحاء		
20	حاتم	58
3	حارث	59
9	الحارث بن تميم	60
21	الحارث بن خويلد	61
46، 77، 87، 107	حبيب الأعم	62
62، 86	حذيفة بن أنس	62
3	حريث	64
7، 41	حسان بن ثابت	65
11	حمير	66
الخاء		
40	خالد بن مالك	67

23، 47، 86	خالد بن زهير	68
3	خليل العطية	69
4، 10، 12	خزاعة	70
1	خزيمة بن مدركة	71
3	خناعة	72
الراء		
69	ربيعة بن الكودن	72
15	رؤبة	74
الزاي		
7	الزبيدي	75
20	زهير بن العجوة	76
السين		
44	سارية بن الزنيم	77
812، 20، 22، 37، 39، 40، 41، 42، 44، 48، 49، 51، 52، 55، 57، 60، 61، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 79، 81، 83، 85، 87، 89، 90، 91، 93، 94، 96، 107، 109، 110، 113، 115، 117، 120، 122، 124، 115	ساعة بن جؤية	78
115	ساعة بن عجلان	79
20	سفيان بن ساعة	80
113	سلمى بن معقل	81
4	سليم	82
9، 10	سواع	82
الشين		
12	الشعري	84
الصاد		
22	صالح " عليه السلام "	85
4، 16، 21، 46، 52، 57، 71، 80، 85، 91، 97، 100، 103، 104، 105، 106، 107، 117، 123، 124، 115	صخر الغي	86
14، 15	الصدى	87
9، 9، 9، 18، 37، 49، 77	الصعاليك	88
الطاء		
9	الطبري	89
11، 12، 107	طفيل الغنوي	90
العين		
22، 97، 101، 106	عبد الله ابن أبي ثعلب	91
76	عبد الله بن الزبير	92
87	عبد الله بن عتبية	92
3	عبد الله بن مسعود	94
6	عثمان بن عفان	95
106	عروة بن الورد	96
10	العزى	97

10	علي بن أبي طالب	98
87، 76، 74، 69، 35	عمر بن الداخل	99
9	عمرو بن العاص	100
15	عمرو بن العلاء	101
21	عمرو بن القيس	102
12، 10، 9	عمرو بن لحي	102
3	عمير	104
61	عنتره العبسي	105
الغين		
41	غساسنة	106
3	غنم	107
القاف		
9، 7، 5	قريش	108
124، 120، 117، 113، 96، 43، 41، 21	قيس بن عيزارة	109
الكاف		
11	كلب	110
4، 3	كنانة	111
اللام		
10	اللات	112
3	لحيان	112
الميم		
122، 120، 107، 99، 83، 79، 55، 42، 37، 14، 1	مالك بن خالد الخناعي	114
91، 87، 83، 81، 76، 74، 61، 44، 24، 13، 5، 6، 4	المتنخل الهذلي	115
117، 103، 102، 101		
11	مذحج	116
14	المسعودي	117
10	مناة	118
41	مناذرة	119
3	معاوية بن أبي سفيان	120
60	المعطل الهذلي	121
87، 47	معقل بن خويلد	122
10	المغيرة بن شعبة	122
111، 103، 55، 24	مليح بن الحكم القردي	124
3	منعة	125
النون		
41	النابعة الذبياني	126
21	نشيبه	127
18	نصرت عبد الرحمن	128
25	نوح "عليه السلام"	129
الهاء		
15، 14	هامة	120
10	هبل	121
11، 10	همدان	122

4	هوازن	122
الواو		
9	الواقدي	124
11	ود	125
الياء		
11	يعوق	126
11	يغوٲ	127
5	اليهود	128
94، 63	يوسف خليف	129
94، 7	يونس بن حبيب	140

ج. فهرس الأماكن والمواضع :

الرقم	اسم المكان	الصفحة
	الألف	
1	أدام الوتير	3
2	الأرك	3
2	أوطاس	3
	الباء	
4	بطن أنف	3
5	بطن نخلة	3
	الجيم	
6	جبال الجوز	3
7	جبل الأخشب	9
	الحاء	
8	الحجاز	3 ، 16
9	حلية	3
	الدال	
10	دومة الجندل	11
	الذال	
11	ذي المجاز	5 ، 8
12	ذي عرق	3
	الراء	
12	رهاط	9
	السين	
14	سعية	3
	الشين	
15	الشام	22 ، 57
16	شمنصير	3
	الطاء	
17	الطائف	10
	العين	
18	العراق	10 ، 116
19	عرفات	9
20	عرفة	3
21	عرنة	3
22	عكاظ	5 ، 44
	القاف	
22	قراص	3
	الكاف	
24	ككب	3
25	الكنانة	3
	الميم	
	149	

5		مجنة	26
12 ، 3		المدينة	27
3		المراح	28
3		مركوب	29
9		المزدلفة	20
22		مصر	21
3		مكا	22
10 ، 9 ، 3		مكة	22
3		ملكان	24
	النون		
3		نخلة	25
	الهاء		
3		هوازن	26
10		هيت	27
	الواو		
3		وادي نخلة	28
3		وادي نعمان	29
5		الوتر	40
3		الوصيق	41
	الياء		
16 ، 9 ، 7		اليمن	42
10		ينبع	42

قائمة المحتويات

الصفحة	المبحث
أ	الإهداء
ب	الإقرار
ت	الشكر والتقدير
ث	الملخص
ج	ABSTRACT
ح	المقدمة
25 - 1	الفصل الأول : قبيلة هذيل وموقع الحيوان في التراث العربي
2	أولاً : التعريف بقبيلة هذيل :
2	1. ما معنى هذيل
2	2. بطون هذيل ومنازلها
3	3. أيام هذيل
4	4. الحياة الاقتصادية
5	5. الحياة الاجتماعية
6	6. الحياة الثقافية
6	أ. الفصاحة
7	ب. الشعر
9	ثانياً : المعتقدات الدينية لدى العرب في الجزيرة العربية
10	أ. الأصنام
11	ب. عبادة النار
11	ت. عبادة القمر والنجوم
12	ث. تقديس الحيوان
13	ج. عبادة الجن وتقديسها
14	ح. معتقدات أخرى
14	1. الهامة والصّدى
15	2. الرّجر والتّطير
16	3. مطايا الجن

18	ثالثاً: العلاقة بين الأساطير والمعتقدات العربية
18	1. دور الأسطورة في تشكيل المعتقدات عند العرب
19	2. موقع الحيوان في الأساطير والمعتقدات عند العرب
20	3. الحيوان المقدس " الطوطم "
21	4. الأسطورة والموروث الجاهلي
21	أ. النّاقة
23	ب. الثّور والغزال
24	ت. الذئب
24	ث. الغراب
25	ج. الحمام
25	ح. النّعام
52 - 26	الفصل الثاني: مواضع ورود صورة الحيوان في شعر الهذليين
27	أ. الحيوان في الرثاء
32	ب. الحيوان في النسيب
36	ت. الحيوان في الفخر
39	ث. الحيوان في الحماسة
41	ج. الحيوان في المدح
43	ح. الحيوان في الهجاء
45	خ. الحيوان في الحنين
47	د. الحيوان في الحكمة
50	ذ. الحيوان في المثل الشعري
92 - 53	الفصل الثالث: صورة الحيوان في شعر الهذليين
45	أ. الحيوانات الأليفة
54	1. الإبل
59	2. الخيل
61	3. حيوانات أليفة أخرى
63	ب. الحيوانات المتوحشة
63	1. الحمار الوحشي
68	2. الثور الوحشي وبقرته

70	3. الوعل
73	4. الظبي
75	ت. الحيوانات الضارية
75	1. الذئب
78	2. الضبع
78	3. الأسد
80	ث. الطيور
80	1. الطيور الأليفة
82	2. الطيور المتوحشة
84	3. الطيور الجارحة
86	ج. الزواحف والحشرات
87	ح. النحل
125 – 92	الفصل الرابع : أبعاد صورة الحيوان في شعر الهذليين
93	أ. البعد الديني والأسطوري
100	ب. البعد الرمزي
105	ت. البعد النفسي
112	ث. البعد الاجتماعي
112	1. البعد الاجتماعي الإنساني
116	2. البعد الاجتماعي الحيواني
122	ج. البعد الإنساني
126	الخاتمة
135 – 128	قائمة المصادر والمراجع
128	أ. المصادر
131	ب. المراجع
134	ت. الرسائل
135	ث. الدوريات
150-136	الفهارس الفنية
136	أ. فهرس الآيات القرآنية
137	ب. فهرس مطالع الأبيات الشعرية

143

ت. فهرس الأمثال العربية

144

ث. فهرس الأعلام

149

ج. فهرس الأماكن والمواضع

154 - 151

قائمة المحتويات